

ألكسندر كرافتشوك



الوثنية و المسيحية

مرحلة الصراع الحاسمة وإيقاف الأولمبيادات في العصر القديم عام ٣٩٣

دار الحصاد

ترجمة د. كبرو لحدو

ألكسندر كرافتشوك

الوثنية والمسيحية

مرحلة الصراع الحاسمة
وإيقاف الأولمبيادات في
العصر القديم عام ٣٩٣

ترجمة د. كبرو لحدو

إهداء

إلـــى قطـرتـــي الـنـدى ليـفيـا ولـحدو،
وإلـي روح جدهما، الندى الذي شاء القـدر
أن لا يراهـمـا. هذا الـجـهـد الـمـتواضـــع

التاريخ والأولمبيادات

يقارن المثل الإغريقي القديم، لعله الفيثاغوري، يقارن حياة ومواقف الناس باللوحات، التي كانت تشاهد أثناء المباريات في أولمبيا. فالبعض يأتي إلى هذا المكان للنزال في الحلبات وكسب الشهرة والجوائز ولفت الأنظار. وثمة آخرون كانوا يجيئون لتحقيق الربح بهذا الأسلوب أو ذاك، يتنقلون وسط حشد المشاهدين، يصرخون ويقايضون. وأما أولئك الذين كانوا وحدهم الجديرين بلقب الأولمبيين الحقيقيين فقد كانوا يحضرون لا للتنافس ولو بأنبل صوره، ولا بدافع شهوة الشهرة وطلب التصفيق، وقبل أي شيء آخر لم يكن حضورهم المباريات بدافع كسب المال؛ بكل بساطة كانوا متعطشين ومن أعماق سكون الروح للاستمتاع بمشاهدة روعة المهرجان. للإبتهاج والفرح، لاستعراض الحركة والكفاءة لا غير ودون التفكير بأية مكاسب شخصية.

لهذه المقارنة ميزة أخرى، تكمن في أنها تعكس بصورة حسنة كيفية تقييم الإغريق لمواقف الناس وأهداف المباريات. كان نظام التقييم هذا ملزماً لقرون طويلة في أوساط مثقفي الحقبة القديمة. وجرت محاولات حثيثة لفرضه على شرائح أوسع. كان النجاح متفاوت الدرجات. أجل، أحبوا الشهرة، والسمعة الحسنة، وأبدوا إعجاباً شديداً بالسباقات. من حيث المبدأ لم يدينوا السعي وراء الذهب والفضة. لكنهم وضعوا مثلاً يعلو على كل شيء، إنه الحياة المكرسة للتأمل وحده، أي بحث ودراسة الحقيقة بنزاهة؛ كل حقيقة، في أي من مجالات الحياة. أُطلق على هذا النمط من الموقف الفكري باللغة الإغريقية اسم ((Theorias)) أي النظرية. وهذا ما سميت به في البداية عملية الرصد لشتى الظواهر، عملية الرصد بحد ذاتها، وفيما بعد الوفود الدولية الرسمية المتوجهة إلى المباريات المقدسة، لمشاهدتها وتمجيد الآلهة، وأخيراً ذلك الموقف الفكري المشار إليه لتوه، أي التفكير الموجه

نحو القضايا العظيمة والمجردة؛ وكذلك ثماره. وبهذا المعنى الأخير بالذات، ظلَّ المصطلح حياً حتى يومنا الحاضر. كانت النظرية ((Theoria)) في مفهوم الحكماء الإغريق بمثابة الخير الأسمى. وفقاً لبعض المفاهيم الفلسفية يعتمد الوجود السعيد للآلهة الخالدين على قدرتهم على تكريس كل شيء للـ ((Teoria)) وحدها، أي على النظر المباشر إلى الألق الملهم للحقيقة النهائية. وهكذا، كلما كانت حياتنا ـ هذا ما قاله الأقدمون ـ أكثر تحرراً من روابط الجوانب الإجرائية الضيقة، تميل أكثر نحو التفكير النظري، وتصبح أكثر ألوهية.

يحتفظ المثل بِجِدِّية دوماً، لأنه لا يقتصر على الأزمنة والعلاقات القديمة فحسب، وإنما يشمل بعض الحالات، وأنماط السلوك، ومعايير القيم المتكررة باستمرار. كما أنه بمثابة نذير لنا. فالمباريات الأولمبية تشد المئات والآلاف من المتبارين من شتى الدول. وهي تشد قبل كل شيء، جماهير غفيرة من المشجعين المتّقدي الحماس؛ والحقيقة أن الجانبين لا يتحلون دوماً بالنزاهة المطلقة والسامية. يمكن أن يبدو الأمر وكأن هُواساً غريباً يستحوذ على رقع شاسعة من المناطق ذات الكثافة السكانية الأعلى، والمدينة الأرفع، من الكرة الأرضية كل أربع سنوات تماماً ـ كما كان يحدث يوماً في بلاد الإغريق.

في العصور القديمة أطلق على فترة الأعوام الأربعة التي تفصل بين المهرجانات، اسم الأولمبياد، كما أطلقت هذه التسمية على المباريات ذاتها، وإن كان هذا نادراً. والآن يستخدم هذا المصطلح أيضاً بمعنيين، وإن كنا عندما نقول أولمبياد، غالباً ما نعني المباريات وحدها. كما وأن الأمر لا يقتصر على المباريات الرياضية وحدها، بل يشمل التنافس في شتى أنواع المهارات العلمية؛ وعلى أقل تقدير، هذا ما جرت عليه العادة في بلدنا. ومن هنا يمكن فهم عنوان هذا الكتاب على نحو مزدوج: **كرواية عن وقائع المهرجان الأخير في أولمبيا القديمة**، أو **كتاريخ للأعوام القليلة الفاصلة ما بين المهرجان الأخير وما قبل الأخير**. سيكون من الأفضل بطبيعة الحال أن يُبْحَثَ الموضوعان معاً. ولكننا لا نعرف شيئاً عمّا جرى في الميادين على ضفاف نهر **ألفيوس** عندما اجتمع المتبارون هناك للمرة الأخيرة. فنحن نجهل المجرى، الذي اتخذته المنافسات، وكذلك أسماء الفائزين. وعلى أي حال، لو شاءت الصدف ووقعت بين أيدينا تقارير حقيقية ودقيقة كتبها شاهد عيان عن المهرجان الأخير، فقد لا تبدو مثيرة بذلك القدر، الذي نتوقعه. مثلما لا يثير اليوم اهتمام الكثيرين سرد وقائع لقاءات رياضية تمت قبل بضعة أعوام. إذ أنها ليست سوى مجموعة من الفكاهات، والنوادر المتألقة بالحنين إلى ذكريات الشباب، وشيء من التعاطف مع الأرقام القياسية، والعواطف، والمعاناة التي مضت. ولا تستدرج هذه الصور أية أفكار عميقة ـ ربما باستثناء

واحدة فقط: ألم نذهب بعيداً في عبادتنا للفعل الرياضي، الذي يكاد أن يتم إعداده مخبرياً؟

أمّا فيما لو أخذنا كموضوع لتأملاتنا ذلك الجزء من التاريخ، الممتد بين مهرجانين متتاليين، وتمت مراجعة أكثر الأحداث إثارة في تلك الأعوام الفاصلة بينهما، واستعرضت ألمع شخصياتها، ووصفت التيارات والظواهر الأكثر بروزاً في شتى مجالات الحياة الاجتماعية فإن الأمور ستتخذ عندئذ صيغاً مختلفة تماماً. وبخاصة إذا طُرح التساؤل: لأي الأسباب اختفت المهرجانات في لحظة معينة، بعد أن احتفل بها بذلك القدر من الانتظام طيلة تلك القرون؟ عندئذ، قد تكون الرواية عن قضايا وأناس مرحلة موت الأولمبيادات القديمة مفيدة من جوانب متعددة لجيلنا، الذي راح بعد مرور ما يقارب الخمسة عشر قرناً من التوقف يستمتع برؤية الموكب الظافر للمهرجانات المنبعثة.

حقيقة يجب أن يشكل هذا الكتاب مجرد جزء من كل أكبر، من كل يضم أربع مقالات مستقلة فلنأمل بأن هذه الرباعية ستكتمل تدريجياً، وستأخذ شكلها التام كثمرة لعمل عدد من المؤلفين. فالجزء الأول سيرسم صورة العالم في الأيام، التي راحت فيها احتفالات المهرجانات الأولمبية تأخذ شكلها المنتظم؛ كان هذا في القرن الثامن قبل الميلاد، موعد شروق أو بالأحرى يقظة الثقافة الإغريقية. ويتحدث الجزء الثاني، الذي نتعرض له في هذا الكتاب، عن مرحلة لاحقة، جاءت بعد الأولى باثني عشر قرناً، حيث حلّت نهاية أولمبيادات الحقبة القديمة. والجزء الثالث؟ سوف يحدثنا عن أيام الأولمبياد الأولى في عصرنا، أي عن الأعوام ١٨٩٦ ـ ١٩٠٠ . وهي الفترة التي أوشك فيها على الانتهاء القرن التاسع عشر، قرن الثورة الصناعية والليبرالية، وبدأت مرحلة قصيرة وبهيجة، كانت حبلى بما يبرر ثقتها بأنها جميلة. لكن التقدم التقني، والتناقضات الاجتماعية والسياسية، كانت قد بدأت تنذر بكابوس الحرب ورعب شتى جوائح القرن العشرين. وأما الجزء الرابع من الرباعية المفترضة؟ سيكون مكرساً للدورة الأولمبية الأخيرة في نظامنا. سيكتب أحدهم كتاباً كهذا في المستقبل ـ إذا وُجِدَ مَنْ يكتب أو يعرف أن يكتب، وإذا وُجِدَ قُرّاء. إذ ستأتي، ستأتي بكل تأكيد لحظة تاريخية، تقطع بهذا الأسلوب أو ذاك مجرى ووجود المهرجانات، التي تثير كل هذا الإعجاب، وتحظى بكل هذا التوقير.

متى سيحدث هذا، ولأية أسباب، ومن سيكون المذنب؟ لا وجود لعرافٍ أو قارىء غيب يستطيع أن يشير إلى ذلك ولو على نحو تقريبي. فالموت الطبيعي أو العنيف؛ يمكن أن يأتي بعد آلاف عديدة من الأعوام. أو بعد أعوام قليلة. وكل دورة بما في ذلك تلك، التي نستعد

لها، قد تكون الأخيرة. يعتقد البعض أن شيئاً ما قد حدث، شيء ينذر بالشر للفكرة العظيمة، الفكرة الأولمبية عن السلم، والأخوة، والتنافس الشريف. فبدون هذه الفكرة، لن تكون المباريات، حتى الأروع تنظيماً، سوى استعراض لكفاءة أفراد مختارين من النوع البشري ((Homo Sapiens)).

شيء واحد يمكن قوله مسبقاً بثقة مطلقة لا تتزعزع! ستكون نهاية المهرجانات الأولمبية المعاصرة في الوقت ذاته دلالة على موت، أو أقلّه، تغير جذري لوجه ومضمون حضارتنا. مثلما بشَّر موت المهرجانات الأولمبية القديمة بتلاشي وتبدل حقبة تاريخية رائعة وثرية، ومديدة، ندعوها الحقبة القديمة.

ميلانو و أولمبيا

ميلانو، ١٧ كانون الثاني:

هناك حقيقة تبدو محايدة ظاهرياً، لكنها ليست عديمة الأهمية، بل هي ذات مغزى. وهي أن الحاكم، الذي في عهده انتهت أولمبيادات الحقبة القديمة لم يكن عدواً مطلقاً للمهرجانات والمباريات! لا بل ربما كان مولعاً ببعض أنواعها، مشاركاً بذلك الغالبية العظمى من رعاياه بميولهم. فهؤلاء، وبغض النظر عن مؤهلاتهم، ومكانتهم الاجتماعية، ودياناتهم، استغلوا بحماس منقطع النظير وفي كل مناسبة المباهج، التي منحتها المسارح والمجتلدات، وعلى نحو خاص هذه الأخيرة. ولم يكن بينهم سوى حفنة من الزاهدين، الفصحاء والمتنفذين في الواقع، الذين أدانوا بشدة كافة المهرجانات، والسباقات، والاستعراضات. تعطشوا لاقتلاعها من الجذور، وحرقها بالحديد والنار لاعتبارهم إياها وسائل تسلية آثمة في جوهرها، ومهلكة في نتائجها. لكنَّ هذه النداءات لم تجد آذاناً صاغية وتفهماً صادقاً حتى في أوساط معتنقي ديانتهم؛ إذ أنهم لم يرغبوا أبداً في أن يصدقوا بأن الانفعالات، التي تمنحها المسارح، والمجتلدات ليست سوى ألاعيب مضللة من فعل الشيطان وخدمه.

ولكن أين البرهان، أين الدلائل، على أن الحاكم، الذي يَرد بالضرورة ذِكرَ اسمه كلَّما تمَّ الحديث عن انقضاء أولمبيادات العالم القديم، اين البرهان على أنه لم يحتقر المهرجانات فعلاً ـ أقلَّه، المتعلقة بالسيرك منها؟ وكإجابة سنكتفي الآن بحقيقة واحدة، لكنها قاطعة وبالغة الأهمية. فعندما جاءت الفرصة المواتية، نظَّم الإمبراطور بنفسه، وهو يعاني من مرض عضال آنذاك ـ وبمبادرة شخصية منه سباقاً للمركبات، والأهم من ذلك، أنه شرَّف المهرجان بحضوره الشخصي ورعايته له في ساعات الصباح. لا ريب في أن هذا المشهد بدا في نظر، الذين تذكروه مساء ذلك اليوم غريباً وبعيداً جداً، أو غير واقعي بالأحرى؛

لأن التباين كان صارخاً ومفاجئاً بين حدثي اليوم ذاته من ذلك الشتاء.

حدث هذا في ميلانو. فقد جاء الإمبراطور من أكويليا أو من روما مباشرة، وهو منهك إلى أبعد حد، وقد برر أفراد حاشيته وَهَنَه ذاك بأعباء الحملة العسكرية، التي قادها في العام المنصرم. ولكن بالرغم من الرأي، الذي أُشيع، كان سبب الوهن أعمق، وأشد خطورة. لأن قيادة العمليات العسكرية للجيش في ساحة المعركة ما كان لها أن تسبب ذلك الإرهاق الزائد لرجل لم يبلغ بعد الخمسين من العمر. وفي حقيقة الأمر، كان ثمة مرض عضال أدى إلى تآكل مقاومة الجسم. وقد عُرِفَ باليونانية باسم **هيديروس أو هيدروبس**، ووفقاً لمصطلحات الطب القديم أمكن أن يعني التورم أو التقيح، وكذلك العطش الزائد المستمر. وفي الحالة الثانية، ربما انطوى الأمر على أعراض مرض السكري، أما في الأولى، فعلى أعراض قصور الكبد، أو الكليتين، أو الدورة الدموية. وعلى أي حال، فقد شعر المريض بأن وضعه يزداد سوءاً وبلغ حداً أضحت معه أيامه معدودة. كما قضَّت مضجعه أيضاً ـ وفق بعض الروايات ـ الذكرى، التي كانت لا تزال حيَّة لنبوة نُطِقَ بها قبل أعوام ثلاثة. كان آنذاك في الغرب يُعِدَّ العدة لحملة ضد مغتصب العرش، الذي كاد أن يفرض سيطرته على كافة مقاطعات الغرب، بما في ذلك إيطاليا وروما بالذات. اتخذت الحرب طابع نزاع ديني أيضاً، لأن المغتصب ـ الذي كان أستاذاً للبلاغة، وارتدى الأرجوان الإمبراطوري بفضل قائد جرماني ـ قَدَّمَ دعماً متزايداً للعبادات الوثنية، كما قَدَّم بنفسه الأضاحي الدموية للآلهة، وعمل بنصائح مهبط الوحي، ونصب تماثيل جوبتر، الذي يحمل البرق الذهبي في يده. وهنا استغل الحاكم الشرعي وسائل الدعاية الدينية. أوصى بإشاعة النبوة، التي كان قد تفوه بها راهب متنسك مصري: في هذه الحرب سوف تنتصر! لكن شائعات أخرى رددت بعناد أن لهذه النبوة تتمة هي: سوف تنتصر، ولكن فقط لكي تموت بعدها فوراً! والآن، وبعد أن هزم الإمبراطور خصمه، وأضحى نفسه فريسة آلام لا تحتمل، توقع الأسوأ. ولذلك أمر باستدعاء ابنه الأصغر، الذي لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره، من القسطنطينية؛ لأن ابنه الأكبر، الذي بلغ الثامنة عشر واستوقفته في الشرق أمور هامة، لم يكن قادراً على المجيء بتلك السرعة.

وما أن حطَّ الفتى الرحال في ميلانو، حتى بدا الأب وكأنه استعاد قواه! وذلك إلى الحد الذي دفعه للاعتقاد بضرورة تخليد ذكرى الانتصار، الذي حققه على المغتصب في العام المنصرم، حيث انتزع منه السلطة والحياة، تخليدها بإقامة سباق للمركبات. كانت المباريات قد تحدّدت في السابع عشر من كانون الثاني. وجاء الإمبراطور برفقة حاشيته إلى

ميدان السباق «الهيبودروم Hippodrome» في ساعات الصباح الباكرة.

مَنْ كان قادراً على أن يخمن، أو أن يتوقع، بأن ظهوره أمام الجماهير كان للمرة الأخيرة؟ ومع ذلك، عندما احتل مكانه في المقصورة ليطلق إشارة افتتاح المهرجان، حدَّقت إليه آلاف وآلاف من أزواج العيون باهتمام، وفضول، وإعجاب. أجل لقد سبق أن استضيف وشوهد في ميلانو مراراً، لكنه الآن فقط أصبح السيد الأوحد للإمبراطورية كلها الذي لا ينازع. فشركاؤه في الحكم رحلوا، أما المغتصب التعس فقد قُتِل قبل بضعة أشهر ومات موتاً وضيعاً؛ وللمرة الأولى منذ ثلاثين عاماً، اعترفت جميع البلدان من الأطلسي إلى الفرات رسمياً بآمر حقيقي واحد ذلك لأن ابنيه، وعلى الرغم من أنهما حملا لقب أغسطس، لم يكونا قد حكما بعد فعلاً ـ وذلك لحداثة سنهما.

كان الإمبراطور متوسط الطول ونحيلاً كما كان وسيماً. وكان شعره ـ ولو أنه إسباني أصيل! ـ أشقر، وأنفه منسجماً مع الوجه، ولو أنه معقوف بعض الشيء، وَسِمَتْ مرضه بقعٌ كانت تطفح على وجهه باستمرار. قيَّمه معاصروه كحاكم بتقييمات شتى، وهذا أمر مفهوم ومتكرر في مختلف الحقب. لكن اجمعت حوله الآراء في أوساط واسعة، واعترف الجميع بلطفه البالغ في التعامل مع الناس. وأقر مثقفو عصره على أنه لا ينقصه لا التعليم ولا سعة الإطلاع، وعبّروا عن ارتياحهم لذلك؛ أبدى اهتماماً خاصاً بالتاريخ، مُفصحاً لدى تقييم الأفراد وأحداث الماضي عن وطنية رومانية حقة. ولم يكن سراً تعلقه الشديد بأسرته، حيث عبَّر عن قدر كبير من الاحترام لعمه، وكأنه والده الحقيقي، كما عامل أطفال شقيقه وشقيقته على قدم المساواة مع أطفاله. استقبل ضيوفه دوماً بلطف وتقدير، وإن لم يكن ببذخ زائد. واعتمد في الحديث على الفكاهة المهذبة، محاولاً أن يلائم موضوع الحديث ومستواه مع الوضع الاجتماعي للأفراد الحاضرين واهتماماتهم. أما فيما يتعلق بنمط الحياة اليومية: فقد مارس بعض التمارين الضرورية للصحة. أحبَّ النزهة الطويلة، لم يسرف في الطعام. لكن الجانب الأكثر سلبية في سلوكه، والمخيف فعلاً، فكان في اندفاعه الشديد في سورات الغضب. وقد كان يتجلى هذا الشيء بشكل خاص حين كان يحدث أمر ما يظن أنه بطريقة ما يسيء لهيبة السلطة؛ وفي مثل هذه الحالات، كان يُقدم على اتخاذ قرارات يشعر بالندم عليها فيما بعد.

في ذلك اليوم، ترأس المهرجان فخرياً حتى موعد وجبة ما قبل الظهر. ولما تناول الوجبة، شعر بالوهن؛ لم يكن في وضع يسمح له بالعودة إلى المقصورة. فطلب أن ينوب عنه ابنه في الرئاسة الفخرية للمهرجان. والمثير في الأمر، أنه لم يرغب ولم يسمح بقطع المباريات أو

تأجيلها؛ فبكل تأكيد لم يشتبه هو أو غيره من الحضور، بأن النهاية قريبة إلى ذلك الحد. وعلى أي حال، كان للسباقات في «**الهيبودروم**» أن تستمر لفترة طويلة، لأنه بعد يومين فقط كانت ستبدأ الاحتفالات بالذكرى السادسة عشرة لتوليه العرش.

ولكن في ذلك اليوم بالذات، في السابع عشر من كانون الثاني، ولو أنه مع هبوط الليل، توفي الإمبراطور **ثيودوسيوس** في قصره بمدينة ميلانو، وقد نعته خلفاؤه **بالكبير**[1].

أحببت:

آخر كلمة فاه بها الإمبراطور وسمعها الواقفون حول فراش موته كانت ((Delixi)) - أحببت.

أكانت تعني الأمور العظيمة، والأزلية، والروحية، أم الناس الأحياء والمقربين؟ أو أن الإمبراطور عاد بأفكاره إلى الذكريات القديمة والأفراد الذين كانوا ذات يوم المقربين إلى القلب؟ فوالده، الذي حمل اسم **ثيودوسيوس** أيضاً، مات موتاً مأساوياً قبل ذلك الحين بعشرين عاماً؛ حيث سُجن، وحكم عليه بالموت، ونفِّذ الحكم في قرطاجنة، فذهب ضحية لمؤامرة سياسية غامضة ـ بالرغم من أنه تبوأ أرفع المناصب في الدولة، وقدم خدمات جليلة في ساعات المعارك في **بريطانيا**، وعلى ضفاف **الراين** والا **انوب**، وفي **أفريقيا**. وبعد وفاة أبيه بفترة وجيزة توفيت والدته وكذلك شقيقته. وأخيراً، رحلت عن هذا العالم زوجتاه؛ الأولى ـ أم ولدين، قبل عشر أعوام، والثانية قبيل ما يقارب العام، أثناء الولادة.

تواجد في ميلانو عدد من أفراد الأسرة. وفي مقدمتهم الإبن الأصغر **هونوريوس**، الذي أسلفنا ذكره. ثم أخته من أبيه، الطفلة ذات الأعوام الخمسة **غالّا بلاسيديا**؛ التي ظل ضريحها المشيد بعد ذلك الحين بما يقارب الخمسين عاماً حلية فن العمارة الأوروبي، وهو قائم حتى الآن تزدان به **رافينا**. كما كانت تُقيم في القصر ابنة أخ الإمبراطور **سيرينا** البالغة من العمر عشرين وبضعة من الأعوام، وزوجها **فلافيوس ستيليكون**، القائد الأعلى لجيوش المشاة والفرسان في المقاطعات الغربية، وكان قد أوشك أن يتجاوز الأربعين. وهو مَنْ أوصاه المتوفى برعاية ابنيه. لكنه في المقابل لم يترك أية وصية مكتوبة ـ سياسية أو خاصة. لم تكن مثل هذه الوثيقة ضرورية، لأن كل ما هو جوهري، كان قد تقرر من قبل. فوفقاً

لإرادة الأب، توجب على الإبنين أن يحكما معاً: هونوريوس في المقاطعات الغربية، وأركاديوس، الأكبر سناً، في الشطر الشرقي من الإمبراطورية. وكان كلاهما، كما أشرنا من قبل، يحملان لقب أغسطس. ظلّت الإمبراطورية واحدة موحدة بطبيعة الحال، واستهدفت العملية مجرد تقسيم الصلاحيات إقليمياً، الأمر الذي تمَّ تطبيقه عملياً من قبل، بنتائج حسنة في معظم الأحيان.

مَنْ يخطر على باله بل ومن كان سيصدق، أن التقسيم الحالي سيكون نهائياً ودائماً بل ومؤدياً إلى الهلاك تاريخياً؟.

تجدر الإشارة أخيراً، إلى أن الإمبراطور وهو ينظم أمور الدولة، لم يكن لا مبالياً بمصائر رعاياه العاديين من عامة الناس، الذين أنهكتهم غزوات الهمج والحروب الأهلية في الأعوام الأخيرة؛ فقد أعدَّ قانوناً أقرَّ تخفيضات ضريبية هامة، كان بانتظار التوقيع فقط.

بناء على طلب صريح من الحاكم، جاء إلى القصر أسقف ميلانو، أمبروزي أيضاً. وبعد مرور أربعين يوماً ألقى خطاب التأبين تكريماً للمتوفى. ردد فيه بضع مرات الكلمة الأخيرة، التي تفوه بها «أحببت»، ليس بشكل مباشر، وإنما أشار إليها على نحو غير مباشر بمهارة الخطيب الفطرية، الذي كانه أمبروزي فعلاً. فهو يقول في إحدى الفقرات:

ـ أحببت الرجل، الذي سأل عني في آخر لحظات حياته، وبالبقية الباقية من أنفاسه!.

وفي مكان آخر يجعلنا نفهم وجود أسباب أعمق وغير شخصية، تبرر تعلقه الحميم بشخص الحاكم؛ وفي هذه الحالة أيضاً يعود إلى كلمة «أحببت» تلك:

> أحببت الرجل، الذي ثَمَّنَ المدافع عن موقفه أعلى من المداهن. الرجل،ا لذي استطاع أن يتخلى عن جميع رموز السلطة الإمبراطورية التي يستحقها، ليبكي علناً خطيئته في الكنيسة؛ الخطيئة، التي وقع فيها نتيجة مراوغة وخداع أشخاص آخرين. راح الإمبراطور يبكي ويئن متوسلاً المغفرة. ولم يخجل إطلاقاً مما يخجل منه حتى عامة الناس، أي ممارسة التوبة العلنية. ولم يكن هناك يوم واحد فيما بعد، لم يتألم فيه بمرارة على خطئه ذاك(٢).

لا بد من الاعتراف هنا بأن اللوحة، التي يرسمها أمبروزي، تعود بطابعها إلى العصر الوسيط، وتحمل في ثناياها تباشير سيطرة الكنيسة: فها هو الإمبراطور يتوب على مرأى من الجميع أمام ممثل السلطة الروحية. لكن الإثم أو الخطأ، الذي كان سيد الإمبراطورية يتوب بسببه، جاء بشكل غير مباشر ـ كما سنرى ـ بأخلاقية نموذجية للعالم القديم.

عدَّدَ مناقب الفقيد وفضائله في خطاب التأبين هذا، لكن الأسقف عجز عن كيل المديح له بسبب لامعاداته للمهرجانات وهو الأمر الذي أسف لأجله بكل تأكيد، علماً أنه لم يكن ليفوِّت مثل هذه الفرصة، وَلَمَا اقتصر على مجرد ذكر عنوان المجد ذاك، بل كان سيضيف عليه تعليقاً يرفعه إلى السماء السابعة! فهو لم يتردد حين كان يشيع قبل ثلاثة أعوام القيصر الشاب فالينتينيان حاكم الغرب والذي (قُتِل في ريعان شبابه ومات موتاً مأساوياً، وربما منتحراً)، لم يتردد في الإشارة إليه بكثير من التقدير:

ـ يقال أن مهرجانات السيرك كانت تبهجه في البداية. لكنه فيما بعد تخلص نهائياً من هذا الضعف إذ أنه لم يعد يجد ضرورة لإقامتها حتى في أعياد ميلاد القياصرة، أو حتى في مناسبات تمجيد الحكام(٣).

لكن ثيودوسيوس لم يبدِ ذلك الزهد، الذي يستحق الثناء، إزاء المهرجانات. وكان من الأفضل عدم التطرق لهذا الموضوع في خطاب التأبين، طالما كانت بداية ذلك اليوم لا تزال حيَّة في أذهان المستمعين ونعني به اليوم الذي رحل فيه الإمبراطور إلى الأبد والذي كانت فيه صورته وهو يجلس في المقصورة مشرفاً على سباق المركبات، لا تزال ماثلة أمام أعينهم، وذلك قبل ساعات قليلة من موته في اليوم السابع عشر من كانون الثاني عام...

القناصل، والحقب، والأولمبيادات:

بدءاً من اليوم الأول من كانون الثاني وبعطف من الامبراطور حمل أخوان لقب قنصل، كانا لا يزالان صغيرين جداً، يمكن القول صبيين، **أوليبريوس** و**بروبينوس**. انحدرا من أسرة **أنيتسيوس** الثرية والذائعة الصيت آنذاك، والتي استقرت في مدينة **روما** ذاتها. خلَّد الشاعر **كلاوديان** ذكرى توليهما لهذين المنصبين بقصيدة مديح جاء فيها:

«بدأتما بما هو عادة الهدف النهائي. قلَّة من الشيوخ فقط استحقت ما نلتماه مباشرة. ها قد بلغتما الهدف، قبل أن تظلل زهرة الشباب وجهيكما العذبين، وقبل أن تَزْدان ذقناكما بالشعر»(٤).

حقيقة كان إيكال منصب رفيع لفتى يافع، دليلاً على ضآلة أهميته آنذاك؛ إذ لم تكن له أية صلاحيات حقيقية. لكنه بالرغم من ذلك كان شرفاً عظيماً، إذ أن عملية التأريخ على الصعيدين الرسمي والخاص، كانت تتم بتحديد وقوعها في الأعوام التي تتغير فيها أسماء أزواج القناصل سنوياً، في اليوم الأول من كانون الثاني بالضبط؛ ومن هنا، فإننا نحن أيضاً

نبدأ العام الجديد بذلك اليوم. أما عادة إحصاء السنين بدءاً من ولادة المسيح، أي مذ أن «تجسدت الكلمة»، فقد درجت بعد ذلك بفترة طويلة، ولم تعم في كل مكان حالاً، حتى في حدود العالم المسيحي. إذن لم يكن هناك آنذاك من يقول، بأن الإمبراطور ثيودوسيوس توفي عام ٣٩٥ ؛ إذ كان كافياً أن يقال، بأن هذا قد حدث عندما كان أوليبريوس وبروبينوس قنصلين.

كان يُربط التاريخ في بعض الحالات، وفي أعمال بعض المؤرخين فقط «بسنة تأسيس روما»، وفي هذه الحالة يكون الحدث (أي موت الإمبراطور) قد وقع في عام ١١٤٨ من بناء روما، كما يصادف في بعض كتب التاريخ الجافة، وفي أعمال بعض القدماء من ذوي المعارف الواسعة، تأريخ آخر يرتبط بعدد الأولمبيادات، لكنه عادة قليل الدقة. فها هو أحد المؤرخين يصر على أن ثيودوسيوس توفي في فترة الدورة الأولمبية الثالثة والتسعين بعد المئتين، ويقول آخر أنَّ هذا حدث في السنة الأولى من الدورة الرابعة والتسعين بعد المئتين. لا شك بأن التاريخ الأول شديد العمومية، لأن فترة الأولمبياد تمتد لأربعة أعوام، أما الثاني فخاطىء. وفي الحقيقة، لو أريد الإلتزام بهذا النظام في إحصاء السنوات، لوجب القول: أن قنصلية أوليبريوس وبروبينوس، أي موت الإمبراطور ثيودوسيوس، كان في العام الثالث من الدورة الثالثة والتسعين بعد المئتين(٥).

حقيقة يجب عدم استغراب هذه الأخطاء، وكذلك غياب الدقة. فعندما كتب هؤلاء المؤرخون أعمالهم، كان الاحتفال بالمهرجانات في أولمبيا قد توقف منذ زمن طويل، إذ أن هذه الاحتفالات كانت قد انقضت واختفت مع ذلك القيصر، الذي كان آخر مَنْ بسط نفوذه على كامل رقعة الإمبراطورية الرومانية في سجل أباطرة روما الطويل. وهكذا تزامن حدثان في غاية الأهمية؛ أحدهما ذو طابع سياسي، والآخر ذو طابع ثقافي. وسوف نلاحظ، بأن مثل هذه الأحداث، التي كانت تعني على الصعيدين الرمزي والفعلي نهاية حقبة ما، ومطلع حقبة أخرى، تزايدت بصورة ملفتة للنظر في تلك المرحلة، أي في الأعوام، التي أوشك فيها عهد ثيودوسيوس على الانتهاء. وبالرغم من ذلك، فإن أياً من المعاصرين لم يدرك تماماً، بأن ما يحدث هو انقلاب حقيقي: يرحل العالم القديم، لتبدأ سيادة نظام تفكير جديد وحياة مغايرة ولكن هذا هو ما يحدث في العادة. فدائماً عندما يعلن باستمرار عن ولادة شيء جديد، تكون التغيرات في واقع الأمر ظاهرية، وتكاد تكون شكلية، وكلامية، وسطحية. والعكس: عندما تحدث في عمق البنية الاجتماعية تحولات ثورية، فإن أحداً لا يلاحظها في بادىء الأمر.

أجل، يشعر الأحفاد فيما بعد بالدهشة، ويتذمرون من أن أحداً لم يقيِّم كما يجب التحولات الصارخة بوضوحها، ولم يدرك أحد ويفهم أهميتها! لكنهم، هؤلاء الأحفاد، ينظرون من مسافة كافية، وأمامهم بانوراما كاملة، ولذلك تكون رؤيتهم ثاقبة وشاملة، فيميزون بين ما هو مجرد مرتفع أو تلة صناعية، وما هو ذروة مهيبة. ولم يكن ما حدث آنذاك، عندما دنت نهاية الدورات الأولمبية ومعها العالم القديم، مختلفاً عن هذا. سيتجلى بوضوح تام مقدار عدم فهمهم آنذاك لمعنى ودلالة مختلف الحقائق، إذا حاولنا الإجابة على هذا السؤال البسيط والتافه إلى حد ما: **ما هو مصدر معرفتنا وثقتنا، بأن المهرجان الأخير في أولمبيا، كان في عهد ثيودوسيوس؟**

جيورجيوس كيدرينوس:

«آنذاك انقضت الاحتفالات بالمهرجانات الأولمبية، التي كانت تقام كل أربعة أعوام . كانت بدايتها في الأيام التي حكم فيها مِنَتى اليهود، واستمرت حتى عهد ثيودوسيوس الكبير»(٦).

عُرِفَ العمل الإغريقي، الذي اقتبست منه هذه الكلمات باسم **«استعراض التاريخ»**، وهو في الواقع يقدم لمحة مفصلة نسبياً عن أهم الأحداث التاريخية، وبدقة أكبر، عن تلك الأحداث، التي اعتبرت هامة آنذاك؛ وذلك بدءاً من خلق العالم! فهو يسرد أولاً الروايات التوراتية، ثم يبحث في تاريخ **اليونان** وروما، وأخيراً تاريخ **بيزنطة** حتى عام ١٠٥٧ . مؤلف هذا المرجع، رجل مغمور تماماً وغير معروف. نتوقع فقط، أنه عاش في أواخر القرن الحادي عشر كراهب في دير ما على أراضي الإمبراطورية البيزنطية؛ يدعى **جيورجيوس كيدرينوس**. ولكن ثمة شيء آخر يقال عن عقليته، وخاصة فيما يتعلق بطرق عمله، والمراجع المستخدمة من قبله، لأن الكتاب نفسه يشهد على ذلك. وليست هذه الشهادة في صالح المؤلف كثيراً.

أعاد **كيدرينوس** صياغة ـ وفي بعض الأجزاء نقل حرفياً صفحات كاملة ـ أعمال عدد ممن سبقوه من المؤرخين وكتّاب الحوليات البيزنطيين. جمع بتصميم وَجِدّ، وفي بعض الأمكنة، على نحو يكاد أن يكون بغير تفكير. لم يقم بطبيعة الحال بأية بحوث مستقلة، ولم يفتش في الأرشيفات، ولم يرهق نفسه بالتأملات المنهجية، كما أنه لم يقيِّم ولم يقارن قيمة الرواية. لم يبتكر شيئاً ولم يضف شيئاً من عنده ـ باستثناء الإطراء أو الإدانة الصريحين

والنابعين من بساطة القلب، أو التنهدات الدينية. وإذا كان قد شوَّه كلمات الآخرين، فلأنه رددها على نحو تنقصه البراعة، أو اختصرها أكثر مما يجب، أو قام بربطها على نحو أخرق مع روايات أخرى؛ ولا يمكن تصنيفه في عداد مهرة المهتمين بالتركيب. وماذا عن دائرة اهتماماته؟.

قبل كل شيء تواريخ حكم الملوك والأباطرة مفهومة على نحو تخطيطي، وإشارات إلى الحروب والجوائح؛ تاريخ الكنيسة في معالجة جديدة، يتضمن بشكل أساسي مجموعة من المعلومات عن المعجزات، والمجامع الكنسية، ومحاسبة الهراطقة والمنشقين. وكيدرينوس هذا يَنْشَدُّ بشكل غريب إلى جميع نوادر واستثناءات الطبيعة. ففي الفصل المكرس لعهد ثيودوسيوس نجد أن معلومات من هذا النمط تحتل فيه حيزاً أكبر من الإشارة القصيرة إلى نهاية المهرجات الأولمبية.

«في السنة الخامسة من حكم ثيودوسيوس، وضعت امرأة أنطاكية أربعة صبية في بطن واحدة؛» عاشت المرأة مدة شهرين بعد الولادة، بينما مات الأطفال واحداً بعد الآخر.

«وفي السنة الثامنة من حكم هذا الإمبراطور، وُلِدَ في البلدة الفلسطينية **عمواص** طفل مشطور إلى نصفين من السرة إلى الأعلى، فكان له صدر مزدوج ورأسان. وكان كل من هذين الشطرين يشعر بشكل مستقل! وكلما تناول شطر منهما الطعام أو الشراب، ارتاح الآخر؛ وعندما ينام أحدهما، يسهر الآخر. وفي بعض الأحيان يلعبان معاً، وفي أحيان أخرى يبكيان معاً، كما يتخاصمان أحياناً. عاشا هكذا عامين. ولما مات أحدهما، رحل الآخر عن العالم بعد بضعة أيام»(٧).

لا مجال للشك إطلاقاً في أن كيدرينوس لم يختلق معلومته عن موعد انتهاء الأولمبيادات القديمة بل اقتبسها بطبيعة الحال عن إحدى الحوليات، أو عن عمل تاريخي أقدم. وللأسف، فقد تعرض هذا العمل للضياع فيما بعد، ونحن نجهل حتى عنوانه. وهكذا فإن المعلومة الوحيدة هذه ـ التي يبدو أنّ حِفْظَها في كتاب الراهب «البيزنطي»، الذي مارس نشاطه في عمق العصر الوسيط جاء محض مصادفة ـ تخبرنا عمَّا يمكن اعتباره من منظار القرون بمثابة طي رمزي لصفحة الثقافة القديمة، وعلى أي حال، بمثابة لحظة هامة في نزوعها إلى المغيب. يجدر بنا أن نعي الآن الأمر جيداً وبوضوح تام: فلو أن كيدرينوس أهمل هذه الملاحظة لهذ السبب أو ذاك، وأورد عوضاً عنها رواية عن وُحَيِّشٍ مشوه آخر،

أو عن معجزة، أو غرابة من غرابات الطبيعة، لما استطعنا اليوم، ولو على نحو تقريبي، تحديد موعد قيام آخر المباريات في أولمبيا. ولكان لنا الحق في افتراض تكرارها كل أربع سنوات مراراً عديدة أخرى؛ وأنها ماتت موتاً طبيعياً هادئاً في بلاد البليوبونيز في ظل حكم إمبراطور آخر، بعد أن نسيها الآلهة والناس.

قام كيدرينوس بتقليب صفحات المجلدات القديمة بعد موت ثيودوسيوس واختفاء المهرجانات الأولمبية بسبعة قرون. فأمكن له أن يمر على المعلومة المتعلقة بالحدث الأخير دون أن يلاحظها، لأنه على الأرجح، لم يكن يدرك جيداً الأساس، الذي اعتمدت عليه تلك الاحتفالات الوثنية؛ لم يكن يعرف شيئاً عن سيرها، وأهميتها. وعلى أي حال، إذا ما دققنا فيما يقوله بهذا الخصوص، سنجد أنه مغلوط في بعض أجزائه، وشديد العمومية في أجزاء أخرى. فالمؤلف البيزنطي يقول أن مِنَسّي حَكَمَ يهوذا عندما بوشر في بلاد الإغريق بالاحتفال بالأعياد الأولمبية على نحو منتظم. وهذا الملك معروف جيداً من أسفار التوارة، حيث حكم لفترة طويلة، وتحديداً ما بين عامي ٦٩٦ ـ ٦٤٢ ق. م. أما المباريات الأولمبية الأولى ـ ومن يجهل هذا التاريخ؟ ـ ، التي أحصيت بعدها الدورات التالية بانتظام، فقد أقيمت قبل ذلك الحين بزمن طويل، وتحديداً، عام ٧٧٦ ق. م. فخطأ الراهب البيزنطي ـ أو المرجع، الذي استقى منه معلوماته ـ فادح في هذه الحالة. ولكن قد يقول قائل، بأن كيدرينوس لم يكن يعني الملك مِنَسّي، وإنما مناحيم، وقد حكم هذا فعلاً في فترة أقرب إلى بداية المهرجانات الأولمبية المنتظمة، وتحديداً في الأعوام ٧٤٧ ـ ٧٣٨ ق. م، ولكن ليس في يهوذا، وإنما في إسرائيل (كان لليهود آنذاك كيانان دوليان متعاديان). وبغض النظر عن التفسير، الذي سيعطى، فإن الأخطاء شديدة الوضوح على صعيدي التعاقب الزمني والمضمون معاً.

وبعد ذلك، نود أن نعرف بدقة، أي من المهرجانات الأولمبية القديمة كان الأخير؟ وفي أية سنة أقيم. وفق نظامنا الحالي في التأريخ؟ أخبرنا كيدرينوس أن هذا الشيء حصل في عهد ثيودوسيوس الكبير. لكن هذا الإمبراطور حكم ما يقارب الستة عشر عاماً بالتمام والكمال، وتحديداً، بدءاً من كانون الثاني ٣٧٩ وحتى كانون الثاني من عام ٣٩٥ ، وخلال هذه الفترة، أقيمت المهرجانات الأولمبية، أو كان لها أن تقام! ـ أربع مرات. فتدخل إذن في الحسبان على التوالي الدورات ذات الأرقام: ٢٩٠ ـ ٢٩١ ـ ٢٩٢ ـ ٢٩٣ ـ التي احتفل بها في الأعوام ٣٨١ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ . أين يمكن لنا البحث عن إشارة أو معلومة إضافية تسمح لنا بتحديد أدق للموضوع؟

الأولمبيادات الأخيرة:

لا بد من الاعتراف مباشرة، بأننا لا نملك معلومات مؤكدة على نحو مطلق حول هذا الموضوع؛ ولكن يوجد بين يدينا أثران غير مباشرين، جديرين بالاهتمام. أولاً، حُفظت معلومة عرضية، تشير إلى أنه في مهرجانات الدورة الواحدة والتسعين بعد المئتين، أي في عام ٣٨٥ ، أحرز النصر أحد الأمراء الأرمن. أجل، أرمني، أي رجل انحدر من أصول غير هلنستية ـ وإن كان يتكلم الإغريقية بلا شك. تبدو هذه الحقيقة محايدة ظاهرياً، لكنها تدفعنا نحو تأملات أخرى. فقبل قرون، في مرحلة استقلال الدويلات الإغريقية التقليدية، لم يكن يسمح لمن يعجز عن إثبات انتمائه الهلنستي التام، بالمشاركة في المباريات في أولمبيا! وصدف في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد، أنهم أرادوا حرمان ولي عهد مقدونيا من المشاركة فيها. فاضطر لأن يبرهن أمام لجنة التحكيم، بأن أسلافه ينحدرون من مدينة أرغوس؛ وبعد أن تمكن من توثيق نسبه، سُمح له بالمشاركة، وكاد أن يبلغ الهدف مع الفائز في السباق. الحقيقة أن مثل هذا التشديد لم يستخدم فيما بعد، وخاصة بالنسبة للرومان، الذين غالباً ما شاركوا في المباريات. فمن كان سيجرؤ على اتهام سادة العالم بالهمجية؟ وها هو أخيراً ذلك الأرمني من عام ٣٨٥ ، آخر فائزي الحقبة القديمة، المعروف اسمياً! فهنا، يكون لدى المولع في التقاط الدلالات الرمزية لمختلف الوقائع التاريخية، مجال واسع للاستغراق في التأمل: فموت المهرجانات الأولمبية لإحدى الحقب، يحمل في طياته تباشير ولادة مهرجانات جديدة في المستقبل البعيد؛ المهرجانات، التي ستصبح ملكاً جماعياً؛ وعيداً للبشرية جمعاء ـ وليس للإغريق والرومان فحسب، أو حتى للأوربيين وحدهم! لكنّ ما يهمنا الآن ليست تلك الآفاق التاريخية البعيدة والعظيمة، وإنما حقيقة أخرى، هي أن مهرجانات عام ٣٨٥ أقيمت بكل تأكيد. وما دام الأمر على هذا النحو، فلا يظل أمامنا سوى خيارَيْن فقط، وتحديداً، المهرجانات المقررة للأعوام ٣٨٩ و٣٩٣ . غالباً ما يُعْتَمَدُ في الكتب، والأبحاث، والموسوعات، التاريخ الأخير بالإجماع أي عام ٣٩٣ . ولكن يجدر بنا أن ندرك، بأن ما يشير إلى صحة هذا التاريخ، ليس سوى أثر غير مباشر، ومشكوك بقيمته: فكيدرينوس يتكلم عن «انطفاء» المهرجانات الأولمبية في نهاية روايته عن عهد ثيودوسيوس.

ثمة موضوع آخر يرتبط بهذا الشيء سبق وتطرقنا إليه من قبل وهو: هل جاءت نهاية المهرجانات نتيجة لأسباب طبيعية ـ كغياب الأرصدة المخصصة لها. أو فتور اهتمامات القائمين برعايتها، والمشاهدين، والمتبارين ـ أم أن ما حدث جاء فجأة، نابعاً من رغبة الإمبراطور وبأمر منه؟ أو ربما من شخص آخر معادٍ للعبادات والطقوس الوثنية؟ فالفعل اليوناني ((Apesbe)) الذي يقابله في اللغة البولونية ((Zgasit)) (وترجم هنا إلى العربية «انطفأ»)، يجيز من حيث المبدأ الاحتمالين؛ وهذه هي اللفظة، التي استخدمها كيدرينوس. يُفْترضُ في العديد من المراجع العلمية، لا بل يؤكد بشكل قاطع في أكثر من مرة، على حقيقة قيام الإمبراطور ثيودوسيوس بحظر إقامة المهرجانات الأولمبية بشكل قاطع وإنهائها بصورة وحشية، بمرسوم خاص. تجدر الإشارة من ناحية ثانية إلى أنه يمكن الجزم بشكل قاطع بعدم وجود أي أساس مرجعي لعرض القضية على هذا النحو. فكأن، الذين يقفون مع هذه الفرضية، يخضعون لضغط بعض الحقائق ـ ذات الدلالة بطبيعة الحال ـ، التي لا تمس تاريخ المهرجانات الأولمبية بحد ذاته بشكل مباشر! لا شك أن ثيودوسيوس اضطهد العبادات الوثنية. ومن المؤكد أيضاً أنه فرض حظراً صارماً على تقديم الأضاحي وتحت طائلة المسئولية، كما أوصى بإغلاق أو حتى بتدمير المعابد. ولا ريب في أن تزايد عدد القوانين المناهضة للعبادات الوثنية، وممارسة العنف ضدها، جاء في أيام حكمه الأخيرة، أي في تلك الأعوام، التي كان لمهرجانات عام ٣٩٣ أن تقام. ولكن من ناحية ثانية، يجب بالضرورة أن نتذكر أن بعض المباريات الرياضية المرتبطة بوضوح تام بالعبادات الوثنية، استمرّت وعاشت عشرات الأعوام بعد موت ثيودوسيوس ـ ربما إلى ما يزيد عن القرن! وهذا ما حدث تحديداً في إحدى المدن السورية القديمة ونعني بها مدينة أنطاكية العظيمة والتي كانت الدورة فيها تأتي قبل عام واحد من عيد أولمبيا، كما كانت تقام كل أربعة أعوام وقد وُسِمَتْ مهرجاناتها أيضاً بالأولمبية؛ وكانت التسمية صحيحة تماماً، لأنها حَذَتْ بأمانة، ومن كافة الجوانب، حذو المهرجانات التي أقيمت في البلد القديم. يكفي أن نشير إلى أن المهرجانات الأولمبية التي كانت تقام في أنطاكية تكررت دون انقطاع ودون عوائق حتى عام ٥٢٠ م: أي أنها عاشت بعد توقف النموذج الأصلي بما يقارب المئة عام(٨).

قد يتذرع أحدهم بهذه الحقيقة قائلاً:

أثمة ضرورة للبحث عن برهان أفضل من هذا ليُدَلِّلَ على عدم وجود أي مرسوم يلغي ويحظر قيام الأعياد الأولمبية في عهد ثيودوسيوس؟ ولما تمنع المهرجانات في بلد ما، ويسمح بها في بلد آخر؟

لكن قد يطالب آخر بحقه في تأويل هذه الظاهرة على نحو مختلف تماماً:

تعذر على ثيودوسيوس إلغاء المهرجانات في مدينة أنطاكية، المدينة الكبيرة، ذات الكثافة السكانية العالية، والثراء الهائل. إذ خشي أن يؤدي الأمر إلىنشوب اضطرابات، إذ غالباً ما حدثت مثل هذه الاضطرابات في عهده بالذات. أما في أولمبيا البعيدة عن الأوساط المدينية الكبرى، فلم يكن احتمال القلاقل وارداً، فالسكان المقيمون على نحو دائم كادوا أن يكونوا معدومين هناك. لهذا لم يكن الأمر يتطلب سوى قرار عادي يقضي بمنع استضافة المتبارين والمشاهدين ـ هذا، إن لم تكن المهرجانات قد تلاشت بسبب غياب الأرصدة الضرورية لها، كما أشرنا من قبل. إذ أن إقامة المباريات تتطلب دوماً وفي كل مكان ـ ليس في الحقبة القديمة فحسب ـ أموالاً طائلة. وقد تحمل هذا العبء في المدن الكبرى، الحكام، ومجالس المدن، والأثرياء المحليون؛ وَاُعْتُبِرَ هذا الشيء بمثابة هبة ممنوحة للمجتمع وللطبقات الفقيرة. فمن كان سيدفع، ومن كان سيغطي النفقات في أولمبيا؟ فالمناطق المحيطة بها، كانت فقيرة، وسكانها القليلو العدد كانوا يمارسون أعمال الرعي، أما الأرصدة القديمة رغم وجودها ـ فقد نفذت أو وقعت في أيد غريبة، كَنَسِيَّة أو علمانية. لقد عرَّضت قضية التمويل القائمين عل تنظيم المهرجانات للعديد من المصاعب قبل ذلك الحين؛ وهددت مراراً باندثارها عبر القرون. ففي أواخر القرن الأول قبل الميلاد، على سبيل المثال لا الحصر كاد يحدث ذلك لولا تدخل هيرودس في حينه وابقائه للمهرجانات. فهيرودس الشهير، الذي عُرِفَ على نطاق واسع في التقاليد المسيحية كدموي مستبد، وقاتل للأطفال؛ ويبدو أن هيرودس هذا، الذي دخل مغارتنا المتواضعة (يقصد مكان ولادة السيد المسيح). لم يكن من الحكام الوديعين؛ ولكن لا بد من الاعتراف، بأنه كواحد من المولعين بالثقافة الهلنستية، قدَّم خدمات كثيرة للعديد من أوساطها، وآثارها، ومظاهرها. فها هو المؤرخ **يوسف فلافيوس** يكتب عن نصرته السخية لمهرجانات أولمبيا:

«لم تكن تقدمته لبلد الإلياذة مخصصة للهلنستيين فحسب، وإنما للعالم بأسره، لكل مكان تبلغه أنباء المهرجانات الأولمبية. فما أن سمع بأن هذه المهرجانات تنهار بسبب نقص الأموال، وأنَّ هذه الذكرى الوحيدة المتبقية عن هيلادا القديمة ستندثر، حتى سارع للمشاركة في هذه المباريات كحكم خلال رحلته إلى روما؛ وعلاوة على ذلك، خصص موارد دائمة للإنفاق على المهرجانات، وخلَّد بذلك ذكرى مشاركته فيها حكماً»[٩].

يمكن أن يكون الحديث هنا عن الدورة الثانية والتسعين بعد المئة أو الثالثة والتسعين بعد المائة (أي عن العام الثاني عشر أو الثامن قبل الميلاد).

مَنْ يعرف؛ فربما لولا كرم هيرودس، ولولا ولعه بالماضي الهلنستي، وأولمبيا، لتوقفوا عن

إقامة مهرجاناتها منذ ذلك الحين، وليس بعد مرور أربعة قرون؟ ولا ريب لو أنه حدث مثل هذا الموت المبكر لكان أثّر سلباً على رسوخ ذكراها في الأذهان، وعلى قضية بعثها مجدداً في عصرنا.

لهذا، نجد أنفسنا مرغمين إلى حد ما، على تعليق الإجابة على تساؤلنا: ما الذي وضع الحد النهائي للمباريات في أولمبيا؟ كما أننا نجد صعوبة كبيرة في تحديد الأخيرة منها: أهي تلك، التي أقيمت عام ٣٨٩ أم في العام ٣٩٣ . ولكن هنالك حقيقة أخرى لا يرقى لها الشك، وهي أهم بكثير: مصير المهرجانات في أولمبيا، تقرر ما بين عامي ٣٨٩ و٣٩٥، أي في الأعوام الأخيرة من عهد ثيودوسيوس.

ولادة عالم المهرجانات الأولمبية:

أمنَ الضروري أن نُذَكِّر بما يجب أنْ يعرفه كل أوروبي؟ إذن لنعيد للأذهان الحقائق الأكثر أهمية! فهذا بدوره سيتيح لنا أن نشير إلى اتساع ارتباطاتها اللاحقة بالتحولات الكبرى في مجرى التاريخ.

ففي موقع أولمبيا، على ضفاف نهر ألفيوس في بلاد إليس في البليوبونيز، وبدءاً من عام ٧٧٦ ق. م. كانت تقام كل أربع سنوات وبانتظام مهرجاناتٌ كانت في الوقت ذاته طقساً دينياً لمجد زيوس حيث كانت تتوافد آنذاك حشود المشاركين والمشاهدين من أرجاء العالم الهيلنستي.

وُلِدَتْ المهرجانات وازدهرت مع الشكل التقليدي للمدنية القديمة، وكانت جزءاً متمماً لها، لا بل مظهراً رمزياً لها، ولذلك قُدِّرَ لها أن تموت معها.

أجل، قامت على أرض هيلادا مدنية أقدم، نصطلح على تسميتها بالمسينية؛ تطورت على نحو رائع خلال القرون من السادس عشر وحتى الثاني عشر قبل الميلاد. كانت في بعض جوانبها شبيهة بالكلاسيكية اللاحقة، وأبدت ولعاً شديداً بشتى أنواع المهرجانات، والمواكب، والمباريات، لكنها تميزت بطابعها الخاص المختلف. لم تعرف الأولمبيادات كمهرجانات منتظمة. لم تعرفها، علماً أن سباقات المركبات أقيمت في أولمبيا نفسها في تلك الأزمنة الموغلة في القدم؛ وقد أقيمت آنذاك تكريماً للبطل بيلوبس. وهذا ما تشهد عليه الأساطير القديمة، وكذلك المكتشفات الأركيولوجية، وخاصة التماثيل البرونزية الصغيرة،

التي تصور الجياد، وسائقي المركبات؛ لا ريب في أنها تقدمات نذرية لفائزي الحقبة المسينية. ولكن لا وجود لخط مستقيم ومستمر، يمر ليربط العالمين، المسيني، وذاك، الذي ظهر بدءاً من القرن الثامن قبل الميلاد؛ فآنذاك، بدأ الاحتفال بالمهرجانات المنتظمة الأولى، والتي راحت تتكرر كل أربع سنوات حتى أيام ثيودوسيوس.

لِنُخصِ! فمنذ عام ٧٧٦ قبل الميلاد. وحتى عام ٣٩٣ بعد الميلاد، مرَّ ما يقارب الإثني عشر قرناً، وعلى وجه التحديد ١١٦٩ عاماً. أعلن خلالها صوت الحكام على نحو احتفالي، بأن أيام السلام المقدس قد حلَّت، وذلك ما يربو على مئتين وتسعين مرة.

يتبادر للذهن سؤال يطرح نفسه بإلحاح: أتستمر المهرجانات الأولمبية لعصرنا الحالي مثل هذا العدد من القرون؟ أيمكن لها يوماً أن تفتخر وتتباهى بذلك التقليد الرائع لسلسلة لم تنقطع؟ وإذا ما حدث هذا، فما هو الشكل ا لذي سيتخذه عالم الألعاب الأولمبية للدورة التسعين بعد المئتين وفق النظام الجديد؟ أي عالم عام ٣٠٥٧ م؟.

دعونا نعود الآن إلى الثقافتين المسينية(*) والكلاسيكية اللتين تفصلهما عن بعضهما هوةٌ عمقها خمسة قرون، فكارثة الغزو، الذي زعزع أركان الحصون المسينية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، أدت إلى أن أرض هيلادا غشيت وكأنها الضباب، وذلك لفترة طويلة؛ تخلخلت ببطء، وسقطت في القرن الثامن قبل الميلاد. ليس إذن محض صدفة، أن الحدث وقع تماماً آنذاك، عندما بدأت سلسلة المهرجانات الأولمبية دورتها المنتظمة.

الشيء، الذي بقي حياً على أفضل وجه نسبياً، بعد سقوط العالم المسيني - فلم لا نرى في ذلك عزاءً؟ - هو ابتكارات الذهن البشري، التي تبدو ظاهرياً، الأكثر وهناً، والأقل مقاومة، ألا وهي الأساطير، والحكايات، والروايات الشعرية. ففي مرحلة الظلام، بعد كارثة القرن الثاني عشر قبل الميلاد، نُقِلَتْ شفهياً من جيل إلى جيل كإرث ثمين. لا شك بأن بعض الآثار المادية أيضاً ظلت محفوظة بين أنقاض تلك الحضارة: صخور هائلة في الحصون والمقابر، بقايا الآنية، والسلاح، والزينة. كما سَلِمَتْ رُقُم طينية مُغشاة برموز خط عجيب، مستخدم في كريت وحدها، ومن قبل المسينيين بالذات. لكن توَّجب اكتشاف هذه الآثار المادية، واستخراجها، وفك رموزها أولاً؛ وجب أن تُصْدَرَ لها الأوامر بأن تتكلم وأن تعود للحياة من جديد. وكل هذا لم يحدث سوى في الأعوام المئة الأخيرة، وجزء منها في أيامنا

(*) المسينية نسبة الى مدينة مسين اليونانية وكانت مركزاً لأول حضارة هيلينية .

وعلى مرأى من أعيننا. إذ لم يمض بعدُ أكثر من ربع قرن بكثير على فك رموز الخط المسيني بعد جهود مضنية! أما تلك الابتكارات المنقولة بمرونةِ وحريةِ الكلمة، من فم إلى فم، فقد بُعثت حية منذ القرن الثامن قبل الميلاد، أي في القرن، الذي رأى مهرجانات أولمبيا المنتظمة ذاته! ألَّفَ الشاعر آنذاك ـ يعرفه الأحفاد باسمهم هوميروس ـ ملحمة بطولية عن المعارك في طروادة. استخدم فيها الحوافز المسينية القديمة، الموضوعية منها والشكلية، التي عرفها بفضل التقاليد الغنائية المتواصلة. وهكذا نشأ أول عمل أدبي محفوظ في وسطنا الثقافي. وُلِدَ مرافقاً المهرجانات الأولمبية. أهو محض صدفة أن يتزامن حدثان على هذا القدر من الأهمية في حياة أوروبا القديمة والمعاصرة؟.

نهاية عالم المهرجانات الأولمبية:

لو تساءلنا عمّا جرى للحضارة القديمة بدورها، عندما اندثرت وتلاشت نهائياً المهرجانات في أولمبيا، فإن الجواب بسيط لا يرقى الشك إلى صحته: تراجعت تلك الحضارات بكاملها واختفت، مفسحة المجال لتحلَّ محلّها معتقدات، ومُثُل، وقيم جديدة. ومختصر القول: نمط جديد من الحياة، بما في ذلك الحياة اليومية. والسمة المميزة للعالم الجديد بشكل خاص، تتمثل في الموقف المغاير، والمختلف كلياً عن السابق من جسم الإنسان. فمعتنقو الديانة الظافرة، نادوا نظرياً، ومارسوا عملياً احتقار كل ما يتعلق بالجسد. مفترضين أنه في جوهره آثم، وملوث، وذو نزعة للشر. فلِمَ الابتهاج والسرور في هذا الغلاف الفاني، ولم الإعجاب ببنيته، وكفاءته، وجماله، الذي يتم إبرازه في الجمنازيوم، ومعاهد المصارعة، والميادين العامة؟! ويا للفضيحة، إذا كان لهذا الجسد اللعين أن يمارس طفراته الخسيسة في مباريات مكرسة لمجد آلهة وثنية ليست سوى عفاريت خطرة، وخدم للشيطان! لا ريب في أن هذه النداءات والشتائم لم تسفر عن نتائج فورية أو تامة، وعلى أي حال، كانت أقل جدوى مما أراده المبشرون بالديانة الجديدة. لكنّ البذرة المزروعة والمعتنى بها بمثابرة وعناد، وبدون كلل، من جيل إلى جيل، وجب أن تثمر محصولها المضاعف مئة مرة. كان هذا في نظر الزراع محصولاً سليماً ووافراً من سنابل القمح، تمكن من خنق زهرة الأعشاب الضارة الزاهية والمسمومة، ثمرة الأرواح الشريرة المضللة. أما في قناعة أنصار الثقافة القديمة والمدافعين عنها، فقد بدت الأمور بعكس ذلك تماماً: هدَّد الكوكل المنتشر بالقضاء على حقول كاملة من القمح، هبة الإلهة ديميتر.

يمكن أن يقول البعض أن إدانة الجسد والأمور المتعلقة به، تصادَف أيضاً في ذروة مجد العهود الكلاسيكية، ولدى ممثلي العالم الوثني الأكثر نموذجية. فمنذ بدايات حقبة الثقافة القديمة، صيغ المثل القائل: بأن الجسد مقبرة الروح؛ وهو الرأي، الذي برره وطوره بكثير من الفطنة عدد من المفكرين القدماء، وعلى رأسهم **أفلاطون**. أجل، ولكن يجدر بناأن نتذكر، بأن هذا النوع من الفرضيات لم يكن سوى نمط من مقدمة شاعرية لتأملات ميتافيزيقية. أما في الواقع العملي، وفي الحياة الخاصة، فقد تمَّ إجلال قواعد أخرى. الشيء الذي برهن عليه **أفلاطون** ذاته، الذي أبدى شغفاً بالنقاش حول موضوع الروح المسجونة في الجسد، لكنه في شبابه، كان فخر الجمنازيوم، الذي تعلم فيه، كما كان مصارعاً، وظلَّ حتى آخر أيامه يبجل جمال الشبان الآثينيين المقبلين على التدريب العسكري، لتأهيلهم للمواطنة الكاملة. وهو بذلك يقتدي بمعلمه **سقراط**.

لِنَرَ كيف يتكلم أولهما على لسان الثاني!

«في هذه اللحظة، دخل كارميندس القاعة.

لست بأفضل محلل للذهب. فأنا أجد الذهب في كل فتى جميل، ويكاد الجمال في نظري يشع من جميع الشبان. لكن كارميندس ظهر آنذاك كمعجزة، فقد كان مهيباً وجميلاً. تولد لديَّ انطباع، بأن الآخرين أيضاً غارقون في حبه. لأنه ما أن وُجِدَ في القاعة، حتى بدوا كأنهم فقدوا السيطرة على أنفسهم. ومن الخلف، تدافع أيضاً حشد الناس!».

ولما جلس **كارميندس** بجوار **سقراط**:

«شعرت بغتة بارتباك غريب. أين اختفت جرأتي السابقة تلك، حيث تصورت أن الحديث سيتم بيسر. ثم قال كريتياس، بأنني أعرف علاجاً لآلام الرأس؛ أما هو، فقد رمقني بنظرة يصعب وصفها، واستعد للإجابة على الأسئلة. تحلَّق الجميع، كل من كان في معهد المصارعة، حوله. رأيت جسمه تحت المعطف. سَرَت في جسمي موجة دفء، وفقدت السيطرة على نفسي».

أجل، النقاش اللاحق متعلق بأمور الروح؛ ولكن بعد هذه المقدمة، مَنْ الذي سيصدق، مَنْ سيعترف بأن الجسد مجرد قبر لها؟[١٠].

ولكن لندع جانباً التناقضات الصارخة إلى هذا الحد. لأننا قد نلاحظ بيسر أكبر، الفروقات بين كلا العالمين، في موقفهما من الجسد، إذا ما أنعمنا النظر إلى موضوع عادي ومبتذل، لكنه وثيق الصلة بالجسد، ألا وهو: موضوع الحمَّام.

الحمّامات والوثنيون:

«اعتقد الناس في الأزمنة الموغلة في القدم، بأن الأحلام عن الاغتسال لا توحي بالسوء، لم يكونوا قد عرفوا الحمامات بعد. كانوا يغتسلون فيما كان يُعرف بأحواض الإغتسال. ولما ظهرت الحمامات فيما بعد، أضحت الأحلام عن الاستحمام تُفهم على أنها سيئة وكذلك عن الحمام ذاته، حتى إذا لم يتم الاستحمام فيه. أعْتُقِدَ أنها تنذر بالمصاعب، لأن الفوضى تسود في الحمام عادة؛ وكذلك الخسائر، لأن الجسم هناك ينضح العرق بغزارة؛ وأخيراً بالإجهاد الداخلي والرعب، لأن الجلد وسطح الجسم يتعرضان للتغيرات. واليوم أيضاً، يسير الكثيرون على هدى هذا الرأي القديم، ويُفسّرون تلك الأحلام بالأسلوب ذاته؛ لكنهم يرتكبون خطأً فادحاً، لأنهم لا يأخذون بعين الاعتبار البحوث التجريبية.

«مختصر القول أن الحمامات كانت ذات يوم رديئة حقاً، لأن الناس لم يكونوا يستحمون بشكل منتظم، ولم يكن لديهم ذلك العدد الكافي من الحمامات. وعادة، كانوا يستحمون بعد بذل جهد كبير أو بعد المعركة؛ ولذلك فإن الأحلام عن الاغتسال والحمامات، كانت تذكرهم بالإرهاق والحرب. أما الآن، فالقضية تبدو مختلفة تماماً. هناك اليوم من يرفض تذوق طعم الزاد قبل أن يستحم، كما أنهم يستحمون قبل كل وليمة. وهكذا أضحى الحمام في عصرنا، وبكل بساطة، طريقاً إلى المتعة. ولذلك فإن الحلم، بالاستحمام في حمام جميل، شَرِحٍ، حسن الإنارة والتهوية، يوحي للناس بالوفرة، والرخاء؛ واللحظات اللطيفة، والمزاج الحسن، وللمريض باستعادة عافيته وقواه؛ فاستخدام الحمام دلالة وبرهان على الصحة، وإن لم يكن هذا حتمياً»(١١).

هذه الكلمات مقتبسة من كتاب إغريقي عن فن تفسير الأحلام. ومؤلفه **أرتيميدور الدلديسي** عاش في القرن الثاني بعد الميلاد. كان ممثلاً نموذجياً لأخلاقية متوسطي الثراء، الذين شكلوا القاعدة الاجتماعية للإمبراطورية الرومانية في حقبة ازدهارها. من هنا تنبع أهمية كتبه عن الأحلام، كمصدر لمعرفة عالم تصورات المعاصرين له وحياتهم اليومية. أحبوا المهرجانات والحمامات؛ كانوا على دراية حسنة بالآداب القديمة؛ قاموا برعاية التقاليد القديمة، المحلية والعرقية؛ ولأسباب مختلفة قاموا برحلات بعيدة طافوا خلالها العديد من بلدان الدولة العظمى، التي شعروا بأنهم شركاء في وحدتها؛ آمنوا بالأحلام، وعلامات الوحي، والآلهة (بهذا التسلسل بالذات!). خلقت الإمبراطورية شروطاً استثنائية ملائمة لتطور هذه الطبقة بأكملها. فقد دعمت إدارياً التطور الاقتصادي للمدن الكبرى والبلدات

الصغيرة. وبفضل ظروف السلم الطويل الأمد، وبفضل الأمن والشعور بسيادة القانون، ازدهرت في كافة البلدان مراكز للتجارة والصناعة الحرفية، والإشعاع الثقافي. وقد سعت كل من هذه المدن، حتى الأقل ثراء بينها، وبذلت جهوداً حثيثة لامتلاك مسرح، وميدان سباق «هيبودروم» خاصين بها، وكذلك باسيليقات (أي قاعات اجتماع)، ومعابد، وحمامات. وقد سميت هذه الأخيرة، وبخاصة الأكبر والأفضل تأثيثاً بينها باسم «Thermae» وتعرف بالحمامات العامة. التسمية إغريقية بطبيعة الحال، واشتقت من وجود أحواض للمياه الدافئة في مثل هذه الحمامات.

وإذا ما عُدنا من جديد إلى أمور معروفة على نطاق واسع - أو يجب أن تكون كذلك، نجد أنَّ الأنقاض وشتى أنواع البقايا في عدد لا يحصى من المواقع المنتشرة في أرجاء الإمبراطورية القديمة، تُشير وبما لا يدع مجالاً للشك، إلى أن مباني الحمامات كانت هائلة، لا بل كانت في العديد من الحالات صروحاً حضارية. فمن عبر بواباتها نجد أمكنة السباحة في مسابح فسيحة مملوءة بالمياه الباردة أو الدافئة. ويأخذ المرء بالجلوس على مقاعد الرخام من حول النوافير، والإصغاء إلى خريرها العذب وتبادل الأحاديث مع الأصدقاء بعيداً عن الهموم. أو يعمل على نضح جميع العصارات السامة من جسمه في الحجرة المعروفة باسم المَعْرَقْ «Sudatorium». وكذلك ممارسة التمارين الرياضية واللعب بالكرة في قاعات خاصة مرصوفة بالرخام ومزدانة بالتماثيل. فلا غرابة إذن، في أن سكان المدن كانوا يُمضون جزءاً كبيراً من يومهم، وبخاصة لحظات الفراغ في الحمامات. هذا، إذا لم تكن تُقَمْ في تلك الأثناء سباقات للمركبات في «الهيبودروم»، أو صراع للمجالدين(*) في مجتلد السيرك، أو صيد الحيوانات المفترسة في المدرج، أو عروض إيمائية في المسرح. في العاصمة ذاتها، شَيَّد عدد كبير من الأباطرة حمامات عامة ضخمة في مختلف أحيائها، وأطلقوا عليها أسماءهم. ولا تزال بعض أجزاء هذه المباني تخدم حتى أيامنا هذه أغراضاً متنوعة ككنائس، ومتاحف، ونماذج لتمثيل النظام الشمسي، أو حتى كصالات رياضية. ولكن، بما أن المهرجانات الأولمبية هي موضوع تأملاتنا، يجدر بنا أن نُذَكِّر - لأن في هذا ايضاً شيء رمزي! - أن الدورة السابعة عشرة للألعاب الأولمبية، التي أقيمت عام ١٩٦٠ م في روما، شهدت بعض المباريات وقد أقيمت في قاعات ما يعرف باسم حمام كركلا.

لكن من يتذكر ومن يعرف شيئاً عن الحمامات العامة الأصغر، والتي وُجدت بالمعنى الحرفي للكلمة، في كل شارع من شوارع المدينة القديمة؟ تُخبرنا ملاحظة عرضية في عمل تاريخي لمؤلف قديم، أنه في عام ٣٣ ق. م بلغ عددها ١٧٠ حماماً، وبعد قرن واحد، كان

(*) المجالدين : المصارعين . والمجتلدات : حلبات المصارعة .

إحصاؤها جميعاً أمراً صعباً[١٢]. واستناداً إلى مراجع أخرى أحدث بعض الشيء، كاد عددها أن يبلغ الألف![١٣]. إننا بطبيعة الحال لا نأخذ بعين الاعتبار الحمامات الخاصة في قصور الأثرياء وأصحاب النفوذ.

كانت الحمامات الكبيرة والصغيرة مشرعة الأبواب أمام الجميع، بغض النظر عن الانتماء، لقاء أجر رمزي، وفي بعض الأحيان مجاناً، وذلك كلما غطى أحد الأثرياء أو مجلس المدينة النفقات بمناسبة الاحتفالات. كان للنساء حق الدخول إلى جانب الرجال. علماً أن السيدات استَخدمن مبانٍ خاصة أو صالات فُرِزَتْ لهنَّ، أو خُصصت لهن أيام وساعات مُحدَّدَة؛ وفي حالات عديدة لم يتم التقيد بهذا الفرز، أي أنه ببساطة تمَّت السباحة واللهو معاً. وهكذا ابتهجت بالحمامات العامة الأجيال المتعاقبة في القرن الثاني، حيث عاش وكتب مفسر الأحلام **أرتيميدور**، وكذلك في القرن الرابع، في عهد الإمبراطور الورع **ثيودوسيوس**، حيث انقضت بشكل نهائي المهرجانات الأولمبية؛ أما في بعض المقاطعات والمدن، وخاصة في الشرق الهلنستي، فقد ظلَّت الحمامات مزدهرة زمناً طويلاً بعد ذلك الحين، في العصر البيزنطي.

اعتبر أشد الزاهدين الوثنيين تقشفاً (تجدر الإشارة إلى وجود أمثالهم) الإغتسال في الحمامات العامة عملية تنظيف ضرورية للحياة يومياً، كالخبز والزيت. فلنأخذ على سبيل المثال الأعمال والأقوال العادية **لأبولوينوس التياني** «tyana»! لم يختلف هذا الزاهد المتصوف الشهير، صانع المعجزات المزعوم، الذي عاش في القرن الأول بعد الميلاد، أي في عهد الأباطرة **ثيبيريوس**، و **كلاوديوس ونيرون**، **وفسبازيان**، و **تيطس**، نقول لم يختلف من حيث الانضباط الذاتي والاتساق المنطقي في الممارسات الزهدية، عن الرهبان المسيحين اللاحقين كثيراً. فهو لم يتناول اللحوم إطلاقاً، واقتصر في طعامه على الخبز والخضار والفاكهة. لم يشرب الخمر. مشى حافي القدمين، ولم يرتدِ سوى الملابس الكتانية، ولم يقص شعره. ولأعوام طوال، التزم الصمت المطبق، وفاء للعهد، الذي قطعه على نفسه في حداثة عهده، بأن يتفاهم مع محيطة بتعابير الوجه والإيماء وحركات العينين. لكنه كان يستحم كل يوم، وفي موعد ثابت محدد، قبيل العصر. كان يُدلك جسمه بالزيت، ويغسله بالمياه الباردة، لأنه كان على قناعة بأن المياه الدافئة تؤدي إلى المرض والشيخوخة. ولذلك، وعندما جاء مرَّةً إلى أنطاكية السورية، وعلم أن الإمبراطور أمر بإغلاق الحمامات الرائعة هناك لزمن ما، كعقاب على قلاقل أثارها السكان ضد السلطات، صَرَّح علناً:

ـ تتصرفون على نحو سيء، ويقوم الإمبراطور بإطالة أمد حياتكم في المقابل!.

وقد قصد بذلك، أنه في الحمامات العامة يمكن الاستحمام في أحواض المياه الدافئة.

نُشِرَتْ في القرون اللاحقة من الحقبة القديمة رسائل مزعومة لأبولونيوس؛ حيث يتباهى مؤلفها أنه لم يستحم أبداً، وأنه يطالب تلامذته بأن يحذوا حذوه[١٤]. يتناقض هذا الشيء بطبيعة الحال مع ما نعرفه عن سلوك **أبولونيوس** ذاته، لكنه مأخوذ عن تعاليم وممارسات أحد التيارات المسيحية. أما فيما يتعلق بالحمامات الساخنة أوالدافئة، فقد أجمع الكثيرون من الوثنيين، بما في ذلك أبناء الطبقات الأكثر ثراء، على أنها ضارة، وإليكم مثالاً على ذلك:

> كاد **سينيكا** أن يكون من أتراب **أبولونيوس** ـ وهو الفيلسوف، والكاتب، ورجل الدولة، والمليونير. يشير في إحدى رسائله الأدبية المحررة في سن متأخرة من عمره، إلى أنه عاد لتوه من النزهة، حيث تسابق خلالها مع صبي له بضعة أعوام من العمر، يدعوه رفيق نزهاتي اليومية (اعتاد أن يتفكه قائلاً: كلانا في عمر واحد، لأن أسناننا تتساقط!). وقد بلغنا الهدف معاً. «ثم اغتسلت في المياه الباردة؛ هكذا أدعو الآن المياه التي ليست دافئة كثيراً علماً أنني كنت يوماً أغطس في المياه الجليدية فعلاً! أما في يوم رأس السنة، في الأول من كانون الثاني، فكنت أبدأه بالقفز إلى المسبح المغذى من مياه الينابيع الجبلية مباشرة! ثم بدأت تكفيني السباحة في التيبر، والآن في بركة مسخنة بأشعة الشمس»[١٥].

الحمامات والمسيحيون:

قد تبدو هذه الكلمات غريبة بعض الشيء أو مسلية إلى حد ما، لكنها ملائمة تماماًلما نعرفه عن الموضوع، الذي نحن بصدده، في تلك الأزمنة. لأن معتنقي الديانة الجديدة في غالبيتهم الساحقة، لم يتحاشوا الحمامات في بادىء الأمر ـ اقتصروا على التحذير فقط من المبالغة في الاستحمام، وخاصة من أنواع محددة منه. وها هو **كليمنس الإسكندري**، الكاتب المسيحي اللامع، الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثاني، يعلم إخوته في العقيدة بوضوح تام قائلاً:

> أربعة هي الأسباب التي نَؤُمُّ الحمام من أجلها، الأول، لكي نغتسل. والثاني، لنتدفأ. والثالث، من أجل الصحة. وأخيراً بهدف المتعة. وهكذا، ينبغي تجنب الاستحمام من أجل المتعة، إذ يليق بنا الابتعاد عن المتع المتعارضة مع الشعور بالخجل. يمكن للنساء أن يستحممن من أجل النظافة والصحة؛ أما الرجال،

فليفعلوا هذا من أجل الصحة فقط. وفيما يتعلق بالحمام الدافيء، فهو غير ضروري إطلاقاً، إذ يمكن بعث الدفء في الجسم البارد بوسائل أخرى أيضاً. كما أن الاستحمام الدائم يؤثر سلباً على أعضاء الجسم ومقاومتها، وكأنه يخفض الكفاءة الفيزيائية؛ وغالباً ما يكون سبباً في الدوار والإغماء[١٦].

أما ترتليان، الذي كاد أن يعاصر كليمنس، وهو بدوره مسيحي متقد الحماس، فيعترف علناً بأنه يستحم يومياً في الساعات المعتادة والملائمة؛ أي بكل تأكيد في الظهيرة المبكرة، قبل الوجبة الرئيسية[١٧]. يبدو وكأنه بدوره فضَّل الحمامات الباردة. ولكن مجرد أن يكون ترتليان قد عكف على معالجة موضوع كهذا في مقالة هادفة، لتنوير الوثنيين وإطلاعهم على حقيقة المسيحيين، أمر معبر إلى أقصى حد. إذ أنه يثبت بطريقة غير مباشرة، التهمة الموجهة على نطاق واسع لمعتنقي الديانة الجديدة، والمتلخصة في تجنب الحمامات!.

وهذه حقيقة واقعة. فقد وُجد في أحضان المسيحية منذ البداية تيار مثَّله المتزمتون. وبمرور السنين والأجيال، ازداد قوة واتسع انتشاراً. وأبدى الزاهدون حماساً متزايداً في إدانة إضاعة الوقت المستوجبة للوم، والخضوع الآثم لنقاط ضعف الوثنيين في سعيهم وراء الراحة والمتع الدنيوية، والاهتمام الزائد - أو بالأحرى كل اهتمام! - بنظافة الجسم وأناقة اللباس. يمكن سرد شهادات كثيرة تؤكد هذا الموقف. لكننا سنقتصر هنا على أقوال أناس، كان في وسعهم كرجال ناضجين أن يشاهدوا المهرجانات الأخيرة في أولمبيا، تلك، التي تم الاحتفال بها في عهد ثيودوسيوس؛ فيما لو أنها أثارت اهتمامهم، بطبيعة الحال. ولنضف، أن الرجال، الذين نطلب شهادتهم هنا، ليسوا من سواد الرهبان أو النساك المعزولين في صحراء طيبة، أو من الزاهدين والمعذبين، الذين أنهكوا أجسامهم في التقشف والتأمل. وإنما العكس. فهم في الحقيقة رجال صارمون مع أنفسهم ومع الآخرين، لكنهم في الوقت ذاته علماء لامعون، متميزون بسعة الأفق والإطلاع، والمواهب الأدبية، كما أنهم من عمالقة العمل الأدبي والتنظيمي، الذين تفاعلوا بحيوية مع قضايا عصرهم. وهذا ما ضمن لهم ما يستحقونه من مكانة مشرِّفة وراسخة في تاريخ الثقافة الأوروبية. لكنَّ آراءهم في هذه الحالة الخاصة لا بد وأن تبدو صاعقة.

الحمامات، والقديسون، والأساقفة:

يرجح أنه في نهاية عام ٣٩٥ ، الذي رحل في مطلعه الإمبراطور ثيودوسيوس في ميلانو، وفي بلد آخر من بلدان الإمبراطورية يقع وراء البحار، تلقى أوريليوس أوغسطين المسوح الأسقفية. يمكن لمن يشاء، أن يرى في ذلك أيضاً تزامناً رمزياً للأحداث، التي تعني مغيب

حقبة وبزوغ فجر حقبة جديدة. لأن أوغسطين، الذي عرفته الأجيال اللاحقة كقديس، ودكتور الكنيسة، لعب ولا يزال يلعب دوراً بالغ الأهمية في تطور الفكر الأوروبي المعاصر. ولا تزال بعض عقائده دائمة الحضور في النظم الفلسفية الحديثة والأحدث، محتفظة بجديتها إلى أقصى حد، والمهم في الأمر أنها تؤثر على نحو ملهم. فلا ضرورة إطلاقاً للعودة إلى أيام **اليانسينيين**! وربما يكفي، إذا ما ذكرنا بأن «التأملات الفلسفية» للمفكر **فيتغينشتاين** ((Wittgenstein)) تبدأ بتحليل فصل من «اعترافات» أوغسطين؛ أما في الدراسات الخاصة بعلم تطور دلالات الألفاظ ((Semasiology))، وهو الاتجاه السائد الآن في الدراسات اللغوية المقارنة، سنجد ترجمة مقالة أوغسطين ذاك نفسه ـ المؤلف، الذي عاش وأبدع قبل ما يقارب الخمسة عشر قرناً.

تمَّ آنذاك الاحتفال بمنح المسوح الأسقفية لأوغسطين، في المدينة الإفريقية الساحلية، الواقعة الآن في الجزائر؛ والتي عُرفت آنذاك باسم **هيبوريجيوس** ((Hippo Regius))، ومن ثمَّ باسم **بوني** ((Bone)) وهي **عنابة** الحالية. ولد أوغسطين في المقاطعة والبلد نفسيهما، وتحديداً في مدينة **تانغستي** ((Tangaste))، الواقعة على بعد بضع عشرات من الكيلو مترات إلى الجنوب من **هيبو**، في عمق البر. وقد رأى النور عام ٣٥٤ .

كان الأسقف بالرغم من صغر سنه النسبي، إذ لم يكد أن يتجاوز الأربعين، قد تعرض في حياته للعديد من التحولات والتقلبات العنيفة على صعيدي الآراء والاهتمامات؛ وكذلك في نمط الحياة ذاته. كان والده وثنياً، أما والدته، فمسيحية متقدة الحماس؛ وعلى ما يبدو، أبدى الفتى في بادىء الأمر لا مبالاة في أمور الدين. درس البلاغة في قرطاجنة لبضعة أعوام، وهي أكبر مدن إفريقيا الرومانية، عاقداً العزم على العمل كمحامٍ. لكنَّه سرعان ما اتجه بشغف ـ تحت تأثير مقالة كتبها **شيشرون** ـ شطر الفلسفة؛ وقد شدَّه على نحو خاص ذلك الفرع من الفلسفة، المتميز بطابعه الشكوكي، حيث مَثَّلَتْهُ ومارسته الأكاديمية الأفلاطونية في المراحل الأخيرة من تطورها. انضم في هذه الأثناء إلى صفوف معتنقي **المانوية**. وهي ديانة استمدت بداياتها من الشرق الإيراني، وركزت بشدة على ثنوية العالم في كافة مستوياته ومظاهره، أي على التمايز بين عنصري الخير والشر المتضادين والمتصارعين منذ الأزل؛ أما مراحل هذا الصراع، فقد اسْتُعْرِضَتْ في أسطورة تميزت بالتعقيد، وتألق الألوان، وتعدد المعاني.

انتقل أوغسطين الشاب إلى ميلانو ليعمل أستاذاً للبلاغة، وذلك بعد إقامة قصيرة في **روما**. ولكن يبدو وكأن هذا المفكر الفذ، صاحب الأسلوب البارع، لم يُبْدِ ميولاً خاصة في مجال التعليم، بالرغم من أنه اكتسب بعض الخبرة من قبل، لدى ممارسته هذا النشاط في

إفريقيا وفي روما أيضاً. ولكن في هذه المدينة الكبيرة في الشمال الإيطالي، اقترب أوغسطين من المسيحية عبر الفلسفة الأفلاطونية المحدثة. وتمَّ هذا تحت تأثير مواعظ ومجمل شخصية أمبروزي، أسقف مدينة ميلانو، ذلك الأسقف، الذي كان له أن يقف بعد بضع عشرات من الأعوام، في المدينة ذاتها، بجوار فراش موت الإمبراطور ثيودوسيوس. وعلى يده تلقى أستاذ البلاغة الشاب وابنه أديودات سر المعمودية عام ٣٨٧ . وفي العام نفسه، فقد والدته المحبوبة مونيكا، التي توفيت في أوستيا، المدينة الرومانية الساحلية.

بعد عودة أوغسطين إلى موطنه الأم مسيحياً شديد الحماس، أسس هناك نوعاً من الرهبنة وفي مدينة هيبو ريجيوس، مارس مهام رئاسة مجلس مشيخة الجماعة المسيحية بتكليف من أعضائها، ومنذ عام ٣٩٥ ، كما أسلفنا، مهام الأسقف. وبقي في هذا المنصب حتى وافته المنية، أي حتى آب عام ٤٣٠ م، ولما توفي، كانت المدينة تحت رحمة الحصار الواندالي منذ عشرة أشهر.

وُجِدَتْ في هيبو ريجيوس رهبنة نسائية أيضاً. وقد أشرف أوغسطين على إدارتها بواسطة شقيقته، التي ترأست الرهبنة. لكنَّ نزاعات وخلافات تفوح منها رائحة الفضيحة ثارت في تجمع النسوة الورعات؛ وذلك لأسباب عادية وشائعة في كل الحقب، أي لأسباب ذات طابع شخصي. فَوُضِعَ أمر البتّ في النزاع بين يدي الأسقف، الذي وجه عام ٤٢٣ رسالة مطولة إلى تجمع الراهبات، كانت بمثابة تعليمات وقواعد ناظمة لحياة الرهبنة. وكان لهذه الوثيقة أن تلعب في الأعوام التالية دوراً بالغ الأهمية، كأساس للعديد من القوانين في مختلف التجمعات الرهبانية. لكنَّ ما يهمنا الآن من هذه الوثيقة، هي فقرة قصيرة موضوعها ـ لا بد من الاعتراف بذلك ـ عادي جداً.

> «اغسلن ملابسكن بأنفسكنَّ، أو ليغسلها القصّارون، وفقاً لتقدير رئيسة الدير، وذلك لكي لا تجذب الرغبة الزائدة في الثوب النظيف، الأوساخ الداخلية للروح. ولا تدعن غسل الجسم واستخدام الحمّام، أن يكونا من الأشياء الدائمة! يجب أن تتم التطهيرات في الفترات الاعتيادية، أي مرة كل شهر؛ ولكن إذا ما أرغم ضعف الجسم إحداهنَّ على غسله، فليتم هذا بمشورة الطبيب وبدون شوشرة؛ وإذا رفضت، فليفرض عليها الاغتسال بأمر من رئيسة الدير، وهو ما يجب أن يحدث لضرورة سلامة الجسم»[١٨].

كان لهذه القاعدة، التي صِيغت هنا بصراحة ووضوح، أن تؤثر فيما بعد تأثيراً بالغاً على موضوع النظافة الشخصية لمختلف الجماعات والمجتمعات، أو حتى لطبقات بأكملها في القرون اللاحقة. وأضحى تأثيرها أكبر، بعد أن دعمتها أقوال رجل آخر بقوة، وهو رجل ذو

قداسة لا يرقى لها الشك، وذو علم غزير؛ عاصر أوغسطين، وذاع صيته كواحد من أقدر مَنْ كتبوا باللاتينية في حقبته - إنه هيرونيم.

كان هيرونيم المنحدر من المنطقة الحدودية ما بين دلماشيا وبانونيا يكبر أسقف هيبو ريجيوس بما يقارب العشرة أعوام. جدير بنا أن نذكّر القارىء بأنهما، وبالرغم من تبادل الرسائل، لم يكنَّا لبعضهما مزيداً من المودة - كما يحدث غالباً للامعين من ممثلي الجيل الواحد والمنحى الإيديولوجي الواحد. استقر في فلسطين، وتحديداً في بيت لحم، بعد سلسلة من الرحلات. ترأس هناك جماعة الرهبان، واستقبل الحجاج الورعين. لكنه قبل أي شيء آخر، عكف على البحث والكتابة؛ فمن يجهل منحوتة دورير ((Durer)) الخشبية المعروفة باسم «القديس هيرونيم في مكتبه»؟ من الكم الهائل لأعمال القديس هيرونيم، تجدر الإشارة بشكل خاص إلى عمل يعد الأهم من بينها، ليس بالنسبة لتاريخ الكنيسة فحسب، وإنما لمجمل الثقافة الأوروبية الغربية، إنه تنقيح ترجمات الكتاب المقدس للّاتينية؛ وهو ما يعرف باسم «الفولغاتا» ((Vulgate)). وعلى أي حال، كان القديس أوغسطين قد انتقد بحدة بعض صياغات هذه الترجمة. كما وجد الزاهد - العالم بالإضافة إلى ذلك ما يكفي من الوقت لمراسلة معاصريه على نطاق واسع! وقَدَّم في هذه المراسلات النصح، ورغَّب في العديد من الأمور المرتبطة بالحياة الدينية. فها هو يكتب في رسالة إلى سيدة تدعى ليتا طلبت إرشادات تخص طريقة تربية ابنتها.

> «لا تعجبني إطلاقاً استحمامات الفتاة الراشدة. إذ يجب أن تخجل من نفسها وألاّ تتقبَّل رؤية عريها. فإذا كانت تجعل جسمها يهزل بالسهر والصيام، وترغب في إطفاء نار الشهوة وجمر نار الشباب بجليد الزهد وتسعى لمسخ الجمال الفطري بالأوساخ المتعمدة - فلماذا إذن، تعمل بفعل دوافع معاكسة، تُهَيِّجُ اللهب الخامد بواسطة هذا الإضرام، الذي يلعب الحمّام دوره؟»[١٩].

وعبَّر عن هذه الفكرة بصورة أشد وضوحاً، وَحِدَةً، ودقة في رسالة أخرى:

> «أيصبح ملمس جلدك خشناً، لأنك حرمته من الحمام؟ ولكن مَنْ اغتسل مرة بيسوع، ليس مضطراً لأن يغتسل مرة ثانية».

يخطىء خطأ فادحاً مَنْ يعتقد بأن هذه الكلمات مجرد صور بلاغية، لأن القديس هيرونيم يقول في مكان آخر:

«أنت، يعجبك أن تستحم كل يوم، لكن هذه النظافة قذارة في نظر غيرك»[٢٠].

ولكي نغلق صفحة هذه التأملات «الحمّامية» بنبرة مختلفة وأكثر بهجة إلى حد ما، دعنا

نستشهد بأقوال مسؤول آخر من مسؤولي المسيحية آنذاك:

يحتمل أن يكون رجل يدعى سيسينيوس قد تولى منصب أسقف الجماعة المعروفة بالنوفاتسيانية في القسطنطينية عام ٣٩٥ م (يعود من جديد عام وفاة ثيودوسيوس). مَنْ هم النوفاتسيانيون؟ شكلوا مجموعة كبيرة نسبياً من المنشقين؛ انفصلوا عن الأكثرية في مدينة روما ذاتها منذ القرن الثالث، أثناء الاضطهادات، بسبب الخلافات المثيرة للجدل على الصعيدين الأخلاقي والشخصي؛ ثم نشطت فرقهم، ولفترة طويلة، في مدن الإمبراطورية الأخرى أيضاً. لم يختلفوا عن الأرثوذكس بالآراء المتعلقة بقضايا العقيدة والطقوس، وإنما بشكل رئيس، بشيء من الصرامة الأخلاقية والعناد في الموقف من الآثمين؛ وعلى نحو خاص، إذا تعلق الأمر بالارتداد عن الدين، وكان المرتد رجل دين. ربما يعود السبب إلى هذا الشيء بالذات، أنهم حظيوا باحترام كبير حتى في أوساط خصومهم. وعلى أي حال، فإن المؤرخ سقراط، الذي يرجح أنه عرف سيسينيوس أو على أقل تقدير التقى به في القسطنطينية، رسم صورة ذلك الأسقف بكثير من الود. فهو يكتب بأنه كان رجلاً واسع الإطلاع والأفق ضليعاً بمعرفة آراء الوثنيين والمدارس الفلسفية وعلم «الكتاب»، مجادلاً سريع البديهة في النقاشات اللاهوتية. تجدر الإشارة إلى أن خوض مثل هذه النقاشات كان مستمراً آنذاك. التزم في حياته الشخصية بالتقشف وعدم الإسراف، ولذلك لم يجرؤ أي كان على الإساءة إليه. لكنه أحب بعض أشكال الراحة أو الترف إن صحَّ القول؛ ولذلك فإن الذين لم يحتكوا به عن قرب وعلى نحو متكرر، عجزوا عن فهم الأساس، الذي استند إليه تواضعه واكتفاءه بالقليل، ما دام ينعم ظاهرياً بكل شي. كان مهذباً ولطيف المعشر، محبوباً على نطاق واسع. أتقن فن التفكه، ولم يُغضب أو يُهن أحداً، لكنه لم يغضب أيضاً، عندما تفكه الآخرون منه، اشتهر بإجاباته الطريفة. ففي إحدى المرات سأله أحدهم بمكر: لماذا يستحم مرتين في اليوم وهو أسقف. فأجاب:

لأنني عاجز عن الاستحمام للمرة الثالثة!.

ولما رأى أحدهم ما يعيب في ارتدائه لأثواب كاشفة اللون، قال:

عليك أن تريني أولاً، أين هو مكتوب، بأنه على الأساقفة ارتداء أثواب داكنة![٢١].

نُقلت إلينا هذه الكلمات كأمثلة على براعة الرد على بعض التهم. ولكن كما يحدث غالباً، فإن الإجابات العرضية تكشف بأسلوب تلقائي، أي بشكل صارخ أكثر من الحقائق الراسخة للحياة في ذلك العصر.

المهرجانات والمجامع الكنسية:

بما أن النظرة إلى أمور عادية كالاغتسال والحمام، أو حتى اللباس الأنيق تميزت بهذا القدر من الشكوكية، وفي بعض الأحيان، بالنفور، لا بل بالعداء، فلا ريب في أن شتى أنواع المهرجانات قد أثارت في بعض الأوساط حنقاً يفوق ذلك بكثير؛ ولم يقتصر الأمر على الدموية منها، التي تمثلت في منازلات المجالدين! تعذر منع المؤمنين بشكل مباشر من ريادة دور السيرك والمسارح، حيث توقع المسؤولون سلفاً عدم جدوى التوصيات لدى اصطدامها بتعلق الناس الشديد بالمهرجانات، وإن هددت بالحرم الكنسي. كما لم تُجْدِ النداءات، ومحاولات الإقناع والمناشدات الموجهة إلى الشعب في المقالات والمواعظ. ولذلك وُجهت نصال حراب الإدانة والعقوبات الكنسية إلى الأفراد، الذين صعدوا إلى المسارح ولعبوا أدوارهم في الميادين، وأُغلقت في وجوههم أبواب الدخول في جماعات المؤمنين. كما اتخذت المجامع الكنسية في مختلف مقاطعات الإمبراطورية القرارات الملائمة. وها هو على سبيل المثال، قرار مجمع الأساقفة في مدينة ألفيرا الإسبانية في مطلع القرن الرابع:

«إذا آمن سائق مركبة السيرك أو الممثل الإيمائي، فيجب أن يكفا أولاً عن ممارسة فنونهما؛ وعندئذ فقط يمكن أن يُقبلا، ولكن شريطة أن لا يعودا لممارستها ثانية. أما إذا حاولا بالرغم من هذا الحظر ممارستها، فيجب استبعادهما من الكنيسة»(٢٢).

وبعد ذلك بفترة وجيزة، أقرَّ المجمع الذي انعقد في مدينة أرليس ((Arles)) في جنوب فرنسا الحالية:

«عَزْلَ سائقي مركبات السيرك، المؤمنين، عن الجماعة، ما داموا يشاركون في المباريات، وكذلك الممثلين»(٢٣).

أما السلطات المدنية، فقد حاولت من جهتها الحدَّ من مشاركة المشاهدين، يقول مرسوم صدر في عهد ثيودوسيوس:

«يمكن لقاضي المقاطعة مشاهدة العروض المسرحية، ومباريات السيرك، ومشاهد اصطياد الحيوانات المفترسة، ولكن فقط في الأيام، التي يُحتفل فيها بعيد ميلاد الإمبراطور أو توليه العرش. وقبل الظهر حصراً. أما بعد الغداء، فيجب أن لا يظهر بين المشاهدين»(٢٤).

كان القضاة في الأساس حكام المقاطعات وكبار المسؤولين، ولذلك فإنه في تسميات ومصطلحات المرحلة المتأخرة من وجود الإمبراطوية، كانت لفظة قاضي ((Iude)) تعني عموماً كافة المسؤولين. وهكذا، فقد شمل الحظر شريحة واسعة؛ حيث شمل أيضاً كامل حشد الموظفين التابعين لهم، وإلى حد بعيد أفراداً غير رسميين. فاستمرار المكاتب في عملها بانتظام، وتواصل عمليات الاستجواب والمحاكمة، كل ذلك كان يثني المراجعين عن المتعة، ويدفع إلى التوجه ببساطة إلى المحكمة، وقسم المحاسبة، والأرشيف للاهتمام بالواجبات. لكن الجميع من موظفين ومراجعين كانوا يجلسون في القاعات متظاهرين بالعمل، أمّا قلوبهم وآذانهم، بدءاً من أصغر كاتب وانتهاء بالحاكم المهيب، فقد كانت تميل كل الميل إلى ميادين السباق، إلى حيث تناهت إلى أسماعهم مرة بعد مرة زمجرة حناجر الآلاف المحتشدة هناك.

أما صيحات الجماهير المستثارة بالمباريات والصراع، التي تبدو نموذجية إلى أقصى حد في حياة مدننا الحالية، والتي ألفتها آذاننا جيداً، وخاصة أيام الآحاد، فقد كانت شيئاً مألوفاً أيضاً في حياة مدن الإمبراطورية الرومانية عبر قرون وجودها كافة. فلنقتبس كلمات سينيكا، الذي استشهدنا به من قبل؛ الكلمات، التي يمكن أن تتضمنها أية مقالة أو رواية تُكتب الآن!

> «أنا اليوم متفرغ لنفسي، ولا يعود الفضل في ذلك لكرمي وحده، وإنما للمهرجان أيضاً؛ حيث استحوذ على اهتمام كل المتطفلين، وشدهم إلى مباريات الكرة» (حرفياً: الصراع بالكرة ((Sphaeromachia)) فلن يقتحم أحد علي الدار ولن يعيق تأملاتي، التي تتقدم بجرأة نتيجة هذه الثقة بالذات. لن يتعالى صرير البوابة دون توقف ولن تُرفع الستائر عن الباب... إنه شيء عظيم أن تعد نفسك بالهدوء والعزلة بدون جليس! ها هي صيحة عظيمة تتناهى إلى سمعي من الميدان. إنها في الحقيقة لا تهزني، لكنها تدفعني لتأمل هذه الظاهرة بحد ذاتها. وأتساءل، ما أكثر الذين يدربون الجسد، وما أقل المهتمين بتنمية الفكر؛ أي حشد يتوجه إلى المهرجان، الذي لا يوحي بالثقة، وليس سوى تسلية، وما أكثر الفراغ المحيط بالمعارف الثمينة؛ ما أضأل أرواح هؤلاء، الذين نهيم إعجاباً بعضلاتهم وأكتافهم[٢٥].

ولكن لدى العودة إلى ذلك المرسوم، الذي صدر في عهد ثيودوسيوس نجده يتضمن أيضاً قراراً مختصراً لا يكاد أن يتجاوز الجملة الواحدة، ثبت فيمابعد أنها بالغة الأهمية لأخلاقيات العديد من الدول الأوروبية:

«يمنع إقامة المهرجانات أيام الآحاد، لئلا يمتزج التمجيد الإلهي باللهو».

كانت هناك دول تقيدت بهذا الحظر بحماس بيورتياني حتى وقتنا الحاضر تقريباً: دون أن تدرك بالطبع، مدى شكلية بداية ما كادت أن تعتبره وصية إلهية.

لكن كافة تلك القرارات والأوامر، التي صدرت في القرن الرابع، الكنسية منها والحكومية، لم تكن تشكل سوى أنصاف حلول وجلة. وقد تمّ الالتفاف حولها بأساليب مختلفة بكل تأكيد؛ لأن هذا ما يحدث عادة في كافة الدول والعصور، عندما تقوم السلطات لأسباب نظرية أو لأسباب معروفة لها وحدها، بسن قوانين غير عملية، عقائدية، أو ببساطة أكبر، متناقضة مع الحس السليم للمواطن العادي. أجل، نجحوا في أواخر القرن الرابع، في استئصال صراعات المجالدين ـ الدموية، والوحشية، والهمجية، التي أدانتها جميع العقول النيّرة، بغض النظر عن القناعات الدينية. بينما استمرت سباقات المركبات، والمسارح لفترة طويلة. تعذر على سكان المدن العيش بدونها، شأنها شأن الحمامات العامة؛ الحقيقة أنهم استطاعوا الاستغناء عن هذه الأخيرة بسرعة نسبياً في مختلف الدول، وفي بعض الدول لم يعتادوا عليها أصلاً. لكن أكثر المسؤولين في الدولة، كرَّموا الممثلين الإيمائيين، ونجوم الميادين الحقيقيين: سائقي المركبات.

لم يتخلف الإمبراطور نفسه عن رعاياه فيما يتعلق بمتع ميادين السباق. وقد عبَّر عن ذلك في غير مرة بشكل واضح وصريح. ليس في يوم رحيله فحسب، وإنما قبل ذلك الحين بخمسة أعوام، أي في عام ٣٩٠ . وبالعودة إلى تلك الأزمنة، تدخل روايتنا الأطر التاريخية، حيث سنرافق بدءاً بهذه اللحظة تطور أحداث أعوام «أولمبيا» الأخيرة في العالم القديم.

تسالونيكي

عظماء عام ٣٩٠:

عام ٣٩٠ م وفقاً لحساباتنا اليوم أي (حسب التقويم الميلادي)، أما أناس ذلك العصر، كما أسلفنا فقد كانوا يحددون الأعوام على نحو آخر، وتحديداً بأسماء القناصل. ووفق هذا التحديد (التقويم) فقد كان مقروناً باسميْ **فالينتينيان** للمرة الرابعة **ونيوتيريوس**. وبما أننا نتحدث عنهما، سنشير إلى عدد من أرفع شخصيات الإمبراطورية مقاماً آنذاك. سيكون هذا ذا نفع في اعتقادنا، لأن البعض منهم لعب دوراً بالغ الأهمية في الأحداث اللاحقة. كما أننا سنكوّن فكرة عن البنية الإدارية للإمبراطورية. وأخيراً سيسمح لنا استعراض هذه الشخصيات بفهم مجرى التقسيم الديني داخل الطبقات العليا لمجتمع ذلك العصر.

تولى القنصل الأول **فالينتينيان** منصبه الرفيع للمرة الرابعة قبل أن يتجاوز التاسعة عشرة من العمر! لكن هذه الحقيقة اعْتُبِرَتْ أمراً طبيعياً ومبرراً تماماً؛ لأن الأمر يتعلق بقيصرٍ وشريكٍ لثيودوسيوس في الحكم. لُقِّب **بأغسطس** بعد وفاة والده **فالينتينيان الأول** مباشرة عام ٣٧٥ ، أي كطفل لم يتجاوز الرابعة من عمره. كان مقيماً في **غالة** منذ فترة، بينما استقر **ثيودوسيوس في ميلانو** بشكل أساسي. صُنِّفَ فالينتينيان في عداد المسيحيين المتقدي الحماس؛ وعلى ما يبدو كان يميل للتزمت والزهد، وقد تجلى ذلك في النفور من مهرجانات بريئة في جوهرها، كسباق المركبات. وقد أشار الأسقف أمبروزي بكثير من التقدير إلى هذا الموضوع في خطابه التأبيني له، بعد موته المأساوي عام ٣٩٢ (استشهدنا بهذه الكلمات من قبل):

ـ يقال أن مهرجانات السيرك كانت تبهجه في البداية. لكنه تخلص من هذا الضعف نهائياً فيما بعد، حيث أنه لم يجد ضرورة لإقامتها حتى في أعياد ميلاد القياصرة، أو حتى في مناسبات تمجيد الحكام!.

وهكذا، فقد اختلف فالينتينيان من هذه الناحية أشد الاختلاف، عن شريكه في الحكم، المسيحي أيضاً.

القنصل الثاني **نيوتيريوس**، كان رجلاً متقدماً في السن، ربما في الستين، مارس مهامه من قبل في مناصب رفيعة كثيرة في شتى أنحاء الإمبراطورية، أما آنذاك (في الفترة التي نتحدث عنها) فقد تولى منصب والي غالة، وترأس بذلك الإدارة المدنية لرقعة شاسعة من المقاطعات الغربية الواقعة على المحيط الأطلسي: **بريطانيا** و **إسبانيا**، وجزءاً من **إفريقيا**. وفيما يتعلق بقناعاته الدينية، يعتقد أنه كان مسيحياً متعاطفاً مع الأريانيين؛ ومن ناحية ثانية استمر عن وعي وتصميم، في مراسلة سيماخوس، زعيم الأرستقراطية الوثنية في روما بالذات.

قُسِّمَتْ الإمبراطورية آنذاك إلى ثلاثة أو أربعة أجزاء ضخمة، أطلق على كل منها اسم ولاية Prefucture، وقُسِّمَتْ كل منها بدورها إلى عدد من المناطق Diocese؛ وهذه الأخيرة بدورها إلى مقاطعات Province. تعرفنا الآن على الولاية الغربية، أي الغالّية. أمَّا الشرقية، التي عُرفت رسمياً باللاتينية باسم Orientem أو Orientis، فقد كانت أكبر من حيث المساحة، اذ ضمت **ليبيا ومصر**، **فلسطين وسوريا**، **آسيا الصغرى**، وفي **أوروبا - تراقية** (بلغاريا الحالية على وجه التقريب). وبين هاتين، وقعت ولاية **إيطاليا**، **إفريقيا**، **إيليريوم**، وامتدت لتشمل مناطق **تونس والجزائر**، **إيطاليا والبلدان الألبية**، وكذلك كامل **البلقان** (باستثناء تراقية بطبيعة الحال). وغالباً ما تم فصل أراضي **البلقان** واعتبارها ولاية مستقلة، عُرفت باسم **إيليريكوم** Illiricum **وفي عام ٣٩٠**، بسط أحد الولاة نفوذه على مجملها - من إفريقيا وحتى الدانوب. كان يدعى **بوليميوس**، ولا نعرف عنه سوى أقل من القليل؛ وتحديداً أنه حكم قبلاً المقاطعات الإفريقية، ولذلك يحتمل أن يكون قد انحدر من تلك المناطق.

لكننا في المقابل نعرف جيداً والي الشرق، **تاتيانوس**. شخصية فذة، مميزة لحقبتها في بعض الجوانب، لكنها مأساوية أيضاً؛ الشيء الذي سنعود للحديث عنه لاحقاً. نستطيع بفضل النصوص المحفوظة تتبع مراحل تقدمه في الوظائف الحكومية. كان رجل قانون، ومارس في شبابه مهنة **المحاماة**. ثم انتقل إلى الإدارة الحكومية وبدأ بارتقاء درجات السلم الوظيفي بسرعة. تولى على التسلسل مناصب: **مساعد الحاكم**؛ ثم **حاكم مصر العليا (طيبة)**؛ وبعدئذ حاكم **مصر** بأكملها ثم حاكم **سوريا** ووزير **شؤون الشرق** ثم **وزير السخاء المقدس**، أي **وزير المالية**. ومنذ عام ٣٨٠ عاش على ما يبدو كرجل مستقل في ممتلكاته في **مقاطعة ليتسيا**. لكن **ثيودوسيوس** بعد موت والي الشرق عام ٣٨٨ ، ولدى بحثه عن الرجل الملائم لمنصب

على هذا القدر من الأهمية، شرّف تاتيانوس باختياره، وذلك بسبب طاقاته، وخبراته، وسمعته. اكتسب هذا الاختيار أهمية أكبر، لأن تاتيانوس كان قد تقدم في السن كثيراً وكان أيضاً من الوثنيين الشديدي الحماس لمعتقداتهم، وهذا بحد ذاته كان كافياً لاستبعاد ترشيحه في نظر الإمبراطور المسيحي وبعض مستشاريه. قَبِلَ تاتيانوس بمنصبه المشرّف ـ وذلك لسوء حظه كما ثبت فيما بعد. أما في عام ٣٩٠ ، فلم يكن هناك ما يشير إلى المفاجآت، التي يُخبئها المستقبل، وكان تاتيانوس لا يزال عظيم الأهمية والنفوذ، لا بل حاول ترسيخ مواقعه أكثر.

في تلك الأثناء تولى ابنه المدعو **بروكولوس** أيضاً منصباً رفيعاً؛ حيث أصبح والي مدينة القسطنطينية، المدينة الثانية آنذاك في أهميتها بعد روما مباشرة. أثبت بروكولوس، وهو رجل في مقتبل العمر، جدارته من قبل كحاكم لفلسطين، ومن ثم لسوريا، وبعد ذلك وزيراً للشرق، وأخيراً وزيراً للسخاء المقدس. وهكذا يكون قد صعد درجات سلم السلطة كوالده على وجه التقريب. كما ورث عنه بعض سمات طبعه: الحيوية، والصرامة، أو الوحشية بالأحرى، لدى وضع مخططاته حيّز التنفيذ. وشيئاً آخر أيضاً: التعلق بالديانة القديمة. وفي حالة بروكولوس يشهد على ذلك بشكل قاطع نص شعري منقوش من قِبَل سكان فينيقيا ـ بالإغريقية بطبيعة الحال! ـ تخليداً لذكراه، على صخرة عند مصب نهر ليكوس في البحر. والنص المذكور يمجد الحاكم على مشاركته ورئاسته لمراسم تقديم الأضاحي للآلهة في هيليوبوليس؛ ويقصد بها **بعلبك** الحالية، المعروفة على نطاق واسع بفضل أنقاض معابدها الهائلة والرائعة ـ وخاصة معبدا **زيوس ـ حدد وباخوس**: كما يمجد النص ذاته بروكولوس بكلمات صاخبة على ما قدمه من خدمات تستحق التقدير في شق الطريق، التي تخترق الجبال الصخرية الشديدة الانحدار. وأخيراً، نعرف من هنا وهناك، أن بروكولوس لدى توليه منصب وزير الشرق، أعار **أنطاكية** اهتماماً كبيراً وقام بتجميلها؛ فقد بنى هناك أو رمم الحمامات، والأروقة المعمدة، والأسواق التجارية. لكن مخططاته العمرانية المعروفة على أكمل وجه في المدينة السورية العظيمة مرتبطة بموضوع المهرجانات الأولمبية؛ ويعد هذا التزامن للأحداث بالنسبة لنا مثيراً للاهتمام على نحو خاص. فلنولي هذا الموضوع إذن شيئاً من الاهتمام.

كانت تقام في أنطاكية، كما أسلفنا، مهرجانات كل أربعة أعوام، وذلك في أشهر الصيف من العام، الذي كان يسبق إقامة المهرجانات في أولمبيا، في البلد القديم؛ وكان الهدف من ذلك، الحد من التنافس بين المهرجانات في المدينتين، ومن محاولة كل منها اجتذاب

المتبارين والمشاهدين. لقد تولى بروكولوس منصب الوزير لشؤون الشرق عام ٣٨٣ ، وكان للألعاب الأولمبية المحلية أن تقام في العام التالي. فقرر المسؤول الجديد إعطاءها زخماً أكبر بتوسيع مبنى يدعى البليثرون Plethron. تعني هذه اللفظة في الأساس مقياساً للطول قدره مئة قدم، إذ بلغ طول كل من أضلاع المبنى مئة قدم. أقيمت فيه المباريات الأولية ـ أو كما كنا سنسميها بمصطلحات اليوم، التصفيات بين الرياضيين. كان في موطن المهرجانات الأولمبية الأول، في أولمبيا على ضفاف الفيوس، مبنى مشابهاً له نفس الأبعاد، ومخصص لنفس الغرض؛ إنه مثال رائع على اَلتَقَوِيَةِ، التي التزم بها العالم الهلنستي في نقل النماذج القديمة إلى الأمكنة الجديدة، تعبيراً عن الإدراك التام، بأن العناية بالتقاليد ورعايتها، هي التي تقرر في المقام الأول وجود أي شعب وأية ثقافة. أُنْشِىءَ المبنى الأنطاكي في أواخر القرن الثاني للميلاد. وتم توسيعه بعض الشيء في النصف الأول من القرن الرابع. شُيِّدَ كما أسلفنا على هيئة مربع في المسقط الشاقولي، واحتوى حول المدرج المفتوح صفين فقط من المقاعد الحجرية، وهذا ما جعل عدد المشاهدين محدوداً جداً. لكن مخطط بروكولوس لتوسيع المبنى واجه ـ شيء مذهل ظاهرياً! ـ معارضة حادة من الجهة الأقل توقعاً؛ فقد وجه **ليبانيوس**، أشهر أساتذة البلاغة في حينه، ليس في أنطاكية وحدها، وهو الوثني الصادق، المولع بالتقاليد الكبرى والمحلية، ما يمكن أن يوصف برسالة مفتوحة إلى الوزير، جاءت على هيئة قصة، لأنها لم تُتلَ أبداً. وقد استهلها مباشرة بكلمات الإدانة الحادة:

«أرى أن عدداً كبيراً من الناس يشعرون بالإمتنان لبروكولوس لأنه قام بتوسيع المدرج، الذي تتم فيه مباريات ما بعد الظهر للرياضيين؛ هؤلاء، الذين يأتون هنا للمشاركة في المهرجانات الأولمبية. وأنا أود أن أثبت أنه شراً يفعل، وأن البعض يكيل له المديح على أشياء تستوجب في واقع الأمر أن يُنْتَقَدَ بسببها!».

يمكن أن يلخص مجرى تحليل ليبانيوس (وهو مطنب وفيه الكثير من التكرار) على النحو التالي:

إذا احتوى البليثرون على مقاعد أكثر، سيجلس فيه عدد أكبر من المشاهدين، وهذا ما سيؤثر سلباً على سير التصفيات، حيث سيخضع قرار التحكيم لضغط الجمهور، وتصفيقه، واحتجاجه. ويضيف ليبانيوس:

> «فقبل الآن، بدأت تتزايد الممارسات غير القانونية مع توالي المباريات! وهكذا، فقد كان لبعض منافسات الرياضيين أن تنتهي قبل مغيب الشمس، ولكن تعقيدات كانت تحدث لأسباب شتى. فالذين بدؤوا متأخرين، ارتأوا أنهم يجب

أن ينتهوا متأخرين أيضاً؛ ورأى آخرون أن الحرارة لا تحتمل. وعلى المدرج تداخلت صيحات الهلنستيين، والرومان. صاح البعض قائلين بأن المتبارين متعبون، وردَّ آخرون بأنه لا وجود لشيء من هذا القبيل!».

ويستنتج أستاذ البلاغة:

«وهكذا فإن عزيزنا بروكولوس يجعل الأمر أشد سوءاً. فبهجته من أننا سنملك مدرجاً أوسع، هي في الآن ذاته بهجة من سيادة اللا قانون. وبابتهاجه هذا يسيء إلى المهرجانات الأولمبية. وهو هنا يؤكد أنه غير مهتم بمهرجانات حقيقية!».

تبدو القضية برمتها غريبة. أهذا هو فعلاً ما كان يعنيه ليبانيوس؟ هل كان الدافع الوحيد هو تعلقه بالتقاليد، وحرصه على نزاهة المباريات ومستواها؟ قد يكون الجدل حول البليثرون مجرد ذريعة، أما في الواقع، فقد وضع الخطيب أهدافاً أخرى نصب عينيه؟ وأخيراً، هل أسفر نقده عن النتيجة المتوقعة، وهي إلغاء الوزير لمشروع توسيع البليثرون؟ هذا ما لا نعرفه. لكن المراسلات اللاحقة بين ليبانيوس والمسؤول الرفيع المستوى، تشهد على أن العلاقات بينهما خضعت لتحسن ملحوظ. والشيء المؤكد هو ان «عزيزنا بروكولوس» عفا بشهامة عن التهكم، الذي لم يبخل به عليه أستاذ البلاغة في حديثه عن البليثرون. لكن هذه الرسائل تعود بشكل أساسي لمرحلة ما بعد عام ٣٨٨ ، حيث كان المسؤول قد تولى منصب والي القسطنطينية، وأقام بعيداً عن أنطاكية.

أما عمله الأكثر تألقاً وبهاء، والذي ترك أعمق البصمات في ذاكرة الأجيال اللاحقة، فقد أنجزه في فترة ولايته تلك، وتحديداً عام ٣٩٠ ؛ وهذا ما سنعود للحديث عنه فيما بعد. والآن يجدر بنا ونحن نتابع استعراض أهم شخصيات الإمبراطورية في ذلك العام، أن نشير إلى شخص صديق بروكولوس، وإلى حد ما، الأرفع منه مقاماً. ونعني تحديداً والي مدينة روما، مهد الدولة وعاصمتها الأولى، وهو **سيوينوس ألبينوس**، الذي كان قد تولى هذا المنصب للعام الثاني على التوالي.

انتمى إلى أسرة أرستقراطية عريقة، وكان من ألمع الرومان وأوسعهم ثقافة في عصره. عَرَفَ بدقَّة الأدب اللاتيني القديم والمعاصر، وكان مولعاً بشكل خاص بنتاج **فرجيليوس**؛ حيث أُعجب أشد الإعجاب بألفاظه القديمة ومقاييسه الشعرية، وقد كرَّس بنفسه مقالة للأوزان الشعرية. كما أبدى اهتماماً بالقضايا الفلسفية؛ وأعدَّ على ما يبدو لمحات قصيرة عن قواعد المنطق، والهندسة، والموسيقا. ويُعتقد أنه قام بترجمة مقولات أرسطو إلى اللغة اللاتينية.

كان وثنياً وفياً لديانة آبائه، شأنه شأن غالبية أرستقراطيي ذلك العصر والنخبة المثقفة في روما بالذات. وعلى الأرجح لم يكن محض صدفة قيام شقيقه ـ المدعو **سيونيوس فولوزيانوس**، والذي كان في حينه حاكماً للمقاطعات الآسيوية الصغرى ـ في فترة ولايته بمراسم احتفالية في معبد الإله ميثرا في منطقة **الفاتيكان**، وتحديد يوم الثالث والعشرين من أيار عام ٣٩٠ ، حيث جدد بعد مرور عشرين عاماً، ما يمكن أن ندعوه معموديته وإطلاعه على أسرار ميثرا؛ وبالمناسبة بنى مذابح لهذا الإله ولكل من إيزيدا وأَتيس. وخلَّد كل هذا بنص ملائم.

وكما يُستنتج من بعض الإشارات غير المباشرة، عرف الوالي **ألبينوس** جيداً تعاليم المسيحية والإنجيل، لا بل قام بانتقادها، وخاصة ما يتعلق بعقيدة التجسد. وهذا ما حثَّ الأسقف أمبروزي للرد عليه بمقالة مستقلة، نعرفها اليوم بصيغة مختصرة. لكن زوجة هذا الوثني الصريح كانت مسيحية! وكذلك ابنتها ميلانيا. أما الإبن، الذي حمل اسم عمه، أي فولوزيانوس، فقد شاطر والده في معتقداته. هذه صورة جلية للانشقاق الديني في أحضان الأسرة الواحدة، الذي يتكرر بصيغ متباينة، دون أن يقتصر على تلك الحقبة وحدها.

سوف نستغل الفرصة لندرج هنا عدداً من الوقائع المتعلقة بمصير الأسرة اللاحق، وهي حقيقية وذات مغزى.

ألبـينا، وميلانيا، وفولوزيانوس:

قبل أن يحتل القوط الغربيون مدينة روما عام ٤١٠ م، غادرها كثيرون من الأثرياء، باحثين عن مأوى في بلدان بعيدة بقدر المستطاع ـ في صقلية أو إفريقيا. كان بين هؤلاء، الذين وصلوا إلى ذلك المكان، خلف البحر، **ألبـينا** التي أسلفنا ذكرها قبل قليل، وابنتها **ميلانيا** برفقة زوجها المدعو **بينيانوس**؛ وكان ثلاثتهم من المسيحين الغيورين.

سرعان ما أقاموا في إفريقيا علاقات حميمة مع **أوغسطين**، الذي كرَّس لهم بعد مرور فترة وجيزة مقالة لاهوتية عن «النعمة والخطيئة الأولية». ونظراً لتصرفهم بأموال طائلة، حصلوا عليها من بيع ممتلكاتهم في صقلية وإيطاليا وإفريقيا، تمكنوا من ممارسة الأعمال الخيرية على نطاق واسع. قامت ميلانيا بتأسيس أدِيرة في ثاغاستي، مسقط رأس أوغسطين. أما فولوزيانوس، فقد كان مقيماً في قرطاجنة. بذلت المرأتان جهوداً حثيثة لإقناع قريبهما المقرب ذاك ـ شقيق إحداهما وخال الثانية ـ بهجر عبادة «العفاريت» واعتناق ديانتهما.

ولكن دون جدوى، فقد تأصلت فيه آراء الأب بجذور عميقة. ولا نزال اليوم نملك بين أيدينا البرهان المباشر والقاطع على رسوخ قناعاته؛ ويتمثل في رسالة فولوزيانوس نفسه الموجهة إلى الأسقف أوغسطين. الرسالة ودية إلى أقصى حد، ومفعمة بمشاعر الاحترام العميق، وهي بلا ريب دليل على العلاقات الحسنة القائمة بين الأرستقراطي الروماني والمسؤول الكنسي. لكن محور الرسالة، وهو يزعم بأنه يستشهد فقط بآراء الآخرين، يعبر فيها عن شكوكه بعقلانية بعض العقائد المسيحية؛ ومن جديد يتمحور النقاش حول عقيدة التجسد، التي طعن فيها والد فولوزيانوس في حينه. الإله اللا متناهي في جسد العذراء؟ ومن ثم في جسد صبي خاضع لكافة قوانين الطبيعة؟ أجاب أوغسطين برسالة مطولة على هيئة مقالة. لكنه حتى هو، عملاق الفكر ومعلم الكلمة، عجز عن إقناع الشكوكي.

شعر فولوزيانوس بالنفور من الديانة الجديدة لأسباب أخرى أيضاً، جدية إن صحَّ القول. لم يدونها على الورق من منطلق الحيطة والحذر، لكن أحد الموظفين حرص على إطلاع الأسقف عليها. يمكن صياغة تحفظات الأرستقراطي الروماني باختصار على النحو التالي:

أولاً: تعاليم المسيح غير صالحة إطلاقاً في الحياة السياسية، حيث لا يجوز فيها إدارة الخد الآخر، وإنما الرد بالشر على الشر، وعلى نحو فوري؛ فكيف لنا أن نتصرف، إذا كان الهمج يدمرون وينهبون مقاطعاتنا؟

ثانياً: حلَّت أعظم المصائب بالإمبراطورية وإبَّان حكم الأباطرة المسيحيين تحديداً، الأباطرة، الذين حاولوا بلهفة تطبيق العقائد الكنسية.

آلمت هذه التهم، التي وجهتها جهات أخرى عديدة أيضاً، أوغسطين بشدة. بشدة دفعته للرد عليها عبر اثنين وعشرين فصلاً من مُؤَلَفِهِ عن «الدولة الإلهية». صاغ فيها بحدة ودقة لا تحتمل التأويل، موضوع وجود نظامين وسلَّمين لتدرج القيم. ولذلك فإن هذا العمل، وبكل ما يتميز به من أهمية في تاريخ الفكر الأوروبي، يعود الفضل في وجوده إلى حدٍ ما، لقناعات فولوزيانوس الوثنية، وهذه الأخيرة، تكونت تحت تأثير الأب، والي روما عام ٣٩٠ .

بعد بضعة أعوام، وصل الثلاثي: ألبينا، وميلانيا، وبينيانوس إلى فلسطين عبر مصر. وهناك استقروا في القدس، ووجدوا راعياً روحياً في شخص هيرونيم. وهناك أيضاً دفنت ميلانيا والدتها وزوجها. في عام ٤٣١ أسست ديراً على جبل الزيتون، حيث عاشت زاهدة، وهي تنسخ بيدها الكتاب المقدس، وتمارس أعمال الرحمة. غادرت فلسطين عام ٤٣٦ م إلى

القسطنطينية لفترة قصيرة. وهناك وبعد تلك الأعوام الطويلة، التقت بشقيق والدتها فولوزيانوس. جاء إلى العاصمة على مضيق البوسفور بمهمة سياسية هامة، كمبعوث للبلاط الغربي. وكان يعاني من مرض عضال. وفي هذه المرة استجاب لتوسلات وإقناع ابنة شقيقته. تقبَّل سرَّ المعمودية قبل ساعات قليلة من وفاته في كانون الثاني من عام ٤٣٧ . وغادرت ميلانيا العاصمة متجهة إلى أورشليم، حيث توفيت في اليوم الأخير من عام ٤٣٩ ؛ ولذلك فإن يوم الحادي والثلاثين من كانون الأول يحمل في التقاويم عيد اسمها.

وهكذا، فإن حفيدة والي روما في أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة، السيد الروماني ذو الشأن الكبير، الوثني والشكوكي، تلقت فيما بعد التكريم كقديسة. جليلة، لا بل رمزية لمجرى أحداث تلك الحقبة.

ميدان السباق في القسطنطينية:

لا ريب في أن ميلانيا طافت، أثناء زيارتها للعاصمة عام ٤٣٦ على شواطىء البوسفور، من بعيد وبشيء من الرعب بالمنشأة الهائلة والرائعة، القائمة في مركز المدينة بالذات، وعلى مقربة من القصر الإمبراطوري. لا بدَّ وأن هذا المبنى بدا للأرستقراطية التقية وكأنه مرتع لكل الشرور، وشرك نصبه الشيطان للإيقاع بذوي الأرواح الضعيفة، ومعبد الفسق الفاضح، من حيث تتعالى مرة بعد مرة صيحات الخطاة والمنبوذين. الحديث هنا بطبيعة الحال، عن ميدان السباق، «الهيبودروم» ـ وبالمصطلحات اللاتينية ـ السيرك.

كان بمعنى ما أقدم من القسطنطينية ذاتها. فهو يعود إلى مطلع القرن الثالث بعد الميلاد، حيث كانت المدينة آنذاك تدعى **بيزنطة**. ويعود الفضل إلى عطف الإمبراطور **سيفيروس** في تزويد المدينة بحمامات مؤثثة على نحو رائع، وكذلك بميدان للسباق؛ فبدون هذه المنشآت كان يتعذر على سكان أية مدينة كبرى في العهود الرومانية العيش بشكل طبيعي. وبعد مرور ما يقارب المئة عام، منح **قسطنطين** الكبير **بيزنطة** اسمه، وبدأ بإعمارها على نحو تستحق معه ذلك الشرف العظيم، فوسَّع بشكل جذري ميدان السباق أيضاً، وذلك وفق نموذج، وعلى شاكلة السيرك الكبير Circus Mqximus في العاصمة، التي على ضفاف التيبر. فأضحت أبعاده مذ ذاك الحين ما يقارب الأربعمئة متراً في الطول والمئة والعشرين متراً في العرض، واتسع مدرجهُ لما لا يقل عن مئة ألف متفرج في أربعين صفاً. كانت المقاعد في بداية الأمر خشبية، ثم استبدلت بمقاعد رخامية. ارتكز هيكل المبنى من الجانب الخارجي، أي من جهة المدينة، على أقواس حجرية ضخمة، مألوفة بالنسبة لنا من منشآت

رومانية أخرى مشابهة. كانت مقصورة الشرف بجوار الجدار الجنوبي، وهي تكاد تلامس القصر الإمبراطوري؛ حيث يجلس فيها عادة الحاكم، وأسرته، وكبار المسؤولين. ازدانت بمركبة الإله **هيليوس**، المشدودة إلى أربع جياد. كانت هذه المنحوتة البرونزية الرائعة، من إبداع **ليزيب** (مثّال البلاط لدى **الإسكندر** الكبير)، موجودة يوماً في رودس، ثم نُقِلَتْ من هناك إلى **خيوس** أو على الأرجح إلى **كورنثوس**، وأخيراً إلى روما، حيث استقرت في قصر **نيرون**؛ ومن هناك، نُقِلَتْ إلى القسطنطينية قبيل مجيء ميلانيا لزيارتها ببضعة أعوام فقط. أما تصورنا لجمالها وروعتها، فليس مستنداً إلى الوصف أو النماذج المقلدة فحسب، لأن أجزاءً منها صمدت حتى أيامنا، فالجياد الأربعة، لا تزال مثبتة حتى اليوم فوق المدخل المعمد لباسيليقا القديس **مرقس** في البندقية. لكن ميدان السباق ضمَّ بالإضافة إلى ذلك عدداً من الروائع الفنية المهيبة، تماثيل رخامية وبرونزية، جيء بها إلى هذا المكان من كافة أنحاء الإمبراطورية، من قبل قسطنطين الكبير وخلفائه. وهكذا، فقد وجد آلاف المتفرجين في فترات الاستراحة ما بين السباقات، ما هو جدير بأن يُرى ويمتع؛ كما تمكنوا من إبداء إعجابهم بالمشاهد المشرقة لدى الإطلال على المدينة أو البحر من ذروة تاج ميدان السباق. وقد اعتبر مكاناً أثرياً، لا بل مقدساً إلى حدٍ ما؛ ففي هذا المكان بالذات، وحول ميدان السباق، سار الموكب الاحتفالي المرتبط بمهرجانات عام ٣٣٠ ، عندما أقيم الاحتفال بعيد ميلاد قسطنطين رمزياً.

ما الذي تبقى من هذه المنشأة؟ ما الذي سيراه زائر اسطنبول اليوم؟

حتى القرن السادس عشر، وبعد استيلاء الأتراك على المدينة بما يقارب المئة عام، كانت لا تزال أجزاء ملحوظة من المنشأة قائمة هناك؛ لكنَّ أحد الرحالة يشير بشيء من الألم، إلى أنهم كانوا يقومون بتفكيكها لاستخدام الحجارة في البناء. وبذلك اختفى كل ما كان ظاهراً فوق سطح الأرض خلال فترة وجيزة. أما اعمال التنقيب الأركيولوجي في فترة لاحقة، فقد كشفت النقاب عن أجزاء من الأساسات. كما أن الساحة لا تزال موجودة، وقد احتفظت بأمانة بشكل الميدان القديم (مثلما ثبتت ساحة **بيازا نافونا** الشهيرة معالم سيرك **دوميتيان** في روما)، وتعرف اليوم باسم «آت ميداني» At Maidani. فهناك كان يتوجب أن يمر جميع ضيوف المدينة العظيمة، كل مَنْ يؤمها ولو لساعات معدودة، وإلى جوارها تنتصب شامخة حليتان من روائع الفن المعماري: كنيسة الحكمة المقدسة (وهي اليوم متحف) وإلى جانبها، في موقع قصر أباطرة روما ـ المسجد الأزرق. أما في الساحة ذاتها، وعلى امتداد خط الوسط ـ فلا تزال قائمة ثلاثة نصب تذكارية: مسلتان حجريتان،

وعمود برونزي بينهما. كانت يوماً تحدد مع أعمدة، وتماثيل، وأهرامات أخرى خط التنصيف الطولي للميدان؛ كان هذا بمثابة عموده الفقري.

للعمود البرونزي شكل غير مألوف، وتحديداً ثلاث أفاعٍ مجدولة. قُطِّعَتْ رؤوسها أو سقطت تلقائياً في العهود التركية، ويرجح أن يكون هذا قد تمَّ في القرن الثامن عشر؛ كانت تحمل يوماً ثلاثي قوائم يحمل بدوره زهرية ذهبية. وكان النصب بمجمله تقدمة شكر، ضحَّت به الدويلات الإغريقية للإله أبولو في دلفي بعد النصر، الذي أحرزته على الفرس عام ٤٧٩ ق. م؛ ولا تزال حتى اليوم أسماء الدويلات المضحية بارزة على الجدائل الأفعوانية. انتزعت منه الأجزاء الذهبية بعد مرور ما يقارب القرن ونصف القرن، وأعيد صهرها، بينما ظلَّ العمود قائماً في دلفي حتى أيام قسطنطين الكبير؛ وبناء على أوامره نُقِلَ إلى ميدان السباق في القسطنطينية، حيث نجده اليوم. وبما أن مستوى سطح الميدان ارتفع عبر القرون بما لا يقل عن المترين، يبدو العمود وكأنه ينمو من عمق ما؛ ويتجاوز ارتفاعه الخمسة أمتار بدءاً من القاعدة. ما أكثر الأحداث، التي شهدها! شهد انتفاضة حزبي السيرك في عهد الإمبراطور جستينيان عام ٥٢٣ ؛ قُتِلَ آنذاك ما يربو عن الأربعمئة ألف إنسان، وكانت قد انطلقت من هذا المكان، وَعُرِفَتْ باسم نيكا Nika. شهد فيما بعد الدمار، والنهب، والسلب الصليبي عام ١٢٠٤ م؛ والمشاهد المروعة التي عاشتها المدينة المنكوبة أيام الاحتلال التركي عام ١٤٥٣ م. وأخيراً، وفي عام ١٨٢٦ لطخ دم الإنكشاريين العمود، فقط طُوِّقَ وقتل ثلاثون ألفاً منهم هنا بالذات، في ساحة المضمار القديم.

تنتصب على جانبي العمود مسلتان، أي عمودان حجريان مرتفعان، رباعيا الوجوه، مستدقان في الأعلى. إحداهما أطول، يبلغ ارتفاعها اثنين وثلاثين متراً، وَتُعْرَفُ على نطاق واسع باسم «المبنية». وفي واقع الأمر، يمكن اكتشاف أنها مبنية فعلاً بيسر كبير، وذلك من كتل كلسية. لم يكن هذا الشيء ملحوظاً في الأيام الغابرة إذ كانت موشاة بأكملها بصفائح برونزية. لكن الصليبيين قاموا بتجريدها. تعود هذه المسلة إلى مرحلة متأخرة نسبياً، إذ شيدها في القرن العاشر الإمبراطور قسطنطين، الملقب بالسماقي Porphyrogenet. أما المسلة الثانية في الجانب الآخر، الأقرب إلى كنيسة الحكمة المقدسة، فيمكن أن تتباهى فعلاً بتاريخها المهيب. الحقيقة أن ارتفاعها لا يتجاوز العشرين متراً بدون القاعدة، لكنها منحوتة من كتلة واحدة من الحجر السمَّاقي. وقام بهذا العمل معلّمو فن نحت الحجارة في مصر، في عهد الفرعون تحوتمس الثالث، في القرن الرابع عشر

قبل الميلاد؛ ولا يزال اسمه بارزاً حتى اليوم ومنقوشاً بالرموز الهيروغليفية على جدران هذا المنليث(*). انتصبت المسلة طويلاً في معبد الإله **أمون** في **طيبة** المصرية، حيث **الكرنك** اليوم. فَمَنْ جاء به من ذلك المكان البعيد، من وراء البحار ومتى؟.

نجد الإجابة على قاعدة المسلَّة الرخامية الضخمة؛ وهذه أُنجزت محلياً في القسطنطينية بطبيعة الحال. وهي رباعية الوجوه، ويبلغ ارتفاعها ستة أمتار. تُبّتَتْ المسلَّة على أربع كرات برونزية، ألقيت في القاعدة تحت كلٍ من زوايا المسلّة. أما الوجوه الأربع للقاعدة، فقد مُلِئَتْ بالمنحوتات النافرة ذات المواضيع المثيرة. نشاهد هناك أعمال نقل وتثبيت المسلة بواسطة الحبال، والروافع، والمساند (قد يكون هذا الرسم التصويري الروماني المحفوظ الوحيد في الآثار الفنية) إضافةً إلى سباق المركبات والفرسان في الميدان؛ كذلك يُرى الإمبراطور وأبناؤه وحاشيته، وهم يشاهدون المباريات من المقصورة الإمبراطورية بينما يظهر الرسل الأجانب أمام الإمبراطور وابنه وسط الجنود المرتزقة ـ القوط. تتميز هذه المنحوتات النافرة أيضاً باسلوب جديد ووضعيات جديدة. إذ تظهر جميع الهيئات جبهياً في بعض المشاهد؛ تقف جبهياً في أنساق متساوية متراصة، وتبدو رؤوسها ضخمة بالمقارنة مع الأجسام. تحمل هذه التفاصيل وغيرها تباشير واضحة لبعض سمات الفن البيزنطي المقبل.

ازدانت روما القديمة، تلك، التي على ضفاف **التيبر**، بالمسلَّات المصرية منذ أيام القيصر **أغسطس**. حذا حذوه الكثيرون من خلفائه حتى أيام **كونستانتسيوس الثاني**، الذي أصدر أوامره عام ٣٥٧ بنقل أكبر النصب المنليثية من ذلك النمط، من بلاد النيل رغبة منه في تخليد ذكرى إقامته القصيرة في المدينة الخالدة، ولا تزال هذه المسلَّة منتصبة حتى اليوم أمام الكنيسة **اللاتيرانية**. وهكذا، فإن تزيين ميدان السباق في القسطنطينية بمنليث من الحجر السمّاقي مستقدم من مصر، هو بمثابة استمرارية واعية ومنطقية للرموز القديمة؛ وذلك بهدف أساسي، هو أن تصبح روما الجديدة، تلك، التي على شواطىء البوسفور، مساوية في كل شيء للعاصمة الأولى! كما أُدخل هنا تجديد جدير بالاهتمام؛ تلخص في نقش منحوتات نافرة على قاعدة المسلَّة. لأننا في روما القديمة، التي يمكن أن تفخر بكل ذلك العدد من النصب التذكارية المماثلة، لا نصادف هذه الظاهرة في أي مكان. فهنا فقط توجد نصوص تخبر الأجيال القادمة: في عهد مَنْ وبمبادرة مَنْ جيء من البلاد البعيدة بمثل هذا النصب الرائع وَثُبِّتَ في هذا المكان. وجب إذن أن يظهر على قاعدة المسلَّة في

(*) المنليث : هو حجر ضخم مفرد يكون على هيئة عمود أو مسلّة

القسطنطينية نص إلى جانب المنحوتات النافرة؛ لأن التعبير التصويري، بالرغم من جاذبيته وإثارته للاهتمام كلوحة فنية، عاجز عن أن ينقل للأجيال اسم الحاكم، الذي أنجز مثل هذا العمل العظيم! ولذلك فقد نُقِشَتْ إلى جانب المنحوتات، الرموز الكتابية الملائمة. نجد هنا نصَّين، وهما مقفَّيان، أي أنهما يتخذان طابع الشعر، وموضوعهما واحد في الأساس، بالرغم من وجود بعض الفوارق الأسلوبية بينهما. والأمر، الذي تجدر الإشارة إليه هنا، هو تدوين النصوص بلغتين، اللاتينية والإغريقية! لأن في ذلك برهان على أن عاصمة الدولة، التي كانت لا تزال رومانية، وبقيت اللاتينية لغتها الرسمية، أضحت في الواقع تستخدم لغتين. ويحق لنا أن نشتبه، أنه في الحياة اليومية للسكان، تفوقت الإغريقية على لغة الغرب.

يقول النص الإغريقي:

> «الإمبراطور ثيودوسيوس، هو وحده مَنْ تجرأ على رفع هذا العمود الرباعي الوجوه، الملقى على الأرض منذ قرون. كلَّف بروكولوس بالمهمة، وهكذا نُصِّبَ العمود خلال اثنين وعشرين يوماً»(٢٦).

يقصد هنا بطبيعة الحال الأعمال المنجزة في القسطنطينية وحدها، لأن فترة النقل لم تحتسب. ولنضف الآن تفصيلاً آخر، قد يبدو ضئيل الشأن ظاهرياً، ألا وهو أن اسم **بروكولوس** تعرض للمحو بعد نقشه مباشرة، ثم نقش مرة أخرى من جديد.

ما هو سبب هذه التغيرات؟ سنعود فيما بعد لبحث هذا الموضوع، الذي يخفي في ثناياه مأساة إنسانية وتاريخية كبرى.

تخبرنا إشارة أحد المؤرخين إلى اكتشاف هذه المسلَّة يوم تولى منصبا القنصلين فالينتينيان للمرة الرابعة ونيوتيريوس؛ أي كما نعلم، في العام ٣٩٠ .

تزيين «الهيبودروم» بالمسَّلة وإبراز ثيودوسيوس يشاهد السباقات على منحوتات قاعدته برفقة أسرته، هي حقائق تؤكد تماماً الرأي المطروح منذ البداية والذي يقول: على الرغم من أن المهرجانات الأولمبية انقضت في عهد ذلك الحاكم، فإنه لم يكن شخصياً معارضاً لها، لا بل ربما كان مولعاً بها على قدم المساواة مع معظم رعاياه. ولذلك لا يدهشنا أنه جلس في مقصورة ميدان السباق في ميلانو صباح اليوم، الذي كان له أن يفارق فيه الحياة.

انتقد الأسقف أمبروزي في إيطاليا الشمالية بصورة غير مباشرة مباهج المهرجانات؛ فقد أثنى على فالينتينيان، الذي توفي في أوج شبابه، لأنه تحاشى السيرك، ولم يقم المهرجانات لأي سبب كان، حتى في أيام ميلاد الأباطرة، كما أن القسطنطينية أيضاً لم تفتقر إلى كهنة مسيحيين ممن أدانوا بشدة كل ما ارتبط السيرك، والمسرح. فاللاهوتي الفذ والمتقد

الحماس، **غريغوري النزينزي**، المتميز كخطيب متزمت، ناشد الناس في مواعظه، التي ألقاها في الكنائس قبل عشرة سنوات من نصب المسلّة هناك، قائلاً:

> «يا مواطني المدينة العظيمة! أنتم المصنفون بعد المدينة الأولى مباشرة، وترفضون في واقع الأمر الإقرار لها بهذه المكانة! واجبكم هو أن تعيشوا حياة تثبتون فيها أنكم الأوائل بمزاياكم، وليس برذائلكم؛ بالتزامكم بالقوانين، وليس بالانحلال. فمن العار أن تطمعوا في حكم المدن الأخرى، وتخضعوا بأنفسكم لشهوة المتع؛ وأن ترغبوا في الظهور بمظهر المجتمع الرزين والوقور، وتصابوا بمس من الجنون بسبب السباقات، والعروض المسرحية، والصيد»[٢٧].

ترددت أصداء هذه الكلمات ومثيلاتها في الكنائس المكتظة بالمصلين، وتقبلها المجتمعون بإتضاع وتركيز؛ «لكنها كانت صوتاً ينادي في البرية»، بلغت آذان المستمعين، وليس قلوبهم؛ إن كانوا من بسطاء السكان، من التجار والحرفيين، أم الحاكم المسيحي نفسه.

إلى أي حد أُمكِنَ لغضب وتعصب المولعين بسباقات السيرك أن يستعر؟

قد تعكسه على أكمل وجه، الأحداث التي جرت في عام ٣٩٠ ذاك، وفي مكان لم يبعد كثيراً عن القسطنطينية، وتحديداً في **تسالونيكي**.

أسوار وكنائس تسالونيكي:

ارتبطت القسطنطينية بمدينة تسالونيكي بطريق عرفها الرومان «عبر إيجة» Via Egnatia. امتدت على طول ساحل **بروبونتيدا** وبحر **إيجة**. وذلك بدقة تكاد أن تكون متطابقة تماماً مع الطريق العامة «الأوتوستراد» المارة حالياً من **أسطنبول إلى سالونيك**. ثم كانت تعبر جبال **مقدونيا** لتبلغ سواحل **الأدرياتيك**، إلى ديراخيوم بأحد فرعيها، وإلى **أبولونيا** بفرعها الآخر؛ كانت كلتا هاتين المدينتين واقعتين في أراضي ألبانيا الحالية. وقد تمت المباشرة بشق هذه الطريق ذات الأهمية البالغة على الصعيدين العسكري والتجاري منذ القرن الثاني قبل الميلاد على يد الرومان أي في العهد الجمهوري.

يعود الفضل في أهمية وازدهار تسالونيكي إلى أمرين: أولهما، الطريق الموما إليها، والثاني، المرفأ البحري الحسن الإعداد. تأسست المدينة في الحقيقة على يد الحاكم المقدوني **كاساندر** عام ٣١٥ ق. م. وسميت تيمناً باسم زوجته (شقيقة الإسكندر الكبير)، وقد بلغت ذروة ازدهارها في العهد الروماني. كانت لفترة طويلة العاصمة الفعلية لمقاطعة **مقدونيا**؛ وفي

الحقبة الإمبراطورية المتأخرة، ظلَّت أهميتها تتعاظم باستمرار. أقام فيها الإمبراطور **غاليريوس** في أواخر القرن الثالث، ومطلع القرن الرابع. ولا يزال قوس نصره، ذكرى الانتصار الذي حققه على الفرس عام ٣٠٣ قائماً حتى اليوم، مزخرفاً بمنحوتات نافرة مثيرة للاهتمام. كما يرجح أن يكون ضريحه قد صمد أيضاً، حيث تمَّ تحويله في القرون اللاحقة إلى كنيسة القديس جرجس الدائرية. أما شفيع المدينة المسيحي، القديس **ديمتريوس**، فقد استشهد في عهد **غاليريوس** ذاك نفسه؛ ولا يستبعد أن تكون الباسيليقا الحالية المكرسة لذكراه، مشيدة في موقع حمامات تسالونيكي القديمة. وهي على أي حال في شكلها ومظهرها الحاليين، أحدث بكثير. نعني بادىء الأمر، كان هناك حرم صغير متواضع، وقد خضعت الكنيسة الفسيحة، التي شُيدت في القرن الخامس، بضع مرات لأعمال الترميم والتجديد بعد الحرائق وأعمال التدمير؛ وبالرغم من ذلك، فهي تحتوي في تصميمها الداخلي وفرة من التحف الفنية الرائعة، التي أضفت عليها القرون مسحة من الهيبة والإجلال.

تحتل تسالونيكي من وجهة نظر وفرة وجمال الأوابد الأثرية لفن العمارة، وعلى نحو خاص الكنائس، المرتبة الثانية ـ على الأرجح ـ بعد القسطنطينية. لا يفسر الأمر بثراء وعظمة المدينة، التي نافست عاصمة الدولة البيزنطية فعلاً في بعض المراحل، وإنما بعراقة وقدم التقاليد المسيحية المحلية . فقد وضع حجر الأساس فيها القديس **بولس** بنفسه، حيث ألقى مواعظ في الكنيس المحلي في ثلاثة أيام سبت متتالية؛ وقام بهداية جموع غفيرة من المستمعين؛ ثم وجه إلى الجماعة الحديثة العهد ـ إحدى أولى الجماعات المسيحية في أوروبا! ـ رسالتين، وهي وثائق هامة في تاريخ الكنيسة الفتية.

عندما اهتزت أركان السلطة الرومانية، وتقلصت في أواسط القرن الرابع في المقاطعات الواقعة على نهر الدانوب ـ حدث هذا بشكل أساسي بسبب الهزيمة النكراء، التي تعرض لها الرومان قرب أدريانوبول في المعركة، التي خاضوها ضد القوط عام ٣٧٨ ـ لم تتراجع تسالونيكي إطلاقاً. وإنما العكس، إذ بكونها المقر الرئيس للمكاتب المدنية العليا ولقيادات الجيش في مقاطعات البلقان، أي في إيليريكوم، أضحت أكثر أهمية وذات كثافة سكانية أكبر. كما أنها حُصِّنَتْ على نحو أفضل ـ بطبيعة الحال، خشية غزو همجي مفاجىء. ولا تزال بعض الأجزاء من الأسوار الدفاعية الضخمة صامدة حتى اليوم، وهي بلا ريب تعود إلى أيام الإمبراطور ثيودوسيوس؛ حيث ارتبطت بهذه المدينة بالذات مرحلة هامة وذات شأن تاريخي كبير من حياته.

بما أن الإمبراطور **غراتسيان** اتخذ من الغرب مقراً دائماً له، رفع ثيودوسيوس لمرتبة الحاكم

الشريك في مطلع ٣٧٩ . فانطلق زعيم الشطر الشرقي من الإمبراطورية في الحال إلى ساح القتال ضد القوط والهون والآلان، ليقوم ولو جزئياً بتعديل كارثة أدريانوبول ونتائجها؛ واختار تسالونيكي بالذات قاعدة رئيسة لعملياته الموفقة على وجه العموم، ولذلك فإنه غالباً ما أقام داخل أسوارها خلال عامي ٣٧٩ و٣٨٠ . وهنا أيضاً أقعده المرض في الأسابيع الأخيرة من عام ٣٨٠ ، وتقبل سرَّ المعمودية على يد أسخوليوس، أسقف تسالونيكي، وهو يستعد لمواجهة الموت. ولا ريب أنه تحت تأثير ذلك الأسقف، أصدر في اليوم الثامن والعشرين من شباط مرسوماً، متفقاً عليه بطبيعة الحال مع الحاكمين الشريكين، غراتسيان وفالينتينيان الثاني (الصبي ذو الأعوام التسعة آنذاك!) ومُوَقَّعاً من قبلهما. وهو وثيقة لا تقدر بثمن. في هذا المرسوم يأمر الإمبراطور جميع الشعوب «التي تحكمها وداعتنا» أن تعيش وفق قانون الإيمان، الذي بشر به القديس بطرس، والذي يرسخ الآن دعائمه البابا دامازي في روما، والأسقف بطرس في الإسكندرية، أي «الإيمان بالألوهية المتماثلة للأب، والإبن، والروح القدس، وبالثالوث المقدس». يعتبر الملتزمون بالمرسوم مسيحيين كاثوليك، أما الآخرون جميعاً، فهم مجانين وحمقى، مثقلين بخزي الآراء الهرطقية، ولا يجوز أن توسَمَ أمكنة تَجَمُّعهم بالكنائس. جاء هذا المرسوم بمثابة نصر تام للأرثوذكسية، مثلما صيغت في مجمع نيقيا عام ٣٢٥ وكما فُهمت في روما والإسكندرية. ولكن أتباع آريوس تمتعوا بنفوذ مماثل أو ربما أكبر في الكثير من الأوساط، بما في ذلك القسطنطينية، وقد رسَّخ هذا النفوذ الدعمُ، الذي قدمه لهم خلال العقود المنصرمة الأباطرة المتعاطفون معهم. ولكن منذ هذه اللحظة، منذ أن صدر مرسوم تسالونيكي عام ٣٨٠ ، يبدأ في الإمبراطورية النصر المبين لأنصار القانون المعلن في نيقيا. والشيء المهم الآخر في هذا المرسوم، هو التصديق الرسمي من قبل السلطة المدنية على مصطلح «كاثوليك» ـ الذي بقي قائماً حتى اليوم(*).

غادر ثيودوسيوس تسالونيكي في تشرين الثاني من عام ٣٨٠ ، ليدخل القسطنطينية كمنتصر. ومنذ ذلك الحين اتخذ من العاصمة، التي على شواطىء البوسفور، مقراً دائماً له لبضعة أعوام، مع بعض الانقطاعات القصيرة عن الإقامة فيها. بقي هناك طيلة الشتاء، وكذلك الربيع التالي، لكنه في الصيف انتقل إلى إيطاليا. ومن عام ٣٨٨ حتى ربيع ٣٩٠ أصبحت كل من أكويليا، ميلانو، روما، ومرة أخرى ميلانو ـ المقرات الرئيسة لإقامة حاشية الإمبراطور.

(*) للمزيد من الاطلاع على هذا الموضوع يمكن متابعة ذلك في كتاب (أصداء الزمن ، صراعات الكنيسة.....) الذي سبق وترجمناه وصدر عن دار الحصاد دمشق ١٩٩٥ . المترجم

جرت أحداث تسالونيكي في ربيع عام ٣٩٠ بالذات؛ وقد ترك تأثيرها بصمات واضحة على السياسة الداخلية لثيودوسيوس. يمكن القول بشكل تصويري، أن هذه الأحداث بدأت في «هيبودروم» تسالونيكي، وكانت نهايتها المرئية في كاتدرائية ميلانو؛ أما الموجة التي أثارتها، فقد عصفت بملاعب أولمبيا أيضاً.

ميدان السباق في تسالونيكي:

بما أن شكل «هيبودروم» القسطنطينية ظلَّ محفوظاً بأمانة، وبما أن ثلاثة من المعالم، التي حددت في حينه خط انتصافه صمدت أمام عوامل الزمن، لذا نجد أمامنا سؤالاً يطرح نفسه بشكل طبيعي، ألا وهو: ما الذي تبقى من المنشأة المماثلة في تسالونيكي، والتي بلا ريب لم تكن تقل هيبة وجلالاً عن منشأة القسطنطينية؟ تبدو القضية هنا مختلفة ظاهرياً، وقد يبدو أن الإجابة على السؤال المطروح صعبة، لأن موقع ميدان السباق القديم، تغطيه الآن كلياً المباني السكنية وتتقاطع فيه الشوارع، ولكن بالرغم من ذلك، إذا قمنا بجمع وتحليل مختلف المعطيات بدقة، يمكن أن نقول الكثير عن الوضعية، التي اتخذها المضمار (الميدان) آنذاك، وعن أبعاده، وموقع أهم أقسامه.

لم يُهدَّم ذلك المبنى العملاق يوماً على نحو مبرمج وعنيف. ظلَّ قائماً، ومال للخراب ببطء، ثم تناثر إلى أنقاض عبر قرون عديدة. نعرف من ملحوظة عرضية وردت في أحد المؤلفات البيزنطية، أن تجمعات السكان قامت في هذا المكان حتى القرن الثاني عشر، كما أن بقايا ميدان السباق ظلَّت واضحة المعالم حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ولذلك فإن الإشارات الواردة في تقارير الرحالة من ذلك العصر، تزودنا بالكثير من المعطيات القيّمة. فهي تسمح قبل أي شيء بالقول: أن «الهيبودروم» امتد ليشمل المناطق الواقعة على مقربة من قوس نصر الإمبراطور غاليريوس؛ وقد أشرنا إلى هذا النصب التذكاري من قبل. امتد محور الميدان جنوباً، بينما ارتفع قوس نصر غاليريوس قرب المنعطف الشمالي. لقد شاهد، الذين زاروا المدينة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، ساحة فسيحة عكست بلا ريب شكل الميدان، وكانت مزروعة بالأشجار. وفي أيام الاحتلال التركي، كان حياً لطيفاً مأهولاً بالسكان الإغريق. وظلَّت بعض القناطر قائمة هنا وهناك حتى القرن التاسع عشر، حيث حملت يوماً مقاعد المدرج. وبين الأنقاض عشعشت حوانيت الصباغين بشكل أساسي. كما أن ذكرى إقامة المهرجانات في ذلك المكان، ظلَّت محفوظة في ذاكرة

الأجيال عبر مئات السنين. وبقي كذلك اسم تلك المنطقة المشتق من التسمية القديمة: برودرومي، وهو تشويه بطبيعة الحال للفظة «هيبودروم».

يُبرز المخطط العسكري الدقيق، الذي أنجزه الإنجليز أيام الحرب العالمية الأولى، سلسلة من البنى القديمة. أما المراقبة الدقيقة وأعمال التنقيب الجزئية في فترة ما بين الحربين، فقد سمحت بإثبات وتأكيد أن سقوف أقبية العديد من المنازل في تلك المنطقة، ليست سوى أجزاء من الإنشاءات، التي حملت يوماً مقاعد المدرج؛ كما ظلَّت محفوظة هنا وهناك مقاعد حجرية. وأشار نمط البناء إلى أن القسم الأكبر من المنشأة، قد شُيِّدَ في عهد **غاليريوس**، أي في أواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع. وهذا أمر مفهوم تماماً، لأن هذا الإمبراطور اتخذ من **تسالونيكي** مقراً رئيسياً لنفسه، ووجب عليه أن يعتني بجمالها. وأخيراً، تم العثور في بعض الأمكنة على طبقة سميكة من الحصى، الذي غطى المجرى، وهذا ما سمح بتتبع خط سيره. لكن شكل المنطقة تعرض لتغيرات جذرية بعد الحرب العالمية الثانية؛ فقد شُيِّدَتْ هناك دور سكنية ضخمة متعددة الأدوار، وهذا ما ألغى مرة وإلى الأبد احتمال القيام بأعمال تنقيب منتظمة. ولحسن الحظ فإن حفر الأساسات العميقة بحد ذاته أسفر عن بعض الاكتشافات؛ استخرجت من باطن الأرض بعض الكتل الحجرية وأجزاء من الزخرف. وكل هذا ـ المعلومات المدونة في القرون السابقة، والمخططات، والآثار المادية ـ يقودنا إلى النتائج التالية:

بلغ عرض الميدان ذاته، بدون المدرج، ما يقارب الأربعة وثمانين متراً، ومجمله مع المدرج من الجانبين، ما يقارب المئة وخمسة وعشرين متراً؛ يتجاوز طول المجرى الأربعمئة متراً، ومع المدرج أربعمئة وخمسة وعشرين متراً. وهذه الأبعاد قريبة جداً من أبعاد المنشأة المماثلة في القسطنطينية، وكذلك منشأتان في إسبانيا تعودان للعهود الإمبراطورية، وكما أشرنا من قبل كان للميدان انحناء في جهة الشمال، أي قريباً من قوس نصر **غاليريوس**؛ أما ما يدعى Carceres، أي أمكنة ومواقف انطلاق مركبات السباق، فقد أغلقت بجدار مستقيم من جهة الجنوب. بُنيت المقصورة الإمبراطورية بجانب الكتلة الغربية من «الهيبودروم»، بجوار القصر؛ وكان الهدف من ذلك ضمان مرور الإمبراطور بأمان من أجنحته في القصر إلى المدرج. كان الوضع في القسطنطينية شبيهاً تماماً بهذا؛ والفارق الوحيد، هو أن القصر والمقصورة في **القسطنطينية**، كانا في الجانب الشرقي[٢٨]. هكذا كان مسرح أحداث عام ٣٩٠.

القائد والساقي:

تولى قيادة جيوش مقاطعات البلقان عام ٣٩٠ رجل يدعى **بوتيريخ**. يشير اسمه بوضوح إلى أنه انحدر من أصول جرمانية، شأنه شأن غالبية الضباط والجنود في الجيش الروماني آنذاك. تكفي الإشارة إلى أن القائد العام لجيوش الشرق، بجانب **ثيودوسيوس**، وكذلك القائد العام لجيوش الغرب، بجانب **فالينتينيان** الفتي، انتميا كلاهما إلى الشعب الفرنكوني. كان الأول يدعى **ريخوميرس**، والثاني **أربوغاستس**؛ وقد ربطتهما صلة قرابة دم وثيقة. قدَّما خدمات جليلة للإمبراطورية بخدمتهما لها بإخلاص حتى ضد بني جلدتهما. وعلى أي حال، لا يجوز تصورهما كمرتزقة بدائيين، وبرابرة نصف همجيين؛ فمن المعروف أنهما أقاما علاقات وثيقة مع الأوساط الثقافية المعاصرة لهما، حيث أثنت عليهما هذه الأوساط (بنزاهة!) نظراً لشجاعتهما، وطاقاتهما، واستقامتهما. وتجدر الإشارة إلى أنهما كانا من الوثنيين المتقدي الحماس، وعلى نحو خاص **أربوغاستس**، وعلى الرغم من ذلك، ظلَّت علاقاته مع الأسقف **أمبروزي** حسنة.

ولكن لنعد الآن إلى **بوتيريخ**. كان في عداد القائمين على خدمته الشخصية فتى وسيماً، يقدم الخمرة على مائدته. وكان لهذه الوظيفة المسؤولة والمستحبة تقاليدها الخاصة في العالم القديم. ما هي؟ أعتقد أن ما يبرزها على أفضل وجه هو تلك الفكاهة التي تعود إلى أيام ازدهار الهلنستية الكلاسيكية. ما سنستعرضه الآن حدث في القرن الخامس قبل الميلاد، وتحديداً في العام ٤٤٠ ق. م، أي بما يقارب الثمانمئة وثلاثين عاماً قبل مغامرة ساقي بوتيريخ! وبالرغم من ذلك، فإن الموضوع جدير بأن يُذَكَّرَبه هنا في هذه المناسبة، ولو لمجرد المقارنة، ولإدراك الشيء، الذي كان يربط، ويفصل بين حقبتين ثقافيتين بعيدتين عن بعضهما كل هذا البعد، واللتين، أُطْلِقَتْ عليهما تسمية مشتركة هي: العالم القديم. والرواية، التي سنقوم بسردها، هي مقطع من مذكرات الشاعر **أيون** من جزيرة **خيوس**؛ أما البطل الرئيس فهو غني عن التعريف.

> «التقيت الشاعر **سوفوكلس** في جزيرة **خيوس**. أبحر على **ليسبوس**، كقائد لمجموعة من السفن. وقد أحب الفكاهة والمزاح لدى الجلوس إلى مائدة الخمر. استضافه **هيرميسيالوس**، صديقه الشخصي، وراعي المصالح الأثينية في الجزيرة. وقف بجوار النار مباشرة فتى يقدم الخمر. تورد وجهه على نحو جميل. فسأله سوفوكلس:

ـ أتريدني أن أتمتع بالشراب؟

ـ بالطبع يا سيدي ـ أجاب الفتى.

ـ عليك إذن أن تقدم لي الكوب ببطء شديد، وتأخذه ببطء شديد أيضاً!.

احمرَّ وجه الصبي على نحو جميل، ولما لاحظ **سوفوكلس** ذلك، التفت إلى جاره قائلاً:

ـ كم كان مصيباً الشاعر **فرينيخ** في قوله: «يتألق وميض الحب على الوجه الأرجوانية!».

تناهت هذه الكلمات إلى سمع المعلم **إيرترايوس،** فتدخل على الفور بملاحظة:

ـ معرفتك بالشعر **يا سوفوكلس،** مرهفة لكن **فرينيخ،** لم يحسن القول، بأن جمال الوجه أرجواني. فلنتصور فقط: أن رساماً لوَّن وجه هذا الفتى بالأحمر. فبكل تأكيد لن يبدو جميلاً. ولذلك يجب أن لا يقارن الجمال بما ليس جميلاً!.

ضحك **سوفوكلس** وقال:

ـ أيعني هذا، يا صديقي، أنه لا يعجبك أيضاً بيت شعر **سيمونيدس،** ذاك، الذي يثني عليه جميع الهلنستنيين:

«انطلقت الكلمات من فم الفتاة الأرجواني»؟.

ولا ريب في أنك تلوم أيضاً، ذلك الشاعر، الذي نعت **أبولو** بالذهبي الشعر. فلو أن رساماً منح هذا الإله شعراً ذهبياً، لما بدت اللوحة جميلة في الواقع. كما استخدم غيره عبارة «الفجر الوردي الأصابع». ولكن لو لُوِّنَتْ أصابع امرأة بلون وردي، لأضحت يدا صباغة فقط، وليس فتاة جميلة!.

قهقه الجميع بأصوات عالية، والتزم ايرترايوس، المؤنب على هذا النحو، الصمت في الحال. التفت سوفوكلس إلى الفتى من جديد. لاحظ أنه يزيل بإصبعه الصغير شائبة من السائل، الذي في الكوب. فسأل:

ـ أترى هذه الشائبة جيداً؟.

ـ أجل، أراها.

- انفخها إذن، ولا تبلل إصبعك!

- أطاع الفتى بأدب وانحنى فوق الكوب؛ فبدأ سوفوكلس برفعه نحو فمه. وهكذا اقترب رأساهما من بعضهما. ولما كادا أن يتلامسا، أمسك الشاعر بيد الفتى بغتة، وجذبه نحوه بقوة وقَبَّلَه. فصفق الجالسون معبرين عن فرحهم:

- لقد خدعته!

فأجاب سوفوكلس:

- ما العمل، يا أعزائي، بهذا الشكل أتدرب على الفنون الإستراتيجية، لأن **بيريكليس** يصر دوماً، على أنني كشاعر لست رديئاً، لكنني كقائد لا أصلح لشيء. ألم أنجح في هذه الخدعة الحربية؟»(٢٩).

هكذا كان يلهو القائد سوفوكلس أثناء الحملة العسكرية، وهكذا عولجت آنذاك مثل هذه الأمور بخفة، ومرح، وحرية. ولكن بعد ما يقرب من تسعة قرون، في أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة، ما كان لأحد أن يسمح لنفسه بفكاهة كهذه؛ وخاصة أمام شهود. ما كان لأحد إطلاقاً أن يفعل هذا - شاعراً كان أم قائداً.

في ربيع عام ٣٩٠ صدر مرسوم **ثيودوسيوس** (الموقع بطبيعة الحال من **فالينتينيان** الشاب أيضاً؛ كان **غراتسيان** قد توفي قبل سبعة أعوام)، القاضي بفرض عقوبات صارمة، بالنار والسيف فعلاً، على كافة أشكال الجرائم الجنسية «غير الطبيعية»(٣٠). تبدو نبرة الفقرة المحفوظة منه حادة وصارمة بصورة استثنائية، حتى بالمقارنة مع نظام العقوبات الوحشي آنذاك، وألوان التعذيب، والضغوط. الوثيقة الموجهة إلى مسؤول رفيع المقام في العاصمة ذاتها، مستهلة بكلمات مفعمة ببلاغة غريبة:

«يتعذر علينا تحمل رؤية مدينة روما، أُمُّ جميع الفضائل، غارقة في خُزْيٍ وعارٍ وباء تأنث الرجال؛ وإضعاف القوة الصارمة السائدة هنا منذ التأسيس، عبر تشتيت طاقة الشعب. ولذلك تقرر: الأفراد الذكور، الذين يلعبون في العلاقات الجنسية الشاذة دور النساء، يجب أن يُلقى القبض عليهم، ويُجروا من تلك المواخير، ويحرقوا أحياء - وذلك علناً، وعلى مرأى من الشعب، ليصبحوا عبرة! وليفهم الجميع أن محراب روح الرجل، يجب أن يكون مقدساً لدى كل فرد، وأن كل من فَقَدَ جنسه، ويحاول انتحال جنس آخر، يعرض نفسه للعقوبة القصوى».

ولا ريب في أن العقوبات، التي انتظرت الجانب الآخر، الفاعل، لم تقل عنها صرامة.

أصبح ساقي **بوتيريخ** آنذاك معشوق سائق مركبات السيرك، الذي حظي بشعبية واسعة في **تسالونيكي**. زَجَّ القائد بالرجل **المغوي** في الزنزانة؛ ويفترض أنه قام بذلك التزاماً منه بما نصَّ عليه المرسوم المذكور. تلتزم المصادر، التي بين أيدينا الصمت إزاء مصير الفتى والسجين. ربما اتخذت القضية في الحقيقة مجرى مختلفاً؟ ربما لم يكن منطلق تصرف بوتيريخ طاعة الإمبراطور ومرسومه، والدفاع عن الأخلاق المهددة على حد زعمه، وإنما الغيرة على الصبي، الذي اعتبره ملْكاً شخصياً له وحده؟ وهذا ما يمكن أن يفسر تماماً العناد المتحجر، الذي واجه به توسلات السكان الملحاحة لإطلاق سراح السجين. كانت قد اقتربت مواعيد مهرجانات محلية هامة، واعتقد الجميع أنه في غياب ذلك السائق المتميز، الحلية الحقيقية لميادين السباق، ستكون المباريات فاشلة تماماً.

لا بد وأن عوامل أخرى، غير عرضية كهذه، أججت مشاعر العداء لدى سكان تسالونيكي تجاه بوتيريخ. وقبل أي شيء آخر، انحدار هذا القائد والقسم الأكبر من جنوده، من أصول غريبة، إضافة إلى تصرفاتهم في المدينة: الغطرسة، الثقة الزائدة بالنفس، وكأنهم في بلد محتل. احتلوا أفضل المساكن، وضربوا خيامهم داخل الأسوار، وقاموا بأعمال النهب. وهكذا تراكمت وضخمت بعضها البعض، عواطف حزبي السيرك،والتناقضات العرقية والدينية، وكذلك النزاعات الدائمة بين الجيش والسكان المدنيين؛ نزاعات طفيفة، لكنها مزعجة. وأمام عناد وعدم تنازل القائد، حدثت الاضطرابات. يبدوأن بوتيريخ أهملها، وظهر في مكان من المدينة دون حماية كافية؛ فهاجمه الجمهور ورجمه برفقة عدد من المسؤولين.

كان **ثيودوسيوس** مقيماً في إيطاليا آنذاك، كما أسلفنا. ومن هناك، وفي ثورة الغضب الأولى (وربما بسبب الخوف من غضب الجنود) أصدر أمراً سرياً للوحدات المعسكرة في تسالونيكي، نفذَّه الجنودبلهفة ودقة. فلما ازدحم الميدان بالمتفرجين، للابتهاج بسباق المركبات، حاصرت مجموعة قوية من الجنود المبني بأكمله. وخلال سبع ساعات قتلوا **سبعة آلاف**، وتقول بعض المصادر **خمسة عشر ألفاً**، معظمهم من الرجال. وقد حرص الضباط جيداً على أن لا يرأف مرؤوسهم بأحد.

الأباطرة والأساقفة:

«حدث إذن في مدينة **تسالونيكي** شيء لم يحصل أبداً في مدى الذاكرة البشرية. شيء، تعذر عليَّ وضع حد له ومنع وقوعه. علماً أنني

حذرت من قبل، بأنها ستكون الجريمة الأكثر وحشية! توسلت مراراً! إن مجرد محاولتك إلغاء الأمر، بعد فوات الأوان بطبيعة الحال، دليل على تقديرك لخطورة الوضع. ولكن ما حدث، كنت عاجزاً عن التخفيف من حدته.

عندما وردت أولى الأنباء عن تسالونيكي، كان قد انعقد لدينا في ميلانو مجمع كنسي، حيث جاءنا أساقفة من غالة. ولم يكن بينهم مَنْ لم يئن ألماً؛ ولم يُصَادَفْ إنسان واحد تلقى تلك الأنباء بترو»(٣١).

هذا ما ورد في رسالة أمبروزي الموجهة إلى ثيودوسيوس مباشرة. ما هي النتائج، التي يمكن أن تسفر عنها هذه الكلمات؟ أولاً: أدرك الأسقف فور إعلامه بظروف موت بوتيريخ، مدى حدة غضب الحاكم. حاول أن يتصرف، ورغب في حماية السكان وإنقاذهم من انتقام فظيع. من المؤكد أنه لم يُطْلَعْ على تفاصيل الخطة، إذ نعرف من مصادر متعددة أنه لم يشارك في اجتماعات المجلس الاستشاري للإمبراطور؛ لكن روفين، رئيس مكاتب القصر، المسيحي الورع، والعدو اللدود للوثنيين، الرجل الطموح والمراوغ، ذو النزعة الوحشية، لعب فيها دوراً هاماً، لا بل أساسياً ومقرراً؛ وقد أومأ أمبروزي فيما بعد، إلى أنه في شخص روفين يجب رؤية المسبب الحقيقي للكارثة. ثانياً: وبعد ذلك عاد ثيودوسيوس إلى رشده (أو ربما تظاهر بذلك)، وأصدر أوامر يُزْعَمُ أنها ألغت أو لطَّفَت القرار السابق. لكن رسله وصلوا إلى تسالونيكي بعد فوات الأوان؛ إذ كان كل شيء قد انتهى هناك. وبين أكداس الجثث الدامية، كانت النساء بين مقاعد المُدَرَّج يعملن بحثاً عن أقاربهن. ثالثاً وأخيراً: حتى لو أراد أمبروزي التظاهر باللا مبالاة، لما تمكن من التزام الصمت المطبق إزاء الجريمة، فمجرد وجود ذلك العدد من أساقفة ما وراء الألب، فرض عليه ضغوطاً أخلاقية هائلة.

توقع الإمبراطور بطبيعة الحال، أنه بمجرد أن تتلاطم أنباء مجزرة تسالونيكي، ستعصف موجة من الغضب الرهيب؛ خشي الأمر، وفضل عدم سماع رعود الإدانة وأصوات الوعيد. فغادر ميلانو من منطلق الحيطة والحذر، قبل وصول التقارير من الشرق. عاد إليها على ما يبدو في مطلع حزيران، بعد أن مرَّت، كما تصور، أولى وأعنف ردود أفعال الرأي العام. ومن الناحية الثانية، فإن أمبروزي، وبعد إعلامه في الوقت الملائم من قبل شخص ما في البلاط، بموعد عودة الإمبراطور إلى ميلانو، غادر مقره على جناح السرعة، وكأنه بسبب وضعه الصحي المتدهور. وعندئذ، ومع الاستعدادات الأخيرة للسفر، صاغ تلك

الرسالة، التي اقتبسنا فقرة منها قبل قليل. تصرف أمبروزي كسياسي محنك؛ أراد بهذا الأسلوب تبرير غيابه عن مراسم استقبال الحاكم رسمياً، والتعبير في الوقت نفسه بصراحه عن رأيه في الجريمة المرتكبة في تسالونيكي. أملى الأسقف، شأنه شأن معظم المسؤولين آنذاك، الرسالة على سكرتيره، لكنه أضاف الفقرة الأخيرة هذه بنفسه سراً، دون أن يطلع عليها حتى أقرب مساعديه:

> «وفي الختام أكتب بخط يدي، ما يجب أن تقرأه أنت وحدك. عسى أن يحررني الرب من شتى ألوان العذاب. هكذا، مثلما هي حقيقة، أنه ليس من إنسان ولا عن طريق إنسان، وإنما مباشرة كما أعتقد، تلقيت أمراً! وأنا غارق في الحزن، راودتني رؤيا في تلك الليلة بالذات، التي كنت أستعد فيها للرحيل؛ وقد تهيأ لي أنك، أنت، جئت إلى الكنيسة، ولكن لم يكن مسموحاً لي بإقامة القداس!».

وبعد ذلك بقليل، يصرح دون مقدمات، والتباس، ولجوء إلى الرؤى والأحلام: **«ستقدم الأضحية فقط، عندما يسمح لك بذلك، حيث سيتقبلها الله منك!»**(٣٢).

أي أن الأسقف أبعد الإمبراطور فعلياً عن الجماعة الكنسية، أي ألقى عليه الحرم الكنسي. استخدم تعابيرحادة، ولكن في الجزء السري من الرسالة؛ وعلى أي حال، كان يعرف أنه لن يتم لقاء مباشر بينهما في المستقبل القريب، في ميلانو، مما سيؤدي إلى تلافي الإيضاحات والأحاديث المزعجة.

لكنَّ ما كان وفقاً لاعتراف الراعي الصريح مجرد رؤيا، مزعومة، أو حقيقية، وكان باقياً في مجال التهديد فقط (فيما لو أراد الإمبراطور فعلاً دخول الكنيسة)، سيظهر في التقاليد بعد مضي فترة قصيرة، كحقيقة واقعة. وسيقول مؤرخو الكنيسة بإعجاب شديد: وقف الأسقف شخصياً في بوابة المبنى ومنع ثيودوسيوس من المشاركة في القداس، عندما جاء بكامل جلال سلطته، ليشارك في الصلاة. قامت الأجيال اللاحقة بتضخيم هذا الحافز. وها هي الرواية الأكثر شيوعاً، والمأخوذة عن كتاب بطرس سكارغا بعنوان «حياة القديسين»:

> «شعر الإمبراطور بالندم على جريمته تلك بعد قراءة الرسالة، وبعد عودته إلى ميلانو أراد الذهاب إلى الكنيسة بدون توبة. حذَّره الأسقف من مغادرة القصر؛ وأدرك بأنه لن يسمح له بدخول الكنيسة، حتى يخضع لتوبة علنية أمام الكنيسة. وبالرغم من ذلك، توجه الإمبراطور إلى الكنيسة! قطع عليه القديس أمبروزي الطريق في المدخل قائلاً:

ـ لا تدخل أيها الإمبراطور! فكيف ستتناول بهاتين اليدين الملطختين بدم الأبرياء جسد المسيح؟ وكيف ستضع دمه في فيك، الذي استخدمته لإصدار مثل هذا الأمر الرهيب؟؟

فأجاب الإمبراطور:

ـ اتُّهم داؤود الملك أيضاً بقتل الرجال والزنى، ووجد الرحمة لدى الرب.

فأجاب الأسقف:

ـ قَلَّدْتَ الخاطىء، فقلِّد التائب أيضاً!.

وعاد الإمبراطور إلى القصر».

هذا الحوار خيالي بطبيعة الحال، بالرغم من أن مؤرخي الكنيسة في العصر الوسيط ـ ومنهم اقتبس القس **سكارغا** بشكل غير مباشر ـ نسجوا خيوطه وتعابيره من رسالة أمبروزي الأصلية. لكنّ الخيال والأسطورة أيضاً يصنفان ضمن مرتبة معينة من الحقائق التاريخية، ويمكن أن يكون لهما كبير الأثر والقيمة التاريخية. والمثال التقليدي على ذلك، هو ذلك المشهد، الذي لم يحدث، في ميلانو. حيث أبرز بألوان زاهية وبقوة، تراجع هيبة إمبراطور روما شخصياً أمام وقار الأسقف: ياله من موضوع وذريعة يُحْلَمُ بهما في نزاعات العصر الوسيط بين السلطة الكنسية والمدنية! يمكن القول بدون مبالغة: أنَّ ما زُعم بأنه قد حدث في ميلانو في أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة، ساعد بعد ما يقارب السبعة قرون، على تنفيذ المشهد أمام بوابات **كانوسا**.

المراسيم: والمفاوضات، والتوبة:

حقيقة إنّ تلك الأحداث، بقدر ما نستطيع إعادة بناء مجراها بعد مرور كل هذا العدد من القرون على أساس كمّ محدد من المعطيات المرجعية بقدر ما تتخذ ذلك الشكل المأساوي والخطير. وقد تطور كل شيء في أجواء ما يشبه اللعبة السياسية. لأن ثيودوسيوس، الذي ضايقه بوضوح موقف وتصريحات أمبروزي، وكذلك غيابه الطويل، غادر ميلانو مجدداً: انتقل إلى فيرونا القريبة منها نسبياً. وهنا أُرِّخَتْ مراسيمه الصادرة مع نهاية تموز. تتداخل الأمور هنا: يبدو بعضها في المضمون وكأنه مؤيد للوثنية، وعلى أي حال، تحاول وضع حدٍ للحرية الزائدة، أو بالأحرى لرعونة المسيحيين في بعض المجالات. وعلى سبيل المثال لا الحصر، تقرر آنذاك أن **للمرأة حق ممارسة وظيفة شماسة في الكنيسة**، ولكن بعد تجاوز الستين

من العمر؛ كما حُظِّرَ على النساء الشماسات التنازل عن ممتلكاتهنَّ لصالح جماعات المؤمنين أو لرجال الدين، أو حتى للفقراء[٣٣]. كان هذا القانون، الذي قد يثير الدهشة للوهلة الأولى، سليماً وضرورياً. لأن ممارسة الحرية التامة في هذا المجال حتى ذلك الحين، فسحت المجال أمام شتى أنواع التجاوزات. فلا ريب في أن غير واحدة من الأسر عانت من نتائج التدين المتزمت لبعض النساء، اللاتي تنازلن للكنسية عن كافة ممتلكاتهنَّ، وفي بعض الأحيان بشكل متعمد بهدف مضايقة أقرب الورثة. والحقيقة أن المرسوم لم يبقَ ساري المفعول لأكثر من شهرين، إذ ألغي بعد ذلك ـ دون إيضاح وتفسير للأسباب ـ، في أواخر آب. أكان هذا نتيجة المعارضة الحادة من جانب سلك الكهنوت؟ أمر محتمل. ولكن بعد ما يقارب الأسبوعين، أي في مطلع أيلول، وقَّع ثيودوسيوس مرسوماً ضايق مسؤولي الكنيسة إلى أبعد حد. مُنِعَ الرهبان بموجبه من الإقامة في المدن. وقد جاءت كلماته قاسية ومفعمة بالصور: **«ليذهبوا إلى الأماكن المهجورة، وإلى القفر اللا متناهي، ليسكنوا هناك!»**[٣٤]. وظلَّ هذا المرسوم ساري المفعول لمدة سنتين. يعتقد البعض أن المبادر الفعلي لإصدار هذه المراسيم، كان والي الشرق ذو النفوذ الهائل، **تاتيانوس**، الوثني المتقد الحماس، أما الإمبراطور، فقد تعاطف مع مخططاته؛ ولهذه الحقيقة أيضاً مغزاها، إذا أُخِذَتْ الظروف المحيطة بها بعين الاعتبار.

هكذا كانت تعمل مكاتب الإمبراطور في تلك الأشهر من صيف عام ٣٩٠ . وفي الوقت ذاته، استمرت المفاوضات وأجريت محادثات سرية بين البلاط وأسقف ميلانو، حيث أثرت بدورها بشكل غير مباشر على النصوص التشريعية الصادرة. وفي آب، وقبل إلغاء القوانين المتعلقة بالشماسات، أقدم ثيودوسيوس على مبادرة تهدف للمصالحة. اعترف على نحو يكاد أن يكون مباشراً بذنبه المقترف نتيجة التسرع، وقد أعلن في مرسومه الجديد ما يلي:

> «إذا صدف أن وجهنا، وبما يتناقض ووداعتنا، ووفقاً لإطلاعنا على القضية، بمعاقبة أحدهم بقسوة زائدة، فلا نرغب أن ينفذ هذا الحكم فوراً. وليبق مصير وموقف المحكومين معلقاً لمدة ثلاثين يوماً. يجب بطبيعة الحال، أن يُحْرَسَ هؤلاء الأشخاص ويودعوا في السجن، ويراقبوا جيداً»[٣٥].

تعني هذه العبارة «بقسوة زائدة»: في جوهرها العقوبة القصوى، أي عقوبة الموت. أي أنه ما بين إعلان الحكم، الذي لم يعد قابلاً للاستئناف، وتنفيذه، يجب وفقاً لمقتضيات هذا المرسوم، أن يمر ما لا يقل عن ثلاثين يوماً، وهو الوقت الكافي لإعادة النظر، والتأمل، وربما تغيير القرار. فالإمبراطور هنا يجعلنا نفهم أنه تصرف أحياناً بشيء من التسرع، لا بل من

التهور، الشيء الذي يشعر الآن بالندم بسببه، ويود تلافيه مستقبلاً.

أدت المفاوضات بين البلاط والأسقف إلى التفاهم في نهاية المطاف. عاد ثيودوسيوس إلى ميلانو في الخريف. وتردد على الكنيسة لفترة من الزمن مجرداً من الشارات الإمبراطورية، أي بصفة تائب، واستمر هذا الشيء حتى عيد الميلاد. احْتُفِلَ بالعيد آنذاك، كما هي الحال الآن، في الخامس والعشرين من كانون الأول. وقبل ذلك الحين، أي قبل القرن الرابع، كانت هناك عدة تقاليد فيما يتعلق بتاريخ الاحتفال بالعيد، ولم يكن العيد بحد ذاته مُصَنَّفاً في عداد أهم الأعياد؛ كما أنه أُهْمِلَ في بداية الأمر في العديد من الأوساط المسيحية، كشيء عديم الأهمية بالمقارنة مع ذكرى آلام الرب؛ كما أشير آنذاك إلى أن الوثنيين بالذات هم مَنْ يحتفل بأعياد ميلاد آلهتهم، ويعيرون أهمية قصوى ليوم ميلاد كل إنسان، لكي يحددوا على أساسه برجه ويقرأوا طالعه. وإذا كان يوم الخامس والعشرين من كانون الأول قد اعْتُمِدَ بصورةعامة، فقد يعود السبب الرئيس في ذلك إلى أنه ذا دلالة رمزية: فالشمس، التي لا تُقْهَرُ، كانت تنتصر على الليل، وتبدأ مسيرتها نحو الانقلاب الربيعي الباعث للحياة. وهكذا شارك الامبراطور في الخامس والعشرين من كانون الأول عام ٣٩٠ ، وذلك للمرة الأولى منذ أشهر عديدة في القداس، شارك كعضو كامل الحقوق في الجماعة المسيحية. لا بد لنا من الإضافة هنا، أن الشهادات الخاصة بموضوع التوبة، ليست واضحة تماماً. فمن يدري إن لم تكن قد اقتصرت على المجيء لمرة واحدة إلى الكاتدرائية بثوب متواضع، في يوم العيد على سبيل المثال؟.

تجدر الإشارة في هذا المكان إلى ممارسة أعمال التوبة، التي شاعت آنذاك في الكنسية الغربية (اختلف الأمر في أوساط الجماعات الشرقية، وخاصة في القسطنطينية بالذات). وقد نقل هذا الوصف المؤرخ سوزومينوس، الذي عاش في القرن الخامس، أي بعد جيل واحد من الأعوام، التي نحن بصددها هنا:

يقف التائبون في مكان منفصل ومرئي، حزانى وغارقين في الحداد. وبعد القداس، يخرُّ جميع المبعدين عن الجماعة على وجوههم، وهم يبكون ويئنون. ويهرع الأسقف نحوهم ووجهه أيضاً مغشية بالدموع، ويخرُّ مثلهم على وجهه. ثم ينهض أولاً، ويتبعه الآخرون. يصلي من أجل الضالِّين ويأمرهم بالإنصراف. ثم يمارس كل منهم بمفرده أعمال التقشف والزهد، وذلك بالصيام، أو بعدم الاغتسال، أو بأي أسلوب آخر أُمِرَ به. وعلى هذا النحو ينتظرون اليوم، الذي حدده لهم الأسقف. وعندئذ، وكأنه بعد تسديد دين مُسْتَحَقٍ، يحررون من العقاب المفروض بسبب آثامهم، التي اقترفوها، ويصبحون من جديد أعضاء

كاملي الحقوق في الجماعة[٣٦].

لِنُذَكِّرْ ثانية بكلمات أمبروزي المستشهد بها من قبل! لا ريب في أنها لا تخلو من مبالغة خطابية، فالآن وبعد أن تعرفنا على خلفية الحدث وسببه، سنفهمه بشكل أفضل، وستتخذ الكلمات نبرة مختلفة. تحدث الأسقف إذن عن الرجل، الذي

«استطاع أن يتخلى عن جميع رموز السلطة الإمبراطورية، التي يستحقها، ليبكي خطيئته علناً في الكنيسة؛ الخطيئة، التي وقع فيها نتيجة مراوغة وخداع أشخاص آخرين. راح الإمبراطور يبكي ويئن متوسلاً المغفرة. ولم يخجل إطلاقاً مما يخجل منه حتى عامة الناس، أي ممارسة التوبة العلنية. ولم يكن هناك يوم واحد فيما بعد، لم يتألم فيه بمرارة على خطئه ذاك»[٣٧].

لنلفت النظر بالمناسبة، إلى أن الأسقف يحاول بوضوح التخفيف من العبء الملقى على عاتق الإمبراطور، وذلك بالتلميح إلى أنه ضُلِّلَ وَدُفِعَ لارتكاب الخطأ من قبل آخرين. من قبل مَنْ؟ ردد المستمعون همساً اسم واحد من كبار المسؤولين.

تاب إذن ثيودوسيوس ـ أما أساه وندمه، فقد عبَّر عنهما قبل كل شيء بأسلوب مميَّز تجلَّى بإظهار قسوة أكبر إزاء الوثنية..

«رتاج مرسومنا»:

إلى سيونيوس ألبينوس والي مدينة روما؛ صورة عن مرسوم يوم الرابع والعشرين من شباط لعام ٣٩١ .

«نرغب إليكم في أن لا يتدنس أحد بتقديم الأضحيات! وأن لا يقتل أحد حيواناً بريئاً، وأن لا يدخل أحد إلى حُرَمِ الوثنيين للإطلاع على المعابد والنظر إلى الرسوم المشكلة بيد الإنسان! وليعلم من يقدم على ارتكاب هذه الجرائم، أنه يعرض نفسه للعقاب الإلهي والبشري. وليكن هذا القانون ملزماً للمسؤولين أيضاً: فإذا كان أي منهم من أتباع العبادات الوثنية، ودخل المعبد ـ أثناء السفر أو في المدينة ذاتها ـ ليعبر عن ولائه، يتوجب عليه فوراً دفع خمسة عشر رطلاً من الذهب. وكذلك الأمر بالنسبة للدائرة، التي يترأسها، فإن هي لم تعبر عن معارضتها، وتصرح بذلك دون تأخير، وذلك بشكل علني، وجب عليها أن تسدد إلى خزينة الدولة مبلغاً بالقيمة نفسها»[٣٨].

يفرض المرسوم غرامات أقل نسبياً، ولكنها لا تزال باهظة، على كافة حكام المقاطعات، الأدنى مرتبة أيضاً، إذا اقترفوا عملاً يستوجب مثل هذا العقاب. كما تترتب تبعات مالية مشابهة على الموظفين، الذي لا يعيقون الحكام في تكريم «العفاريت»، أو يتوانون في الإعلام الفوري عن ارتكاب مثل هذه الجرائم الشنيعة. يمكننا أن نتصور الأجواء الكئيبة، التي خيمت على أجواء أهم المكاتب في روما ذاتها وفي أوساط المقاطعات، منذ لحظة صدور المرسوم! كيف راقب الناس بعضهم في كل خطوة، وكم حيك من المؤامرات، والإفتراءات،والشكاوى الزائفة!.

أضحت الأوضاع أشد إزعاجاً، نظراً لوجود وثنيين مقتنعين بعقائدهم، وممارستهم لها بجسارة. وقد صُنِّفَ في عدادهم أيضاً الرجل، الذي وُجهت إليه الرسالة، الوالي **ألبينوس**، الذي بتنا نعرفه جيداً. كما أن كلا القنصلين في عام ٣٩١ كانا من الوثنيين المتقدي الحماس، وهما: **تاتيانوس وسيماخوس**. الأول منهما، والي الشرق وهو والد بروكولوس، والي القسطنطينية، وقد حُدِّدَتْ ملامح طباعه أيضاً من قبل؛ كان قد بلغ كقنصل ذروة طموحه الوظيفي ـ وأضحى في الآن ذاته على قاب قوسين أو أدنى من كارثة حياتية شاملة. أماسيماخوس، أحد ألطف وألمع ممثلي عصره، فإن شخصيته تتطلب تعريفاً أقرب بها.

اسمه الكامل هو: **كوينتوس أوريليوس سيماخوس يوسيبوس**، أرستقراطي، صاحب ممتلكات في إيطاليا الوسطى والجنوبية، وفي صقلية، وإفريقيا. أكثر ما أحبه هو الإقامة في روما ذاتها، حيث امتلك ثلاثة قصور؛ وبالرغم من ذلك، لم يكن سوى سيناتور متوسط الثراء. تولى مناصب مشرفة ورفيعة كقسطور Quaestor، قاضٍ، ومن ثم مارس عمله كحاكم في **لوكانيا وبروسيوم** في إيطاليا، وبعدها في مقاطعات إفريقيا الشمالية، مُنِحَ لقب وزير من الدرجة الثالثة. ومنذ صيف عام ٣٨٤ حتى مطلع عام ٣٨٥ ، أي لمدة ستة أشهر فقط والياً على روما. كان لهذا الشيء سبباً أكثر عمقاً. ألا وهو وفاؤه الصلب للآلهة والعبادات القديمة، حيث ناضل في سبيلها منطلقاً من وظيفته بشكل ما، إذ أنه حمل لقب «كاهن أعلى» Pontifex Maiore. لأن لقب «الكاهن الأعلى» Pontifex Maximus، كان من حق الأباطرة وحدهم؛ وقد حمل هذا اللقب جميع الأباطرة حتى عهد **غراتسيان**، الذي تنازل عن اللقب والمهام المرتبطة به عام ٣٧٥ . ومنذ.ذلك الحين، أضحى حامل لقب «كاهن أعلى» Pontifex Maiore، على الصعيدين الشكلي والعملي رئيساً لمجالس الكهنة القديمة، التي ظهرت منذ القرون الأولى لوجود المدينة الواقعة على ضفاف التيبر ـ أو ربما في مرحلة مبكرة أكثر، كما تزعم بذلك الأرستقراطية الوثنية في المدينة. وكان لسيماخوس

من الجرأة والشجاعة، ما يسمح له بالتعبير العلني عن قناعاته والمطالبة بحقوق الآلهة أمام الحكام. ولما أصبح والياً على روما، راح يخوض معركته من هذا المنصب، مطالباً بإعادة مذبح الإلهة **فيكتوريا** إلى قاعة اجتماعات مجلس الشيوخ. نعرف مجمل سير هذه المحاولات ـ غير المجدية بطبيعة الحال ـ بدقة، بفضل مجموعة من النصوص الرسمية، المعروفة باسم **التقارير**، التي جمعها سيماخوس وأعدها للنشر؛ كذكرى أزلية وشهادة حية. كما بقيت محفوظة مجموعة مراسلاته الخاصة؛ وهي تقدم رؤية مثيرة لعقلية وحياة الأرستقراطية الرومانية آنذاك. الحقيقة أنها مدونة باللاتينية الخطابية، ولكن هكذا كان الذوق السائد في تلك الحقبة؛ فهذا الأسلوب المصطنع في نظرنا وإحساسنا، بدا آنذاك نجاحاً عظيماً ، جديراً بكل الجهود المبذولة من أجله. وباستثناء هذا الموضوع، الذي يعد فيه ذنب سيماخوس جزئياً ونسبياً، يجب اعتباره طبقاً لرأي معاصريه، رجلاً ذا معرفة واسعة، وثقافة رفيعة، حاول بصورة واعية تنمية هذه الثقافة، وهو من وجهات نظر عدة، شبيه بصديقه وابن سنه **سيونيوس ألبينوس**.

الشيء الجديد بالتأمل الجاد، هو موضوع اختيار قنصلين وثنيين غيورين ومعروفين على نطاق واسع من خلال معتقداتهما، في عام ٣٩١ . لا ريب في أن ثيودوسيوس عينهما في هذين المنصبين، في الفترة، التي كانت علاقاته مع الأسقف أمبروزي في أقصى درجات توترها، أي على الأرجح في صيف ٣٩٠ . ومن خلال هذه الخطوة، حذَر الإمبراطور من المغالاة في استغلال حلمه، لأنه في نهاية المطاف قادر على العثور على حلفاء ذوي نفوذ واسع في المعسكر المعادي للكنيسة. أدت المفاوضات فيما بعد إلى الوفاق بطبيعة الحال، ومارس الإمبراطور التوبة، ولكن التعيينات الموعود بها، تعذر سحبها والتراجع عنها. ولذلك تم الحرص من ناحية ثانية على خلق صعوبات ومضايقات لقنصلي عام ٣٩١ . وربما هذا هو أحد أهداف مرسوم يوم الرابع والعشرين من شباط. فالوثيقة، التي تَعَرَّضَ مضمونها بعنف لِما أحبه وعبده علناً كل من **تاتيانوس** و **سيماخوس**، حملت اسميهما في التأريخ. فكانا مرغمين إما على تقبل الأوامر الصارمة والارتداد عن عقيدتهما، أو تحمل مضايقات كريهة من جانب أي موظف صغير، أو سائق مركبة في مكاتبهما. فإذا اعترفنا بأن المرسوم كان نوعاً من الاستفزاز، لن نجد صعوبة في الإشارة إلى الرجل المؤهل لتمرير شيء على هذا القدر من الغدر والمكر، في محيط الإمبراطور. لا ريب في أنه **روفين** الموما إليه آنفاً.

يُعَدُّ مرسوم السادس عشر من حزيران في جوهره تكراراً لمرسوم شباط، وهو موجه خصيصاً لكبار المسؤولين في **مصر**، وتحديداً للوالي **يواغريوس** والوزير **رومانوس**. ترأس الأول منهما

الإدارة المدنية، والثاني الجيوش المعسكرة هناك. ينص المرسوم على:

«لا يسمح لأي كان بتقديم الأضاحي للآلهة، ودخول المعابد، ومشاهدة حرمها. ليعلم الجميع أن رتاج مرسومنا يغلق المدخل إلى أية قضية وثنية. وكل من سيحاول بالرغم من هذا الحظر، القيام بأي شيء يتعلق بالآلهة والعبادة، لن يجد أي تهاون. وإذا ما أقدم مسؤول واثق من امتيازات سلطته على الدخول كمجدف مستخف إلى تلك الأمكنة النجسة، سيتوجب عليه تسديد خمسة عشر رطلاً من الذهب إلى خزينتنا؛ ويدفع مرؤوسوه القيمة ذاتها، إذا لم يعيقوا ذلك بقواهم المتعاضدة»(٣٩).

أهو القمع الإداري، الذي تم اللجوء إليه بناء على أحكام هذا المرسوم، ما أدى إلى قلاقل خطيرة في الإسكندرية؟ أيمكن أن يكون الإمبراطور نتيجة حرب ا لشوارع، التي دارت رحاها في ربيع عام ٣٩١ في شوارع مصر، قد تذكر مرسوم ما قبل بضعة أشهر، ليصفي الحسابات بشكل نهائي مع الوثنيين؟ يمكن المراهنة على هذا الرأي أو ذاك، نظراً لشحة المعطيات التاريخية الدقيقة. يوجد شيء واحد مؤكد تماماً هو أن: أحداث الإسكندرية تُعَدُّ من أعنف الصدامات بين ممثلي كلتا الديانتين في أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة.

الإسكندرية

الاضطرابات في الاسكندرية

الرواية الأولى:

لنتناول أولاً شهادة مبكرة ومفصلة نسبياً، وإن جاءت من رجل ربما لم يشاهد الإسكندرية بعينيه أبداً. وبكل تأكيد، لم يكن شاهد عيان على ما حدث هناك عام ٣٩١؛ لكنه كان على معرفة شخصية باثنين على الأقل من المشاركين في الأحداث، وهما من الوثنيين. والحديث هنا عن مؤرخ الكنيسة سقراط الذي يمنح تقليدياً اللقب المشرِّف «سكولاستي»، أي البارع أو الخبير في القانون. دَوَّنَ عمله العظيم الأهمية، والمنحاز منهجياً، في النصف الأول من القرن الخامس. وها هو ـ مع بعض الاختصارات الطفيفة ـ ما يمكنه الإدلاء به حول القضية، التي نحن الآن بصددها:

ألحَّ أسقف المدينة **تيوفيل** بشدة في طلبه لوضع حدٍ لعبادة الآلهة القديمة. فأسفر هذا في نهاية المطاف عن صدور أمرٍ إمبراطوري يقضي بهدم المعابد الوثنية ـ وأوعز لتيوفيل بالذات، بالإشراف على تنفيذ هذه المهمة. رغب الأسقف المزود بمثل هذا التفويض أن يخزي العبادات السرية هناك ويكللها بالعار بكافة الوسائل. وهكذا قام بتطهير بعض المعابد وتحويلها إلى كنائس، وهدم أخرى كلياً. أبرز علناً الرموز الدموية لممارسات **ميثرا** السرية، كما حوَّل الرموز التابعة لآلهة أخرى إلى مواضيع للسخرية والتهكم؛ وبتوصية منه، تمَّ حمل **فالوس** والطواف به في الساحة العامة. عجز سكان الإسكندرية الوثنيون، بما فيهم مَنْ ادعوا أنهم فلاسفة، عن كظم ألمهم وسخطهم فاتفقوا على إشارة محددة، وانقضوا بزخم على المسيحيين، وهم يقتلون كل من اعترض سبيلهم؛ ولذلك اضطر المهاجَمون للدفاع عن أنفسهم. استمرت المعركة طويلاً، حتى وضعت تخمتهم بالدم المراق حداً للمصائب اللاحقة. لم يُقْتَلْ في المعركة الكثير من الوثنين، لكنَّ عدد المسيحيين كان هائلاً؛ أما عدد

الجرحى من الجانبين، فيصعب إحصاؤه. ذُعِرَ المسببون؛ وأصابهم الهلع من غضب الإمبراطور، فهربوا، وبحث الكثيرون منهم عن ملجأ في مختلف المدن. وكان بينهم أستاذا النحو **هيلاريوس** و**أمونوس** اللذين استمعت في حينه لمحاضراتهما في القسطنطينية، وأنا لا أزال فتى في حداثة عهدي. وقيل أن الأول منهما، كان كاهن **زيوس**، والثاني ـ كاهن **القرد**.

بعد إخماد الفتنة نهائيا، أعان الحاكم وقائد الجيوش تيوفيل في تدمير المعابد. حوّلوا المباني إلى أنقاض، وحطموا التماثيل أو صهروها لاستخدامها كأدوات لكنيسة الإسكندرية، لأن الإمبراطور أهداها كمساعدة للفقراء. لكنَّ الأسقف أمر بالحفاظ على أحد التماثيل دون أن يُمَسَّ، قائلاً:

ـ بفضل هذا، لن يتمكن الوثنيون مستقبلاً من إنكار عبادتهم لمثل هذه الآلهة!.

وأعرف بكل تأكيد، أن **أمونيوس**، الذي أشرنا إليه لتوِّه، تذمر كثيراً وعبَّر عن ألمه بسبب ذلك:

ـ تُدَنَّسُ العبادات الهلنستية، لأن هذا هو التمثال الوحيد، الذي لم يُحَطَّمْ، وقد حوفظ عليه عمداً للتهكم من معتقداتنا!.

أما بالنسبة **لهيلاريوس**، فقد تباهى بأنه أثناء الاضطرابات في الإسكندرية، قتل بيده تسعة رجال.

وأثناء هدم معبد الإله **سَرَابِيس** هناك، لوحظ بشيء من الذهول، أنه على البلاطات الحجرية في داخله، يبرز هيروغليف على هيئة صليب. لكنَّ تأويل هذا الرمز كان مختلفاً لدى كل من المسيحيين والوثنيين. فقد اعتقد الفريق الأول أن القصد هو العلامة المقدسة لآلام المسيح، بينما قال الفريق الثاني:

ـ أجل، إن الرمز من حيث المظهر مشترك لكلا المعتقدين، لكن مضمونهما مختلف تماماً!.

وفي نهاية المطاف وُجِدَ مسيحيون حديثو الهداية، ممن كانوا لا يزالون على دراية بقواعد وأصول الخط المصري القديم. فأوضحوا أن هذا الهيروغليف هو رمز الحياة المقبلة. أُعْجِبَ أتباع المسيح بهذا التفسير، كما أنهم استندوا إلى نبوة مزعومة؛ جاء فيها على ما يُعْتَقَدْ، بأن معبد **سرابيس** سيتعرض للدمار عندما سيظهر الصليب الظافر على جدرانه.

ويضيف المؤرخ: «**هذا ما علمته، وأنا أصغي إلى الرواية عن العثور على النص**» ـ ويبدأ على الفور بصياغة شكوكه(٤٠).

بأي أسلوب، وبأية معجزة، كان لكهنة مصر القديمة أن يتكهنوا برمز آلام المسيح، وذلك قبل مجيئه بقرون عديدة؟ عجباً! تمكنوا من نقشه في معبدهم! كان ظهور المخلّص يوماً، من أعمق أسرار الحكمة الإلهية، السر، الذي كان يجهله الشيطان ذاته! ولذلك، لم يكن، وما كان يمكن أن يكون، لخدمه الصغار، كهنة الآلهة والعفاريت المصرية، أن يتصوروا، أو أن تكون لديهم أية فكرة عن ذلك. أهو الرب إذن مَنْ أمرهم بنقش هذا الهيروغليف الاستثنائي هناك، كبشرى لشيء، كان له أن يحدث في المستقبل؟.

الهيروغليف أنك ANKH:

لا ريب في أن مجمل رواية **سقراط** وكذلك مختلف نقاطها، ستدفع القارىء المتمعن لطرح العديد من التساؤلات، كما ستراوده شكوك كثيرة. وسيرغب في تكوين صور أدق وأوضح عن أسباب وتطور مجرى الأحداث. أجل، ستوجد شهادات أخرى، تسمح بشكل أفضل بإعادة بناء المجرى العام لاضطرابات الإسكندرية. ولكن قبل أن نتناولها، يجدر بنا أن نوضح بعض الأمور الموما إليها في رواية سقراط ذاتها؛ قد تكون أموراً جانبية، لكنها مثيرة وجديرة بالاهتمام من وجهات نظر عدة.

لنبدأ من النقطة، التي ينهي بها الكاتب تقريره، الشيء الذي بدا لسقراط نفسه غريباً ومفعماً بالأسرار، وغير قابل للتصديق. نقصد رمز الصليب ذاك، الذي اكْتُشِفَ في قلب المعبد الوثني، على نحو غير متوقع ومذهل للجميع. وفي هذه الحالة بالذات، يمكننا استعراض تفسير هذه الحقيقة لأنها حقيقة واقعة فعلاً! ـ وهو تفسير بسيط نسبياً، ومقنع على الأرجح. لا، لا ضرورة أبداً لأن نتصور بأن المسيحيين دخلوا حرم سرابيس خلسة، ونقشوا هناك رمز ديانتهم، لكي يعرضوه فيما بعد، وكأنه كان موجوداً هناك من قبل! لقد كان هيروغليفاً حقيقياً، أي أنه من إنجاز الوثنيين أنفسهم، وهو رمز منقوش أو مُدَوَّن قبل قرون، فعلاً، وفي حقيقة الأمر، كاد أن يكون مماثلاً للصليب في شكله مع استثناء بسيط، إذ أنه عوضاً عن الذراع العلوي، كان له نمط من الأنشوطة البيضوية الشكل. ومن هنا اسْتُخْدِمَتْ التسمية، التي أطلقها اللاتين عليه فيما بعد في الغرب،

وهي ((Crux Ansata))، أي الصليب ذو المقبض. أما في لغة المصريين القدماء، فقد أُطْلِقَ على هذا الهيروغليف اسم «أنك» ((ANKH)). يتكرر ظهوره في شتى النصوص المنقوشة أو المرسومة منذ حقبة الفراعنة، ومستقلاً في بعض الأحيان، أي على هيئة زخرف، أو ما يكاد أن يكون موضوع عبادة. وما من غرابة في الأمر: فلفظة أنك بحد ذاتها، وكذلك رمزها الهيروغليفي، كانت تعني الحياة والمفاهيم المرتبطة بها؛ وببساطة، كانت في جوهرها سعداً، مبشراً بالخير. فمن المؤكد، أنه لهذا السبب، وجب أن يبرز الهيروغليف منذ البداية على جدران معبد الإله سرابيس أيضاً؛ وقد بوشر ببناء المعبد في الإسكندرية قبل ظهور المسيحية بفترة طويلة، لأنه في القرن الثالث قبل الميلاد، كان الكثيرون ممن اعتنقوا الديانة الجديدة على إطلاع إلى حد ما على عناصر الخط الهيروغليفي؛ وقد شرح هؤلاء لأبناء ديانتهم فحوى الرمز الموغل في القدم، بشكل صحيح. وعلى الرغم من أن «أنك» ارتبط بالحياة الدنيوية، فإن الفهم الأكثر شمولاً، أي الذي يشمل وجود ما بعد الموت أيضاً، مبررٌ تماماً في بعض الحالات؛ وعلى أي حال، هكذا فهمه الوثنيون في أواخر الحقبة القديمة.

قد يسأل سائل، وسيكون محقاً في ذلك، لما لم يُفَسَّرْ أمر الصليب المزعوم بهذا الأسلوب مباشرة؟ لأن آلافاً من سكان الإسكندرية شاهدوا «أنك» في غير مرة، وفي مختلف المعابد وعلى العديد من الأوابد الأثرية للديانة القديمة! ولذلك، وجب على ما اكتشف في معبد الإله سرابيس أن لا يدهش أحداً من المعاصرين. ولكن دعنا نتذكر أننا أمام رواية ثانوية، صاغها رجل عاش في القسطنطينية بعد الحدث ببضع عشرات من الأعوام، وكتب معتمداً على روايات تلونت وتشوهت على نحو متعمد بلا ريب. فخارج حدود مصر، لم يكن شكل ورمزية «أنك» معروفين على نطاق واسع. أما الدعاية المسيحية، فقد استغلت شتى الفرص، للبحث عن تكهنات سرية، ونبوات وإيحاءات، تؤكد صدق وصحة الديانة الجديدة ورسالتها التاريخية. وقد بحثت عن تلك النبوات المزعومة، في بعض أشكال عبادات الآلهة القديمة تحديداً، لأن الأصوات المنطلقة من معسكر الخصم، يكون لها عادة صدى خاصاً. والأهم من ذلك: لا بدَّ وأنَّ الهيروغليف «أنك» في المعبد الوثني، قد فُسِّرَ كشعار مسيحي، لأن المسيحيين المصريين، احتضنوه واستخدموه من قَبْلُ في رموز عبادتهم، ببساطة كأحد نماذج الصليب، والدلائل على ذلك قاطعة بين أيدينا، فقد صمدت في وجه عوامل الزمن، في بعض المواقع المصرية حُزُمٌ مسيحية قديمة، يظهر «أنك» على جدرانها؛ وقد حافظت الكنيسة القبطية على هذا التقليد عبر قرون طويلة.

هيلاريوس والجامعة:

لننتقل الآن إلى الأمور الأخرى المرتبطة برواية سقراط. إنها أمور ضئيلة الشأن ظاهراً، لكنها كما سيبدو، ذات مغزى كبير حتى من المنظور التاريخي. لنُمعن النظر إلى أُسْتَاذَيْ النحو (الأدب، فيما لو استخدمنا مصطلحات اليوم)، اللذين، كما يعترف مؤرخنا بنفسه، تلقى تعليمه فيما بعد على يديهما. لم يكونا مجرد شاهدين محايدين، وإنما مشاركين، أو ربما قائدين لأحداث الإسكندرية. وكل منهما معروف من بعض الإيماءات في مراجع تاريخية قديمة أخرى، إذ كانا في ذلك العصر من العلماء اللامعين.

الحقيقة أن ما نعرفه عن نتاج الأول منهما لا يتعدى بضعة عناوين لمقالات ذات مواضيع مختلفة، أشير إليها عَرَضَاً. ومنها وصف بليغ لحمامات عاصمة البوسفور التي كان قد باشر بها **قسطنطين** الكبير، مؤسس المدينة. لكنَّ الأعمال الإنشائية، التي تعرضت لإنقطاعات متعددة ومتكررة، دامت طويلاً، إلى ما يقارب القرن؛ ولم تنته إلا في أيام **هيلاريوس** في عهد الإمبراطور **ثيودوسيوس الثاني**. وتمَّ الافتتاح الرسمي في الثالث من تشرين الأول لعام ٤٢٧ . ولذلك فإن هيلاريوس خلَّد الحدث انطلاقاً مما يمكن وسمه بالواجب، حيث كان قد انضم إلى عداد أساتذة الجامعة منذ عامين.

افْتُتِحَتْ هذه المؤسسة العلمية رسمياً بموجب مرسوم خاص صدر في شباط عام ٤٢٥ . لكنها في الواقع، كانت موجودة ومارست نشاطها قبل ذلك الحين بزمن طويل. لم يقتصر الأمر على انضمام الأديب الإسكندري إلى عداد المحاضرين فحسب، وإنما حصل بعد مرور شهر مع مجموعة من زملائه على لقب (بدون مرتب خاص) عرف باللاتينية باسم ((Comitiva Primi Ordinis))، الذي يمكن تعريبه «موظف رفيع المستوى»؛ ونجد في مرسوم التعيين تبريراً رائعاً، جديراً بأن يدرج هنا، ولو باختصار:

> **ليعلم الأساتذة الآخرون، بأنهم سيحظون بدورهم بمثل هذا التكريم، إذا استمروا عشرين عاماً دون انقطاع، بتأدية واجباتهم، وأنجزوا بجد عملهم التربوي، وهم يمارسون حياة أخلاقية جديرةً بالثناء؛ وإذا أثبتوا مهارة تعليمية وخطابية، وكذلك فطنة في التأويل وبراعة في المحاضرة؛ وأخيراً، إذا قَيَّمَتْ هيئة الجامعة الموقرة كل هذا على نحو إيجابي، وأقرّت بأنهم يستحقون هذا الشرف[٤١].**

إنه لشيء مثير للاهتمام، وربما ليس عرضياً، أن تتكرر في التشريع اللاحق - حتى المعاصر،

حدود العشرين عاماً تلك، التي يستحق المعلم بعدها بعض المكافآت. ولكن هذه القضية ليست ذات شأن كبير، والأمر الجدير بالاهتمام فعلاً هو: أنَّ مرسوم ثيودوسيوس الثاني لا يشترط أية شهادات أو آراء من خارج المؤسسة التعليمية! أي أنه لا يشترط إطلاقاً انتماء الأساتذة إلى الكنيسة والالتزام بالإيمان القويم، على الرغم من أن المرحلة كانت أيام النصر الحاسم للمسيحية.

ما أروع مراعاة هذا الجانب، ويا لها من ليبرالية، عملية الفصل ما بين العلم والعقيدة، مقارنة بالطرق المستخدمة في غير دولة في المراحل اللاحقة! ولم يكن هذا مجرد طرح نظري. وظلّت القاعدة ملزمة في الواقع العملي أيضاً، بالرغم من أنه مع تعاقب الأجيال والقرون تناقص عدد الوثنيين تدريجياً في أوساط المدرسين، إذ أضحت مسيحية الأساتذة شيئاً مفروغاً منه في نهاية المطاف. ومع ذلك، فإن الجامعة، وكذلك التعليم في المستويات الأدنى، مارست نشاطها كمؤسسات تنظيمية وعلمانية في مضمونها. فلنترك الحديث الآن للمؤرخ التربوي اللامع مارّو H. I. Marrou:

> «قد يبدو هذا الشيء في غاية الغرابة، لكنها حقيقة واقعة، وجود بلد لم يعرف أبداً نهاية المدرسة القديمة: ففي الشرق الإغريقي، تُعَدُّ التربية البيزنطية امتداداً لا انقطاع فيه للتربية الكلاسيكية».

ويتابع قائلاً:

> «ظلّت الجامعة في القسطنطينية (على امتداد الفترة من عام ٤٢٥ - إلى عام ١٤٥٣) مركزاً لبحوث مثمرة ودعامة للتقاليد الكلاسيكية. تعرضت هذه الجامعة - وهذا أمر مفروغ منه - عبر القرون للعديد من الجوائح والتغيرات، ومرّت بأكثر من واحدة من مراحل الانحطاط، كما عرفت انقطاعات عابرة في وجودها، لكنها افتدت ذلك دوماً بنهوضها الرائع من جديد... الحقيقة أنها تحولت، لكنها ظلّت وفية للفكرة، التي نفذت إلى تأسيسها أيام الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني. لم تخرج تعاليمها عن الأطر الكلاسيكية: في الأساس - الفنون العقلية؛ وفي الذروة - البلاغة، والفلسفة والقانون. لم يتغير دورها الاجتماعي، فالهدف من الجامعة هو إعداد الفريق، الذي تختار منه الإمبراطورية كوادرها لملء الوظائف الشاغرة. ولم تدخل في برامجها أبداً العلوم الكنسية»(٤٢).

ولهذا السبب، اضطرت الكنيسة إلى أن تبتكر في الشرق نظامها التعليمي الخاص، المشبع كلياً بروح المسيحية؛ والمقصود هنا، هو ما يعرف بمدرسة الدير. ففي القسطنطينية ذاتها،

وانطلاقاً من الرغبة في مواجهة الجامعة العلمانية، تم تأسيس نمط من الأكاديمية اللاهوتية، وقام البطريرك بتعيين أساتذتها:

«تنوي المدرسة البطريركية خلق نموذجها من العلوم الإنسانية في مواجهة الحركة الإنسانية الكلاسيكية. وكان هذا النموذج في كثير من الأحيان مستقلاً وشديد الإيجاز؛ لكنه بالرغم من كل شيء، يحذو بوضوح حذو النموذج القديم»[٤٣].

كان السبب ـ إلى حد ما ـ في افتتاح جامعة جديدة على هذا القدر من الإنفتاح والعلمانية، عائداً إلى استقرار مجموعة من علماء الإسكندرية الوثنيين في القسطنطينية أواخر القرن الرابع، وتدعيم الوسط الفكري هناك. فلا ريب في أن البحث عن ملجأ في العاصمة على شواطىء البوسفور، لم يقتصر على هيلاريوس وأمونيوس وحدهما، المعروفين لنا اسمياً بمحض الصدفة، لأن الاضطرابات في عام ٣٩١ ، والخوف من التصعيد العنيف لموجة الكراهية الدينية في مصر، وما رافق ذلك من اضطهادات وتدمير، دفع بالكثيرين من الأساتذة، والفلاسفة، والمعلمين إلى مغادرة المدينة، التي اعْتُبِرَتْ بحق محراب العلوم الهلنستية عبر قرون طويلة، ومنذ أيام البطالمة. يُلَمِّحُ سقراط إلى نزوح الوثنيين هذا، بعبارات عامة في روايته، التي استشهدنا بها من قبل؛ وسوف نتعرف بالاسم أيضاً على الفلاسفة، الذين ودعوا الإسكندرية في ذلك الحين، لكنهم لم يتوجهوا إلى شواطىء البوسفور. غير أن الكثيرين من النازحين اعتقدوا ـ ولم يكونوا مخطئين في ذلك! ـ أنهم في القسطنطينية بالذات يستطيعون أن يجدوا تفهماً أفضل لمعتقداتهم، ومجالاً أوسع للعمل والنشاط؛ لأن وجود الحاكم بحد ذاته، وإن كان مسيحياً، بالإضافة إلى كبار الموظفين، كان بمثابة ضمانة للتقيد بشكل أفضل بقواعد سيادة القانون. أما في الإسكندرية، فكان الأسقف حاكمها الفعلي منذ عشرات السنين، وهو محقون بالكراهية لكل ما هو وثني. إضافة إلى ذلك كان يستند إلى حشود من الرهبان المتزمتين والمتخلفين، الذين غالباً ما هرعوا لنصرة متنفذي الكنيسة، وقد هجروا صوامعهم الصحراوية وأدْيِرَتِهم، مستنكفين لفترة من الزمن عن أكثر ممارسات التقشف والزهد غرابة. فالحظر الذي كان مفروضاً على إقامة الرهبان في المدن، والذي اطلعنا عليه من قبل، كان قد بدأ سريان مفعوله منذ سنة، وكان له أن يُلغى على عجل؛ ولكن هل تم تنفيذه والإلتزام به فعلاً؟.

يا لهذه السلسلة العجيبة من الأحداث! يكاد أن يكون ممكناً، الحديث عن نقمة الآلهة، أو مخطط العناية الإلهية، أو إذا فَضَّلَ البعض التعابير اللا شخصية، سخرية القدر. ففي أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة من الحقبة القديمة، تُدَكُّ مواقع الوثنيين في المدينة الكبرى، تُهدم

المعابد، يُطرد ألمع الأفراد المناهضين للمسيحية ويُرغمون على الفرار. وجاء هذا كله مواتياً بصورة غير مباشرة لظهور مركز جديد للثقافة الوثنية في مدينة أخرى؛ مدينة انتمت إلى ذلك النمط من المدن، الذي أمكن فيه للفكر القديم، الوثني في جوهره، أن يوجد ويستمر دون انقطاع إلى ما يزيد عن العشرة قرون. أي لمدة أطول بما لا يقارن مع ما أمكن أن يحدث في مصر ذاتها، حيث كان ولا بد للغزو العربي في القرن السابع، أن يضع بهذا الشكل أو ذاك، حداً لكافة مؤسسات الفكر العلماني المستقلة - فيما لو بقيت موجودة حتى ذلك الحين.

ثيون و هيباتيا:

كان أميان مرسيلينوس قد كتب المجلد الثاني والعشرين من «تاريخه» عام ٣٩٠ ، أي قبل بضعة عشر شهراً من هدم وتدمير معبد الإله سرابيس في الإسكندرية. وفي هذا المجلد بالذات، المكرس للأحداث الأقدم من ذلك بكثير، لأحداث عام ٣٦٣ تحديداً، تطرق بالتفصيل لمصر وأكبر مدينة فيها. وبطبيعة الحال، كان لا بدَّ للمؤرخ من تخليد ذكرى وشهرة العلماء، الذين عاشوا ونشطوا في الإسكندرية في العصور القديمة؛ ولذلك فهو يسرد أسماء بضعة عشر منهم. انضمّوا جميعاً، وهم من ممثلي شتى فروع المعرفة، تحت لواء «الموزيون»، أي الهيئة أو الاتحاد المكرس لتمجيد الموزيات ((Muse))، أي الإلهات التسع، اللاتي يحمين الفنون. كان الموزيون منظمة علمية مستقلة، يعود الفضل في تأسيسها إلى كرم البطالمة؛ ضمنت حياة الأفراد الموهوبين والنشيطين، ووفرت لهم السبل الكفيلة بمتابعة أبحاثهم؛ لم تشترط الهيئة حيازة شهادات أو ألقاب شكلية. يُعَدُّ الموزيون، على قدم المساواة مع الأكاديمية الأفلاطونية في أثينا، الوحدة الحية، النموذج والأصل، لكافة المؤسسات والجميعات العلمية في دائرتنا الحضارية. أما ورشة الدراسات الرئيسية فقد تمثلت في المكتبة، الواقعة، شأنها شأن مبنى وحديقة الموزيون، في حي القصور الملكية. ثم تأسست مكتبة ثانية، أصغر منها، ملحقة بمعبد الإله سرابيس، أي في الحي الغربي. يقدر عدد المجلدات في كلتا المكتبتين، في أوج الازدهار، أي أواخر عهد البطالمة، بما يزيد عن السبعمئة ألف مجلد. ثم تقلص هذا العدد نتيجة مختلف الجوائح التاريخية. الحقيقة أنه (وبعكس ما تناقلته الأساطير اللاحقة) خلال معارك قيصر في المدينة، عندما حوصر مع كليوباترة في القصر الملكي، لم تتعرض الكنوز الثقافية في المكتبتين لأضرار تذكر؛ لكنَّ المدينة بأسرها تلقت ضربات موجعة على أيدي الأباطرة، وخاصة الأحياء الأكثر ثراء فيها،

وذلك في القرن الثالث. ففي عام ٢٧٢ أمر أوريليان بتدمير جزء من المباني في منطقة القصور الملكية؛ ويرجح أن يكون الموزيون قد تحول آنذاك إلى أنقاض، وَفُقِدَ قسم من الكتب. أما المكتبة الصغيرة الملحقة بمعبد الإله سرابيس، فلم تُمَسَّ بأذى، وقد احتوت زهاء أربعين ألف مجلد. وبالرغم من ذلك، لا يستبعد أن يكون الموزيون، وإن فَقَدَ مقرَّه، قد استمر في وجوده الشكلي، ناقلاً من أحد أجيال العلماء إلى الجيل التالي، إرث الرابطة، والاسم، واللقب الفخري، وعلى أي حال، فإن أميان مرسيلينوس يُثَمِّن عالياً في المجلد الثاني والعشرين، الآنف الذكر، موقع الإسكندرية كمركز حيوي هام للمعرفة حتى عام ٣٩٠ . وهو يكتب قائلاً:

«حتى الآن لم يصمت في هذه المدينة صوت مختلف العلوم. فلا يزال أساتذةٌ شتى في العلوم يجدون متنفساً بشكل ما، وفرجار الأخصائي بعلم الهندسة ما زال بعدُ يكشف عمَّا هو خفي؛ كما لم تنضب بعد معرفة الموسيقا، ولم يصمت الإيقاع. إضافة إلى ذلك يستطيع البعض ـ الحقيقة أنهم قلَّة ـ تأويل حركة العالم والنجوم وغيرهم ضليعون في أمور الأرقام. بالإضافة إلى ذلك، يوجد نفر من ذوي الخبرة في ذلك الفرع من المعرفة، الذي يكشف سبل المصير. أما فيما يتعلق بالطب ـ ما أكثر حاجتنا إليه في حياتنا البعيدة عن التواضع والوعي! ـ فإن معهده يتطور يوماً بعد يوم إلى الأفضل وإذا ما أراد طبيب أن يثبت جدية معرفته (بالرغم من أن التجربة ذاتها توحي بها)، يكفي أن يصرح بأنه تعلم في الإسكندرية»(٤٤).

يمكننا أن نشير بالاسم إلى الرجل، الذي ربما كان أميان يعنيه وهو يكتب عن تلك الفئة المحددة القادرة على تأويل حركة العالم والنجوم، والمتمرسة في أمور الأرقام، والخبيرة أيضاً في المعرفة، التي تكشف سبل المصير. إنه ثيون، وقد تداخلت في بحوثه جميع العلوم والمعارف. الحقيقة أنه لم يتميز كمفكر مبدع وأصيل، لكنَّه بذل جهوداً مضنية في تفسير أعمال بطليموس الفلكية، ونشر مقالات إقليدس من جديد؛ وبينها تلك المتعلقة بالهندسة، البالغة الأهمية في تعليم الرياضيات ـ حتى يومنا الحاضر. كما عكف، شأنه شأن الكثيرين من معاصريه على العرافة والتنجيم؛ وقد كتب في التكهن عن طيران الطيور، ونعيق الغربان. والشيء الجدير بالاهتمام هنا هو: أن أحد مؤلفي القواميس البيزنطيين يشير بوضوح إلى أنه كان عضواً في الموزيون! أهو مجرد خطأ ومفارقة تاريخية (أي تصنيف كل عامل لامع في الإسكندرية في عداد أعضاء الموزيون، حتى عندما كان الموزيون قد اندثر)، أم أن تلك الهيئة العلمية، استمرت في وجودها حتى أيام ثيون، أي حتى أواخر القرن الرابع، أي إلى أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة ـ أو ظلّت قائمة جزئياً أو اسمياً على أقلّ

تقدير؟ على أي حال كان ثيون هو الرجل الأخير، العالِم الأخير في العالَم القديم، الذي يمكن أن يقال عنه، ولو بظلال ضئيلة من الاحتمال: كان عضو **الموزيون** الذائع الصيت.

يبدو أنه لم يغادر الإسكندرية بعد أحداث عام ٣٩١ . وعلى أي حال، سيكون القول بأن جميع العلماء ودعوا هذه المدينة العظيمة، مبالغةً وخطأً فادحاً. فالشيء ذاته، الذي قاله **أميان مرسيلينوس** عن الوسط العلمي هناك، وهو يصف مرحلة ما قبل عام ٣٩١ ، يمكن أن يقال عن الأعوام التالية، أو ربما عن القرن الخامس برمته. ولكن علينا أن ندرك، أن مستوى العلم والتعليم قد تراجع في الواقع العملي وهبط. لكن صوت مختلف المعارف لم يكن قد صمت بعد كلياً، ولم ينطفىء بعد نور المعرفة النظرية! أما مصير هؤلاء الوثنيين ـ العقلانيين، فقد اتخذ منحنىً مُروِّعاً في بعض الظروف. وخير مثال على ذلك مأساة ابنة **ثيون**.

كانت ابنة **ثيون** تدعى **هيباتيا**. لم يكن عمرها قد تجاوز عشرة وبضع من السنين أثناء اضطرابات عام ٣٩١ . ورثت عن أبيها موهبة في العلوم الرياضية واهتماماً بها، وكذلك وفاء مطلقاً للآلهة القديمة. ذاع صيتها بشكل خاص كامرأة واسعة الإطلاع على آراء مختلف المدارس الفلسفية؛ مالت إلى تعاليم الأفلاطونية المحدثة، وحظيت بالاحترام نتيجة معرفتها الواسعة، كما أثارت الإعجاب بالجرأة والحرية، التي دافعت بهما عن قناعاتها. يعترف بذلك حتى المؤلفون المسيحيون. من أشهر تلامذتها **سينيزيوس**، المتحدر من **سيرينايكا**، أي من **ليبيا** الحالية. اعتنق المسيحية في مرحلة متأخرة، كرجل متزوج. لم يتنازل أبداً عن بعض آرائه ـ حتى عندما أُرغم على قبول تعيينه أسقفاً في مدينة **بتوليمياس Ptolemias** في وطنه؛ كما أنه ظلّ ملتزماً بأسرته. اعترف علناً، وبكثير من العناد، بالقانون الوثني القائل، بأن العالم أزلي، وأن الروح موجودة قبل أن تلج الجسد. أما عن مدى أهمية **هيباتيا** بالنسبة له، فإن خير ما يطلعنا على ذلك، هي رسالة وجهها إليها بعد أن أقعده المرض:

> **«أُملِي إليك هذه الرسالة وأنا طريح الفراش ليتها تصلك وأنت في ثوب العافية ــ يا والدتي، وشقيقتي، ومعلمتي وولية نعمتي!»**(٤٥).

ومن حسن حظ هذا الأسقف ـ النصف الوثني أنه توفي قبل عام ٤١٥ بفترة وجيزة، دون أن يرى، أي موت رهيب أعدَّه أبناء عقيدته في الإسكندرية للمرأة، التي أبدى نحوها مشاعر على هذا القدر من السمو.

أثارت **هيباتيا** بقناعاتها مشاعر الكراهية لدى بعض الأوساط المتزمتة في سلك الإكليروس،

وعززت بمواقفها مقاومة بقايا المثقفين الوثنيين. وقد كرَّم هؤلاء المرأة العالمة كإلهة حقيقية، الشيء، الذي يمكن أن تعبر عنه قصيدة بهذا المعنى:

«عندما أراك وأسمعك، أخرُّ على ركبتيَّ، وكأنَّني أقف أمام المسكن النجمي للعذراء (استريا). لأن قضاياك تبلغ عنان السماء، يا هيباتيا المبجلة، معلمة الكلمة الجميلة، ونجمة مدرسة الحكمة الطاهرة»[٤٦].

ولتصفية الحساب مع خصم مقلق إلى هذا الحد، تم استغلال العلاقات المتوترة بين الوالي أوريستيس (المسيحي أيضاً!) والأسقف كيرليس: وإلى **هيباتيا** نُسِبَ ولو جزء من المسؤولية عن الوضع القائم.

هُوجمت هيباتيا من الجمهور المثار بقيادة محاضر يدعى بطرس، وهي في حمالتها في طريق العودة إلى المنزل. جُرَّتْ المرأة أمام إحدى الكنائس، وجُرِدَتْ من ثوبها، ثم طُعنت وأصيبت بجروح بالغة مميتة. أخيراً وفي ثورة جنون حقيقية، مُزِّقَتْ الجثة إلى أشلاء وأحرقت في النار ــ لإزالة كل أثر للمرأة المجدِّفة. قد تكون الحكمة تجديفاً!.

حدث هذا بعد ما يقارب ربع قرن من الأزمنة، التي نحن بصددها. فإذا افترضنا صدق المؤرخ البيزنطي في تصنيفه **ثيون** في عداد أعضاء الموزيون، سنجد أنفسنا أمام سلسلة من الأحداث، التي تكاد أن تكون رمزية: ففي أعوام انقضاء واختفاء المهرجانات الأولمبية في الحقبة القديمة، يبقى هو الرجل الأخير المعروف لنا بعضويته في الموزيون، في مدينته ومسقط رأسه، وذلك بالرغم من هزيمة الوثنيين عام ٣٩١ ، وبالرغم من تدمير أكبر المعابد؛ لكنه، وبصورة غير مباشرة، يُصْدِرُ ببقائه ذاك، الحكم بالموت على ابنته، التي ستقتل على أيدي الغوغاء عندما يحين الوقت.

هيلاريوس وسرابيس:

واجه قتلة **هيباتيا** ـ وكذلك أسقف الإسكندرية وبطريركها آنذاك، **ثيوفيل**، كمسؤول غير مباشر عن الجريمة ـ تهماً مختلفة وانتقاداً حاداً، حتى من جانب إخوتهم في الدين، ولكنَّهم لم يُمَسُّوا بسوء، لا بل تعزز موقع ثيوفيل ذاته في المدينة. فعلى حدِّ علمنا، لم يتعرض القتلة لأية عقوباتٍ ـ حكومية أو كنسية ـ وفي حقيقة الأمر، تمَّ الاقتصار على التذمرات الكئيبة والتنهدات الورعة. وهكذا على سبيل المثال، نقرأ لدى سقراط (عاصر مؤرخ الكنيسة هذا، كما أشرنا مراراً، هذه الأحداث!):

«ألقى هذا بكثير من اللوم على ثيوفيل وعلى كنيسة الإسكندرية، لأن القتل، والعراك، وما شابه ذلك من أعمال، غريبة تماماً عن الناس، الذين يعيشون وفق تعاليم المسيح!»[٤٧] .

هذا كل شيء.

أما الذين طالبوا بعقوبات أشد صرامة لأولئك، الذين قتلوا هيباتيا، فقد تلقوا جواباً من المسيحيين تمثل بسؤال، وكانوا محقين في ذلك:

ما العقاب، الذي تعرض له الوثنيون ـ القتلة؟ أولئك الذين قتلوا المسيحيين عام ٣٩١ أثناء الاضطرابات، عندما كان **تاتيانوس** و **سيماخوس** قنصلين؟ فالأديب **هيلاريوس** لا يزال حتى اليوم يتباهى علناً، أنه قتل بيده تسعة رجال ـ ولم تسقط شعرة واحدة من رأسه! وهو يقيم الآن بهدوء في العاصمة ذاتها، وما قام أحد حتى بمجرد استدعائه للمثول أمام المحكمة. وهو يمارس نشاطه ويجمع أكاليل المجد!.

هكذا كانت إذن بذار الشر، والتعصب والكراهية. فقد تلطخت بالدم أيادي معتنقي دين المحبة ومبجلي الآلهة القديمة، على حدٍّ سواء ـ وتحديداً في أعوام الأولمبياد الأخيرة! أما فيما يتعلق **بهيلاريوس**، فلم يُحَمَّلْ أية مسؤولية فعلاً. وكأن شيئاً لم يكن، علَّم الشبان على شواطىء البوسفور في العاصمة، وتحديداً الشبان المسيحين (ومنهم سقراط نفسه). وبعد أعوام كان له أن يحصل على كرسي «الأستذة» والامتيازات الرفيعة من يد الإمبراطور المسيحي! فمن أين جاءت هذه الحصانة التامة لقاتل علني في دولة تحكمها سيادة القانون، وتزداد ميلاً للعداء للوثنية يوماً بعد يوم؟ يبدو تفسير هذا اللغز بسيطاً نسبياً. أصدر **ثيودوسيوس** بعد اضطرابات الإسكندرية مباشرة مرسوماً نصَّ على العفو الشامل عن كل الجرائم المرتكبة أثناء معارك الشوارع في المدينة. أي العفو العام، وغير المشروط عن كلا الجانبين! وسوف نعود للحديث عن هذا الموضوع لاحقاً. كان لهذه الالتفاتة الكريمة أسبابها العقلانية أيضاً بطبيعة الحال.

أولاً: ذكرى مجزرة تسالونيكي التي كانت لا زالت بعد حديثة وما أسفرت عنه من إهانة شخصية، وقوية علنية في كاتدرائية **ميلانو**، دفعت الحاكم الآن للتصرف بحذر بالغ؛ فقد خشي أن يثير بصرامته ردود فعل أشدَّ خطورة في المدينة التي بلغ تعداد سكانها بضع مئات من الآلاف.

ثانياً: كان الذنب في إثارة القلاقل، واقعاً بكل تأكيد على عاتق المسيحيين، وخاصة الأسقف **ثيوفيل**؛ لم يكن الإمبراطور قادراً، بطبيعة الحال، على الاعتراف علناً وصراحة بذلك، ولذا اعتبر الوثنيين وحدهم مسؤولين عن الكارثة على الصعيد الرسمي، لكنه من الناحية العملية أعطى العدالة ما تستحقه، فشملهم بالعفو أيضاً.

بما أن سير التحليل قادنا ثانيةً إلى هيلاريوس، سوف نستعرض قضية أخرى مرتبطة به. يقول عنه **سقراط**: كان كاهن **زيوس**... ولكن يجب أن نضيف ونتمم: زيوس، **هيليوس**، **سرابيس**. إذ هكذا دُعي هذا الإله في عصر الإمبراطورية، وتشهد على ذلك نصوص كثيرة من منطقة **مصر** وبلدان أخرى. حيث أُطلقت عليه أسماء، ونُسبت إليه سلطات سيِّد الأولمب الهلنستي، وكذلك الشمس، أي بالإغريقية، **هيليوس**، الذي يخلق، ويحيي، ويرى كل شيء؛ فنال تكريمه على ضفاف النيل بهيئة الإله **رَعْ**، وفي **إيران** بهيئة الإله **ميثرا**. وهكذا كان الإله **سرابيس** في نظر أتباعه الكائن الأعلى والكلي الحضور، الذي أُطلقت عليه في مختلف البلدان والعصور أسماء متعددة ومختلفة. وأوضح الكهنة أن لا غرابة في ذلك، فتنوع الألسن، والعادات، والمعتقدات هائل! ولكن من أين جاءت تسمية سرابيس بالذات، وأين مصدر عبادته؟.

في المدينة المصرية **ممفيس** ـ كانت واقعة على مقربة من موقع القاهرة الحالية، ولكن في الجانب المعاكس، الغربي من النهر ـ ومنذ الأزمنة الغابرة والموغلة في القدم، تمَّ تكريم الثور المقدس **أبيس** Apis. كان في نظر أتباعه بمثابة تجسد للإله بتاح Ptah، وبعد الموت ـ هكذا اعتقدوا ـ يتحد مع **أوزيريس**. حُنِّطَتْ إذن جثث هذه الحيوانات بعناية فائقة، ووضعت للراحة الأبدية في نواويس حجرية، أُودعت في مدافن داخل سراديب تحت أرضية في أطراف الصحراء، بعد أن دُوِّنَتْ عليها بدقة معلومات عن طول الحياة الدنيوية للإله، وفي عهد من جاء ومتى رحل. تعود أقدم المدافن إلى مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وقد شُيِّدَ فيما بعد فوقها معبد مكرس **لأوزيريس أبيس**، أي كأنه مشترك للجوهر الإلهي لجميع هذه الحيوانات المقدسة. حظي الحرم باحترام شديد، وعبر قرون شدَّ جموع الحجاج.وبعد غزو **الإسكندر لمصر** وبسط نفوذه عليها، تقبل الهلنستيون أنفسهم إلى حدٍ ما عبادة الإله العجيب. وقد أطلقوا عليه اسم **أوزور** آبيس. ثم شاعت الصيغة المختصرة لهذا الاسم: سَرابيس أو سيرابيس.

وها هو الملك **بطليموس** الأول، مؤسس أسرة البطالمة الحاكمة، التي اتخذت من الإسكندرية

عاصمة لملكها، قد ارتأى بأن يصبح سرابيس موضوع العبادة المشتركة للشعبين الرئيسين في مملكته، أي الهلنستيين والمصريين؛ موضوع عبادة كرمز للرابط الديني ووحدة الدولة. يصعب اليوم تفسير السبب في وقوع الاختيار على ذلك الإله بالذات. فمن الحقبة القديمة شاعت روايات مختلفة عن هذا الموضوع، وكانت في معظم الأحيان زاهية الألوان في ظلال الفنتازيا؛ أما علماء اليوم، فليسوا على وفاق في الرأي. ولكن الأمر، الذي لا ريب فيه، هو اتخاذ قرار رسمي اقتضى إدخال عبادة جديدة.

ولكن إذا كان للهلنستيين أن يتقبلوا سرابيس ويتولعوا به حقيقة، فقد توجب عليه أن يخضع لبعض التحولات. وقبل كل شيء، محو السمات، التي ذَكَّرَتْ بارتباطه القديم بالثور المقدس أبيس. فبدأوا بعرضه كرجل في مقتبل العمر، ذو شعر غزير ولحية كثة، وعلى رأسه نمط من السلال الصغيرة؛ كان هذا مكيالاً للقمح، أي رمزاً للوفرة. في الصلوات، والإبتهالات، والتوسلات، تماهى سرابيس مع أشد آلهة الهلنستيين بأساً. فكان بالنسبة لأتباعه في الآن ذاته: **زيوس**، أب الآلهة والبشر؛ **بلوتون**، رب العالم السفلي وعالم الموتى؛ **أسكليبيوس**، صانع المعجزات والشافي؛ **ديونيسيوس**، الذي يقهر الموت ويمنح الحياة بهجة؛ **هيليوس** أي الشمس المشرقة.

أضحى المعبد الهائل والرائع في الإسكندرية، بدءاً من القرن الثالث قبل الميلاد، مركز عبادة **سرابيس** في هيئته الجديدة هذه. شيِّد على نحو متعمد في الحي الغربي، المعروف باسم **راكوتيس** Rakotis، والذي قطنه بشكل أساسي المصريون الأصليون، وقد ميَّز **أميان مرسيلينوس** الآنف الذكر، لدى وصفه المدينة، هذا المعبد بالذات عن كافة المعابد، التي شَرَّفَتْ عاصمة **مصر** الثرية:

> «يعلو معبد سرابيوم على غيره. تعجز الكلمات عن الرقي إلى عظمته. فيه قاعات فسيحة مرتكزةٌ على الأعمدة؛ وفيه تماثيل تكاد أن تتنفس، ويزدان بعدد لا يحصى من التحف الرائعة مما يجعل العالم بأسره لا يرى شيئاً جديراً بهذا القدر من الفخر، بعد الكابيتول، النصب الأزلي لروما المبجلة».

عندما كتب **أميان** هذه الكلمات عام ٣٩٠ ، كان المعبد لا يزال قائماً، يُزَارُ ويثير الإعجاب، وَتُقَدَّمُ فيه الأضحيات. لكنها كانت الأشهر الأخيرة لوجوده.

من هنا بالذات، من **سرابيوم** (معبد الإله سرابيس) في **الإسكندرية**، راح مجد الإله يشع على كافة بلدان حوض البحر المتوسط، بفضل البحارة، والتجار، والحجاج، والكهنة.

ويشهد على ذلك حتى يومنا هذا عدد كبير من الآثار والبراهين. ونعني بذلك الإيماءات الواردة في النصوص القديمة، وكذلك ـ وهذا قبل أي شيء آخر! ـ شتى التصورات التشكيلية، والنصوص المهداة أو المكرسة للإله باللغتين الإغريقية واللاتينية، التي نصادفها حتى في المقاطعات الغربية الأبعد موقعاً عن مصر: في **بريطانيا، إسبانيا**، وعلى ضفاف **الدانوب**. يجدر بنا الآن أن ننعم النظر إلى واحد من هذه النقوش؛ الأمر، الذي سيسمح لنا بلمس عدد من القضايا الأخرى المثيرة للإهتمام.

اكْتُشِفَ عام ١٩١٢ في **روما**، في موقع حمامات **كركلا** العامة الذائعة الصيت، أو بالأحرى تحت جزء من أنقاضها، اكتُشِفَ نوع من السراديب وملحقاتها. يشهد نمط المبنى بحد ذاته وبعض التفاصيل فيه على أنه كان حرماً لعبادة الإله ميثرا؛ وقد صمد عددٌ منها في وجه عوامل الزمن في روما ذاتها وفي كافة بلدان الإمبراطورية. انتصب في مدخل السرداب ما يشبه المذبح الحجري الصغير، المتواضع، والبسيط، أو ربما منصة ما للتَّقْدِمات؛ وهو الآن محفوظ في المتحف الوطني في روما[٤٨]. يتجاوز ارتفاعه الثلاثين سنتمتراً، وعرضه العشرين سنتمتراً، وسماكته الثمانية عشر سنتمتراً فقط. تظهر على جانبيه نصوص إغريقية؛ لكنَّ شكل الحروف يشير إلى أنها نُقِشَتْ في مطلع القرن الثالث بعد الميلاد. أي في عهد الإمبراطور **سيبتيموس سيفيّرا** أو ابنه **كركلا**. النص على الجانب الأمامي قصير ويقول: ((Heis Zeus Sarapis Helios Cosmocrator Aneicetos)) ويعني **«الوحيد زيوس سيرابيس هيليوس، سيّد العالم، الذي لا يقهر»**. ويمكن أن نلاحظ بيسر، أن اسم **سرابيس** تعرض للمحو في القرون الغابرة، ولكن ليس بدقة كافية، ونُقش عوضاً عنه اسم **الإله ميثرا**. أي أن أتباع هذا الأخير، استولوا ببساطة على مذبح مقدم لإله منافس بشكل ما. مما يشير إلى وجود تنافس، أو ربما عداء بين هاتين العبادتين، الإيرانية والمصرية. وقد نجم هذا عن جوانب تنظيمية، أكثر مما هو عن منطلقات لاهوتية. لم تتخذ النزاعات صيغاً دموية، وتجلت بشكل أساسي ببعض التصرفات الضئيلة الأهمية، كالإستيلاء على أدوات مرتبطة بالعبادة، أو اجتذاب أعضاء الجماعة المضادة إلى الجانب الآخر. وكان كل هذا بمثابة تمهيد ضعيف للصراعات الدينية الكبرى بين الوثنيين والمسيحيين، تلك الصراعات، التي كان لها أن تتحول إلى معارك حقيقية، رافقها تدمير المعابد ـ كما حدث في الإسكندرية عام ٣٩١ على سبيل المثال. وفي الحالة، التي نحن بصددها، ربما تمَّ الإستيلاء على المذبح بعد موت كركلا مباشرة، لأن الأخير تعاطف مع الإله سرابيس. أثبت ميثرا أنه أقوى، لأن عدد أتباعه في روما كان أكبر بكثير.

ماذا عن النص في الجانب الآخر؟ يدعو هذا بدوره للتأمل، فهو أطول بعض الشيء، لأنه يورد عدداً من العناوين الليثورجية، أو ربما مناجاة الآلهة. وتنص الترجمة على: **إلى زيوس هيليوس سرابيس العظيم، المخلِّص، واهب الثروات، مجيب الدعوات الكريم، الذي لا يقهر.** يلي ذلك لفظتان إغريقيتان ((Mithra Charisterion)). يثبت النص بما لا يرقى له الشك، أن المذبح كان في البدء مكرساً لسرابيس. ولكن كيف لنا أن نفهم الكلمات الأخيرة؟ تبدو جلية من الناحية الظاهرية: فلفظة Charisterion تعني بالإغريقية تقدمة شكر. لكن الصعوبة تكمن في اسم ميثرا. أهكذا كان يدعى المضحي (أي: إلى سرابيس.... إلخ. ميثرا تقدمة شكر - يفترض أن تليها كلمة يقدم)، أم أن الأمر يتعلق بلقب آخر من ألقاب سرابيس في الإبتهال (وفي هذه الحالة يجب أن يترجم - إلى ميثرا)؟ وعلى أي حال، فإن اللغة الإغريقية تسمح بالتأويلين.

لنعد ثانية إلى الكلمات المعدودة على الجانب الأمامي! فعلى الرغم من أنها مقتضبة، يستطيع مؤرخ الديانات أن يستنبط منها مضامين كثيرة. فأمامنا هنا صورة معبرة للظاهرة المعروفة في لغة العلم بالتوفيقية؛ وَيُفْهَمُ بهذا المصطلح عملية دمج وتقريب العبادات وهيئات الآلهة المستقلة كلياً في بادىء الأمر، الكثيرة الحضور في الحياة الدينية للإمبراطورية الرومانية. كما يُعَدُّ النص المذكور شهادة رائعة على ارتقاء المعتقدات آنذاك باتجاه التوحيد: فالله واحد بالرغم من أن أسماءه متعددة وأخيراً، ليست عديمة الأهمية مخاطبة النص - الذي تمَّ العثور عليه في روما - لنا بلغة الهلنستيين. فهي تثبت بأن أتباع الإله الشرقي، حتى هنا في الغرب، في عاصمة الإمبراطورية بالذات، تجندوا بشكل أساسي من صفوف الناس ذوي الأصول الإغريقية، أي أنهم انتموا إلى طبقات المجتمع الدنيا؛ فكانوا بشكل رئيس من العبيد، والمعتقين، والحرفيين، والتجار، والمعلمين، والموظفين. ولم تكن أوضاع العبادات الأخرى القادمة من الشرق مختلفة عنها؛ بما في ذلك المسيحية.

نكتفي بهذا القدر فيما يخص النص والنتائج المستخلصة منه. ولنتذكّر الآن، بأن سرابيس ظهر لأتباعه الأوفياء في الأحلام أيضاً. هذا ما يقوله أرتيميدور الدلديسي في «تفسير الأحلام» المنوّه عنه آنفاً:

> «إذا شوهد سرابيس في الحلم (أو بعض آلهة مصر الآخرين، مثل إيزيدا، وأنوبيس، وهوبوكراتيس) شخصياً أو على هيئة تمثال، أو طقوسه السرية، ففي ذلك دلالة على حدوث قلاقل، ومخاطر، وتهديدات، وأوضاع حرجة؛ لكنّه،

وبعكس كل التوقعات، سيرسل النجدة. لأن سرابيس، وكذلك آلهة مصر الآخرين، هم دوماً بمثابة منقذين للأفراد، الذين وُجِدُوا في أوضاع ميئوس منها»[٤٩].

العمود الأخير:

ما الذي بقي إلى أيامنا من المركز الرئيسي للعبادة التي كانت ذات يوم تتمتع بالحيوية والتي بلغ نفوذها أطراف الإمبراطورية؟ وما الذي بقي من معبد **سرابيس في الإسكندرية**؟ ذلك المعبد، الذي أثار الاعجاب في الحقبة القديمة عبر أجيال وقرون ـ منذ أيام الملوك البطالمة الأوائل وحتى أيام الدورة الأولمبية الأخيرة في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس؟ الجواب بسيط وحزين في آن واحد؛ لا شيء ـ أو ما يكاد أن يكون لا شيء.

هناك، حيث امتد يوماً الحرم الهائل والرائع، ينتصب اليوم عمود معزول واحد فقط. أجل، إنه مهيب وفائق الجمال. فالجزء الأسطواني المنحوت من الغرانيت الأحمر، الأملس الرائع، يبلغ ارتفاعه اثنين وعشرين متراً؛ أما التاج والقاعدة، فقد أُنجزا بقدر أقل من الإتقان، وفي مراحل لاحقة متأخرة. يعرف الآن، ومنذ أمد بعيد بعمود **بومبيوس**؛ الشيء، الذي يمكن أن يعني، أنّه ذكرى ما لأيام **بومبيوس** أو لموته، ذلك القائد العظيم، خصم **القيصر**. وفي واقع الأمر، فإن النصّ الإغريقي على القاعدة يقول: بأن العمود نُصِبَ تكريماً للإمبراطور **ديوقلتيانس**، أي في أواخر القرن الثالث. أما اسم الوالي، الذي أَنْجَزَ العمل، فهو ممحوٌّ في الوسط، ولا يرى منه سوى الأحرف الأولى ((Po)) والأخيرة ((os))؛ فربما أُكملت الكلمة وقرئت ((Pompios)) خطأً، إذ لم يكن لمصر آنذاك والياً بهذا الاسم. وفي تلك المرحلة بالذات أُنجزت القاعدة والتاج؛ ومن المؤكد أنه تمّ تثبيت تمثال الإمبراطور فوق التاج، لأن الثقوب، التي أُدخلت فيها نتوءات التثبيت لا تزال محفوظة. لكنَّ أسطوانة العمود المشغولة بمهارة تبلغ حد الكمال من وجهة نظر النحت والعمل في الحجارة وصقلها، فهي أقدم بكثير. ولا ريب في أنها مأخوذة من غابة كاملة من الأعمدة المماثلة، التي ازدان بها سرابيوم (معبد الإله سرابيس)، وحملت قناطره وقاعاته الفسيحة. نقل المؤلف العربي، الذي عاش في العصر الوسيط معلومة مستندة إلى معطيات محلية، تقول أن عدد هذه الأعمدة بلغ الأربعمئة في حينه! وهذا أمر ممكن ومعقول تماماً. إذ ربما أُحصيت أيضاً الأعمدة الموجودة في مبنى المكتبة القريب؛ تلك المكتبة الأصغر، التي احتوت على ما يزيد عن **الأربعين ألفاً من المجلدات**.

بوشر بأعمال التنقيب الأركيولوجي هنا منذ القرن التاسع عشر، ومن ثم بعد الحرب العالمية الثانية. ومنذ أيام الحفريات الأولى، تمَّ اكتشاف العديد من آثار الفن المعماري، والمنحوتات، والزخارف المثيرة للاهتمام وكذلك الكثير من بقايا الأعمدة المنحوتة من الغرانيت الأحمر، وهذا ما يثبت مقولة الكاتب العربي. كما تمَّ العثور على تماثيل نصفية لسرابيس منحوتة من الغرانيت الأسود، وكذلك على أهرامات صغيرة من الصخر ذاته؛ نُقشت عليها أسماء الإله والإمبراطور هدريان. واستخرج من وسط الأنقاض عام ١٩٠٦ سفينكسان إثنان من الغرانيت الأحمر، وهما يقفان الآن إلى جانب العمود؛ يرجح أنهما كانا يحرسان يوماً أحد المداخل إلى الدائرة المقدسة. كما عُثِرَ على سراديب أرضية، توجد في جدرانها محاريب أُودعت فيها الجرار الحاوية على رماد جثث الموتى من أتباع الإله بعد حرقها. يبدو أن روفين المسيحي، المنحدر أصلاً من أكويليا، الكاتب ذو القلم الغزير، ومُتَرْجم الأعمال الإغريقية إلى اللاتينية، كان مقيماً في الإسكندرية إبَّان اضطرابات عام ٣٩١ ؛ وقد نقل وفرة من المعلومات عن مظهر سرابيوم، ومنها، أنه سُقِفَتْ تحت الأرض سراديب وممرات طويلة وبعض الحجر، أقيمت فيها المراسيم والطقوس السرية؛ وهذا ما أثبتته الحفريات الأركيولوجية. ولكنَّ كل هذا أقل بكثير مما يمكن له أن يغري بمجرد التفكير بإعادة بناء ـ ولو مبسط ـ لكامل المبنى أيام ازدهاره.

تدفع بعض الصياغات والتعابير في الروايات القديمة، وكذلك بعض الأعمال المعاصرة المعتمدة عليها، تدفع بالقارىء للاعتقاد، بأن سادة سرابيوم الجدد، المسيحيين، هدموه نهائياً حتى الأساس. فالخواء والأنقاض المحيطين الآن بالعمود المعزول، هما من نتاج عملهم. لكنَّ تفكيك مبانٍ بذلك القدر من الضخامة، يبدو أمراً غير ممكن ولو لأسباب تقنية بحتة. أجل، وبكل تأكيد، لقد جُرِّدَ المعبد من الأشياء الثمينة، أو التي أمكن اعتبارها بمثابة أدوات وتصورات للأرواح الشريرة. ربما هُدِّمَتْ هذه القاعة أو تلك في المعبد، المدنسة في نظر المحتلين بممارسات نجسة. لكنَّ أسوار سرابيوم ظلَّت كما هي ولم تُمَسْ.قام المسيحيون بتحويل قسم من الحُجرات بما يتلاءم وأغراضهم، حوَّلوها إلى كنائس وصوامع للرهبان، وَتُرِكَ ما تبقى بدون عناية ولرحمة القدر: الزمن أولاً، ومن ثم المحتلون العرب، أنجزوا ما تبقى.

أما حلية سرابيوم الأثمن، تمثال الإله، فقد حُطِّمَ فعلاً، على نحو متعمد وواعٍ، كي يكون عبرة؛ وربما تمَّ هذا في اليوم ذاته، الذي غادر فيه المدافعون المكان المتميز بكلِّ ذلك القدر من القدسية في نظرهم.

تمثال الإله سرابيس:

في عام ٣٩٣ ، أي بعد مرور عامين على أحداث الإسكندرية، وُلد في أنطاكية الحاضرة السورية، صبي يدعى **ثيودوريت**. كان له أن يصبح كرجل في الثلاثين من عمره أسقفاً لبلدة **سيروس** في هذه المقاطعة. وقد ذاع صيته كلاهوتي، وكاتب، ومؤلفِ «تاريخ الكنيسة». الشيء الملفت للنظر، هو ظهور عدد كبير من الأعمال، التي عالجت هذا الموضوع في تلك المرحلة؛ فقد تطلعت الحركة الدينية الظافرة بفخر إلى ماضيها، كما أن الأمور الجارية، أي القضاء على الوثنية، والنزاعات العقائدية في أحضان الكنيسة ذاتها، بدت من القضايا الجديرة بأن تُخَلَّد. جميع هذه «التواريخ» ـ تلك، التي أسلفنا ذكرها، والتي قد نشير إليها فيما بعد ـ، ارتبطت شكلاً ومضموناً بالعمل المهيب، الذي ألَّفه **يوسيبيوس** القيصري، الأسقف والكاتب المعاصر **لقسطنطين** الكبير. ولنلفت النظر أيضاً إلى أنه هو وخلفاؤه، هم في الحقيقة مَنْ ابتكروا فرعاً جديداً تماماً من فروع التاريخ؛ إذ ليس موضوع بحوثهم المختار تاريخ دولة، أو بلد، أو مدينة، أو أسرة حاكمة ما، وإنما نشوء حركة ما وصيغها التنظيمية. ولهذا السبب، يجب أن يتذكرهم حتى هؤلاء المؤرخون، الذين يكرسون أعمالهم لماضي شتى الحركات، والتيارات، والمنظمات؛ بما في ذلك المعادية منها مبدئياً للمسيحية.

تغطي المجلدات الخمسة «لتاريخ الكنيسة» المدونة بقلم **ثيودوريت**، القرن الرابع ومطلع القرن الخامس حتى عام ٤٢٨ بشكل أساسي. وليس هذا أفضل أعماله ـ على صعيدي الأسلوب والمضمون. لكنه يحتوي الكثير من المعلومات والوثائق الهامة غير المعروفة. وعلى الرغم من أنها ليست جميعها جديرة بالثقة التامة، فهي تعكس جيداً عقلية، وتزمت، وروح العدوانية لمسيحيي ذلك العصر. يمر المؤلف باختصار على أحداث عام ٣٩١ في الإسكندرية، لكنه يسهب في الحديث عن حدث جزئي ـ ثانوي في جوهره ـ منها، وتحديداً عن تحطيم تمثال **سرابيس**. وها هو مضمون روايته:

لم يقتصر الأسقف ثيوفيل على تدمير معابد الوثنيين وتسويتها مع الأرض، محرراً بذلك المدينة من أخطاء عبدة الأوثان، بل كشف أمام المخدوعين مختلف الألاعيب، التي أغواهم بها الكهنة. وكان من بينها تحديداً تلك التماثيل المجوفة من الأخشاب أو المعادن التي وضعت وثُبتت بعدئذ بحيث أُسندت ظهورها للجدران في الأمكنة، التي احتوت على

ممرات سرية. فتمكنوا من المرور عبر ذلك الجزء من المعبد، الذي لا يسمح للعامة بدخوله، والولوج إلى هياكل الأصنام الفارغة؛ ومن هناك أصدروا الأوامر بأصوات بدت وكأنها كلمات الآلهة بالذات. ولذلك نَفَّذ المستمعون بطاعة عمياء كل ما أُمروا به. كشف الأسقف آنذاك عن مثل هذه الأفعال أمام الشعب المخدوع منذ أمد بعيد، ووضع بذلك حداً لشتى أنواع الشعوذة.

تمكن ثيوفيل في نهاية المطاف من دخول معبد سرابيس؛ وكان في رأي الكثيرين واحداً من أفخم وأروع المعابد في العالم. وجد هناك تمثالاً هائلاً للإله؛ على قدر من الضخامة، أثار معه الدهشة وبث الرعب في النفوس بأبعاده وحدها. وقد تعاظم هذا الإنطباع البصري الأولي نتيجة خرافة كاذبة منقولة ومتداولة منذ قرون؛ هددت؛ بأنه إذا اقترب أي كان من التمثال بنوايا عدوانية، سوف ترتعد الأرض في الحال، ويتعرض كل شيء موجود على سطحها للدمار. لكنَّ الأسقف أدرك جيداً أنَّ هذا ليس سوى لغو سخيف تتناقله النساء العجائز والمدمنات! ولم يتملكه الرعب من ضخامة التمثال أيضاً. أمر احد مرافقيه بأن يهوي بفأسه على التمثال بجرأة. ومع الضربة الأولى انطلقت صيحة الرعب من حناجر الحضور. لكنَّ شيئاً لم يحدث. لم يكن تمثال سرابيس ـ هذا ما رآه وفهمه كل فرد ـ سوى أخشاب ميتة. ولما انفصل الرأس عن الجسم، خرجت منه مجموعة كبيرة من الفئران. وبعد ذلك، تمَّ تقطيعه إلى أجزاء صغيرة وأُحرق. أما الرأس، فقد جُرَّ في شوارع الإسكندرية كلها، ليتمكن جميع عبدة سرابيس من مشاهدة تلك الإهانة، ويتأكدوا بأم أعينهم من مدى عزلة وضعف ذلك الإله، الذي آمنوا بحرارة بقدرته اللا محدودة(٥٠).

يصعب ألاَّ نعيد إلى الأذهان هنا، أن النصوص ـ كتلك التي تحدثنا عنها بإسهاب من قبل ـ غالباً ما نعتت سرابيس بِسَيِّدِ العالم، الذي لا يقهر. وأن أمثال هذه العبارات كانت لاتزال ماثلة بوفرة أمام أعين مسيحيي الإسكندرية، مما فسح أمامهم مجالاً رائعاً للتهكم وإطلاق صيحات كهذه:

ـ كن ملكاً علينا الآن، يا سيِّد العالم، الذي لا يقهر!

تستحق رواية ثيودوريت الاهتمام لسببين على الأقل، هما:

أولاً، تصور جيداً تصعيد حدة التعصب الديني. فيا للحماس، الذي حُطِّمَتْ به أروع التحف الفنية. واعتبر هذا بمثابة عمل يستحق الثناء! تجدر الإشارة في هذه المناسبة، إلى أن

تكريم الصور والتماثيل الدينية، كان قد بدأ ينمو حديثاً في أحضان المسيحية رغم أنه كان من بين الأمور، التي رأت فيها الديانة الجديدة سموها وتفوقها على غيرها، هو رفضها تمجيد الصور والتماثيل، باستثناء بعض العلامات والرموز. أما السلطات المدنية، فقد نظرت بكثير من عدم الإكتراث لتخريب كل ما ارتبط بالعبادات الوثنية. ومن الناحية العملية، توقف الكثير من الامر على ميول ومواقف كبار موظفي المدن والمقاطعات؛ أما هؤلاء، وإن كانوا في قلوبهم أوفياء لديانة الآباء، إلّا أنهم لم يتجرؤوا على الدفاع علناً عن منحوتات المعابد، وذلك تلافياً لغضب الإكليروس المحلي، وغيظ البلاط.

لا ريب في أن تمثال سرابيس العملاق، الذي قُطِّعَ وأُحرق بناء على أوامر الأسقف ثيوفيل، كان أثمن الأعمال الفنية في الإسكندرية. ولو لمجرد قدمه؛ فقد كاد عمره أن يبلغ السبعمئة سنة في لحظة تحطيمه. واعتقد أنه من إبداع رائد فن النحت برياكسيس؛ هذا ما أكدته التقاليد القديمة بالإجماع، وما يقتنع به الكثيرون من العلماء المعاصرين. نعرف شكله بفضل النسخ المقلدة، ومن خلال الوصف جزئياً. جلس الإله على العرش وكأنه زيوس، أبو الآلهة والبشر وضع يده اليمنى على رأس الكلب سيربر Cerber، الشيء، الذي يرمز إلى أنه حكم عالم الموتى أيضاً، وقبض بيده اليسرى على صولجان ملكي طويل. بدا جاداً، ووقوراً، وعطوفاً، وهو يتطلع بشكل مباشر إلى الذين تخطوا عتبة المعبد. لم تكن هيبة التمثال العملاق نابعة من أبعاده فحسب، وإنما من المستوى والذوق الرفيع في الإنجاز أيضاً، وكذلك من المواد الثمينة المستخدمة في صنعه. فقد غَشَتْ صفيحة مذهبة الهيكل الخشبي، وَرُصِّعَتْ بالعديد من الحجارة الثمينة؛ لا ريب في أنها انتظمت في أشكال ونماذج معينة. ولكن يمكن الاشتباه بأن كل ما كان ثميناً وقع في وقت مبكر نسبياً ضحية النهب العادي والرسمي؛ يحتمل أن تكون ممارستها قد تكررت مراراً في سرابيوم في العهود الرومانية.

ما هو السبب الثاني، الذي يستدعي تَذكُّر رواية ثيودوريت؟ يمكن صياغته على النحو التالي:

تشكل رواية ثيودوريث عنصراً أو ربما واحداً من مصادر الفكاهة الشائعة في حينه؛ والتي ربما تردد في يومنا الحاضر. تستعرض هذه النكات بأسلوب أَقَلَّ أو أكثر تشويقا، الألاعيب، التي لجأ إليها الكهنة الوثنيون لخداع الجماهير البسيطة والساذجة: ممراتٌ سرية، أصوات غريبة صادرة من داخل تماثيل مجوفة تبعث الرعب في النفس؛ آلات تحرك أيادي، وأقدام، وأعين الأصنام؛ وقع وتأثير الإنارة المباغتة، والظلمة المفاجئة أيضاً؛ تمثيل دراما كاملة في

عتمة المعابد، وكأنها من نمط مشاهد «النور والصوت» المعاصرة في مسارحنا. قد يتضمن كل هذا شيئاً من الحقيقة. ربما استخدمت في بعض أوساط المعابد هذه الأساليب أو تلك، للتأثير على مخيلة «الصغار»، لكن هذه الظواهر كانت جانبية وثانوية، وعديمة الأهمية، وعرضية إلى حد ما في التيار الرئيس للعبادات الوثنية وطقوسها. أما الدعاية المسيحية المنظمة والعنيدة، فقد ضخمت أشياء صغيرة وعديمة الشأن وتهكمت منها؛ وفعلت هذا انطلاقاً من دوافع مفهومة وجلية. ولذلك يصبح من الضروري أن تتساءل:

مَنْ كان، أو مَنْ هو أكثر سذاجة في هذا الموضوع؟ هؤلاء الوثنيون البسطاء، الذي يُزْعمُ أنهم خُدعوا عبر قرون طويلة من قبل الكهنة الغادرين، أم هؤلاء الذين يرددون دون تفكير حتى أيامنا هذه، قصصاً متحيزة بهذا القدر من الصراحة ويضفون عليها بعض الألوان الزاهية من مخيلاتهم؟

هذا إذا لم نتطرق إلى جانب آخر في هذه القضايا، وتحديداً إلى سخرية القدر العجيبة (لأنها موجودة، حقيقة **نيميزيس** Nemezis موجودة، إلهة النقمة التاريخية، التي لا ترحم!): فها هو السلاح، الذي حارب به المسيحيون القدماء عبدة الأصنام، ينقلب في لحظة تاريخية معينة، عندما آن الأوان، ضدهم! فالنكات الساخرة اللاذعة، اللعنات المدورية، التي أهانت يوماً عبدة الأصنام، استخدمت كمادة جاهزة من قبل المناضلين في سبيل إصلاح الكنيسة أولاً، ومن ثمَّ من قبل مختلف الكتاب المعادين لشتى أنواع الديانات القديمة والتقليدية. أما أثناء تبرير «عبادة» وتكريم الصور والتماثيل الدينية، فقد لجأ المدافعون المسيحيون، وخاصة الكاثوليك، إلى الذرائع ذاتها، التي استخدمها الوثنيون في حينه لتبرير تسجيل صور آلهتهم وإلاهاتهم. إنه لموضوع يستدعي الكثير من التأمل!.

ثمة ملاحظة آخرى تمسُ قضية جوهرية على الصعيد الثقافي، وترتبط بصورة غير مباشرة بتمثال سرابيس. التحطيم المسعور، والتقطيع، والصهر، والحرق، كل هذه الأشياء، التي راحت ضحيتها تماثيل وصور الآلهة، حدثت بشكل رئيس في الشرق. وهذا أمر مفهوم: فهنا، تجمَّع منها عبر القرون كمٌ هائل، وهنا بلغ الفن أرفع مستوياته، وأخيراً، هنا شعرت الكنيسة بأنها الأقوى، وتجلى تصعيد العواطف والنزاعات الدينية بأبهى صوره: فجميع الهرطقات الكبرى، وكذلك المثل العليا لحياة التقشف، والزهد، والتنسك استمدت بداياتها من المقاطعات الشرقية الإغريقية للإمبراطورية. اعْتُبِرَتْ جميع أصناف «الأصنام» في هذه البلدان ملعونة، وخطرة بجوهرها ومظهرها، ولذلك أزيلت على نحو غير مشروط. وبهذا تفسر حقيقة معروفة على نطاق واسع، ولكن نادراً ما تُحَلَّلُ نشأتها: ففي الكنائس الشرقية،

سُمِحَ عبر قرون بتكريم الصور، أي الإيقونات (وإن تكررت موجات عنيفة من تحطيم الصور)، ولكن لم يوافق أبداً، وتحت أي مظهر من المظاهر، على نصب أية تماثيل أو منحوتات نافرة. قلّما يدرك الناس كم كانت مهلكة وبعيدة المدى نتائج هذا الشيء على طيف واسع من الإبداع الفني. فالشرق الإغريقي، الذي كان رائد فن النحت عبر قرون طويلة، عبر الحقبة القديمة بأسرها، وقدَّم تحفاً خالدة بحق، الشرق الإغريقي هذا أضحى ميتاً، فاقداً للروح من وجهة النظر هذه ـ ولا يزال على هذه الحال حتى اليوم. أما في الغرب، فقد اتخذت هذه الأمور منحى مختلفاً. فهناك، نادراً ما اتخذت الأمور صيغ مشاهد مسرحية كتحطيم تمثال سرابيس، ولذلك لم تنشأ، إن صحَّ القول، أية عقدة للتحسس الزائد والأحكام المسبقة بالنسبة للفنون التشكيلية، وَسُمِحَ بمرور الزمن، بوجودها وتكريمها في الكنائس؛ مثلما اعتاد الناس منذ أمد بعيد، وتحديداً منذ أيام السراديب، على وجود مظلمات ولوحات جدارية في أمكنة الصلاة.

ثمة، في كل حقبة، قلَّة قليلة من الأفراد المدفوعين برغبتهم المستقلة في مراقبة وإدراك مغزى انعطافات ذلك النهر النزوي، المعروف إصطلاحاً بالعملية التاريخية، والنابع من أحشاء الجبال المظلمة والمبهمة، ليصب في المحيط المجهول على حدود البعيد الغامض. وبالنسبة لهذه القلَّة يجب أن يكون تأمل جوهر الظواهر، التي نحن بصددها مصدر عزاء داخلي لاعتبارات شتى.

أمونيوس و القرد:

لن نصدق إذن بصورة تامة رواية ثيودوريت عن تماثيل الآلهة، إذ أملتها الرغبة في تشويه كل ما هو وثني. ولا بد من التزام جانب الحذر، أثناء الحديث عن تلك الحقبة من الصراع بين الديانتين. تتضمن معطيات المراجع كثيراً من سوء الفهم بين الجانبين، ولم ينجم هذا الشيء دوماً بسبب سوء نوايا المؤلفين. فمن السهل أن نرفض فرضية ما، على أنها تزييف أو بدعة، مع العلم أنها تخفي شيئاً من الحقيقة. ولنذكر على سبيل المثال صديق **هيلاريوس**، استاذ الأدب المدعو **أمونيوس**! فهو أيضاً فرَّ من الإسكندرية عام ٣٩١ ، واستقرَّ فيما بعد على نحو دائم في القسطنطينية، ومارس مهنة التعليم. الحقيقة أنه لم يؤدِ خدمة كافية، أو لم يستحق نيل لقب «أستاذ» ولكن بالرغم من ذلك، له مكانته في تاريخ الأدب. فقد ترك عملاً قيّماً ومفيداً في كل الأحوال: قاموس المرادفات، أي الألفاظ المتماثلة في المعنى، في اللغة الإغريقية. ليس هذا عملاً أصيلاً بالمعنى التام، لأنه، وإلى حد بعيد، تصنيف لأعمال

أسلافه، لكنه يقدم الكثير من المعلومات اللغوية، ويعد العمل بمثابة شهادة حسنة، أقلّه، على إطلاع ونشاط المؤلف، لكنَّ القضية الأكثر إثارة للاهتمام بالنسبة لنا، هو موضوع كهنوته. فلنتذكر أنه طبقاً لرواية سقراط، كان يخدم **الإله القرد**، مثلما كان هيلاروس كاهن **زيوس**!.

تراودنا الرغبة في استبعاد هذه الفرضية، المنقولة على لسان مسيحي ومؤرخ للكنيسة، كافتراء عادي. أليس أمراً طبيعياً ـ أن يقال ـ أنها تلفيق بهدف التهكم من الخصم وجعله محطَّ سخرية؟ لكنّ مثل هذه النظرة للموضوع، وفي هذه الحالة المحددة، ستكون خاطئة في الاساس! **فالقرد**، وتحديداً **الرُباح** (أطلق عليه الإغريق اسم كينوكيفالوس Cynocephalos، أي ذو رأس الكلب، نظراً لشكل خطمه المميز)، لعب دوراً هاماً في العبادات المصرية المحلية الموغلة في القدم. وكان في أقدم الحقب إلهاً ذاتي الوجود. ثم صُنِّفَ في عداد الحيوانات المقدسة، أو ربما في عداد تجسدات الإله **ثوت**، وماثله الإغريق فيما بعد بإلههم **هرمس**. إذن، كان **ثوت** المصور بهيئة الطائر **إيبيس Ibis**، أو **الرُباح** في بعض الأحيان. يجلس الأخير وعلامات الجِد بادية على وجهه، ويثبت يديه (أو قوائمه الأمامية بالأحرى) على ركبتيه، ويحمل على رأسه قرص الشمس. وَكَرَبٍّ لكافة المعارف، كان ثوت ـ الرُباح ذاك، شفيعاً لجميع أصحاب المعارف وبشكل خاص للكُتّاب، والعلماء والموظفين. وهو بالذات، **ثوت الحكيم**، الذي كان القرد رمزاً له، هو مَنْ خدمه المعلم **أمونيوس**! كان إذن شيء من الحقيقة وشيء من سوء الفهم، فيما أشيع باستياء في القسطنطينية عن كهنوته المضحك فيما بعد. ومن السهل أيضاً أن نفهم تذمر وشكوى **أمونيوس**، من أن الأسقف ثيوفيل أمَرَ، وهو يحطم التماثيل، بالاحتفاظ بتمثال القرد فقط، رغبةً منه في إطلاع الأجيال القادمة على ما كان يعبده الوثنيون.

أما أتباع الآلهة ـ الأوسع أفقاً بينهم، على أقل تقدير ـ، فقد نظروا إلى تحطيم التماثيل، ورموز، ومواضيع العبادة بألم عميق، لكنهم حافظوا على قناعة مفعمة بالفخر والاعتزاز، بأن ما مجدوه حقيقة في الأشكال المادية، غير قابل إطلاقاً للتحطيم أو التدنيس. وعن هذا الإحساس تحدثنا رواية جميلة. وهي جديرة بأن تصدق، وبخاصة أن ناقلها مؤلف مسيحي يدعى **سوزومينوس**. وهو أصغر من **سقراط**، الذي استشهدنا به مراراً على صفحات هذا الكتاب، بما يقارب العشرة أعوام، وربما كان من أتراب **ثيودوسيوس**. كان **فلسطيني** الأصل، من منطقة **غزة**، لكنه استقر على نحو نهائي في **القسطنطينية** بعد العديد من الرحلات والتنقلات. كان رجل قانون ومحامياً، إلاّ أنه في موضوع دراساته وأعماله الكتابية، اختار تاريخ الكنيسة خلال القرن الأخير؛ وعلى وجه التحديد، منذ عام ٣٢٣ وحتى عام ٤٢٥ .

نهل بوفرة من سقراط، الذي نشر كتابه من قبل، لكنه قام بتوسيعه في بعض النقاط؛ إذ صدف أن كانت لديه معطياته الخاصة فيما يتعلق ببعض المواضيع.

اضطرابات في الإسكندرية:

الرواية الثانية:

يروي **سوزومينوس** في المجلد السابع من «تاريخه» قائلاً: بعد ذلك الهجوم الدموي على المسيحين وبعد خوض معارك الشوارع انسحب الوثنيون إلى معبد الإله سرابيس المهيب والرائع، المشيد فوق تلة صغيرة؛ وهناك تَحَصَّنوا. ومن هذا المكان شنوا هجمات مباغتة على المدينة، وكأنه من داخل حصن منيع. ألقوا القبض بغتة على خصومهم، وباللجوء إلى شتى ألوان التعذيب، أرغموهم على تقديم الأضاحي للآلهة. وسمَّروا، الذين امتنعوا على الصلبان، كسروا عظام أطرافهم، وأخضعوهم لألوان التعذيب. استمرت الحالة على هذا النحو طويلاً. وفي نهاية المطاف ناشد موظفو الإمبراطورية الأرفع مقاماً، وتحديداً، الوالي **يواغريوس** وقائد الجيوش **رومانوس** شخصياً ناشدوا المتمردين ايقاف اعمالهم. طالب المسؤولان طبقاً للقوانين بوقف المعارك ومغادرة المعبد وإخلائه. لكن هذا لم يسفر عن أية نتيجة ولم يكن له أن يسفر، فالمتحصنون في سرابيوم، كانوا مدفوعين للصمود بمجرد تصورهم لهول الجرائم، التي ارتكبوها؛ كان يُعزز الروح المعنوية لديهم فيلسوف يدعى **أوليمبوس**، ظلَّ مقيماً معهم في المعبد بشكل دائم. نصح، ورغَّب، واستحلف بأن لا يسمحوا بإهانة المقدسات، التي مجدَّها آباؤهم مهما كانت الظروف، وأنه في حالة الضرورة القصوى لا بدَّ من الموت في سبيل الدفاع عنها! لكنه رأى بكثير من الألم بأن قلب التماثيل رأساً على عقب وإلقائها على الأرض، زعزع إيمان شركائه في العقيدة، بوجود الآلهة بحد ذاتها وبأحقية قضيتهم؛ حيث لم يتعرض، الذين حطموها لأي عقاب! فحذَّر من الابتعاد عن مواضيع العبادة المقدسة لأسباب على هذا القدر من عدم الأهمية، قائلاً:

> **ما هي التماثيل وكافة الهيئات والصور المادية للأرواح الخالدة؟ إنها مجرد مادة عادية، قابلة للتحول إلى عدم. أجل، تَحُلُّ في هذه التصورات الإلهية**

طاقات عجيبة، لكنها في اللحظة الملائمة، عندما يتهدد الخطر محاريبها الأرضية، تحلق نحو السماء.

في هذه الأثناء عَلِمَ الإمبراطور باضطرابات الإسكندرية. فوجه رسالة ملائمة إلى سلطات المدينة وسكانها. أعلن فيها أن المسيحيين، الذين قُتلوا في المعارك الدائرة في الشوارع مباركون، لأنهم نالوا شرف ومجد الشهادة، مفضلين إيمانهم على الحياة. كما أمر بالعفو عن جرائم القتلة؛ وقد فعل هذا متوقعاً أنهم سيدخلون أفواجاً في الديانة الجديدة، إذا أبدى نحوهم التفهم والرحمة، كما أمر بتدمير معابد الإسكندرية وتسويتها مع الأرض، لأنها هي كانت سبب وبؤرة الاضطرابات.

عندما قُرِئَتْ الرسالة الإمبراطورية على مسامع الجمهور علناً، أطلق المسيحيون في الحال صيحة شقت عنان السماء. فها هو الإمبراطور في مناشدته يشير بوضوح منذ الكلمات الأولى، إلى أن الوثنيين هم سبب جميع الجوائح، التي حلَّت بالمدينة في الآونة الأخيرة، أي أنه أعلن براءة المسيحيين، وعندئذ ذُعِرَ حقاً جميع الذين كانوا يدافعون بصلابة عن سرابيوم حتى ذلك الحين؛ فغادروه، وتشتتوا، وفرّوا في شتى الاتجاهات.

أنهى سوزمينوس تقريره بتصريح مقتضب جاء فيه، أن المسيحيين بعد احتلال المعبد حوَّلوه إلى كنيسة. ونعرف من أمكنة أخرى ان الرهبان أقاموا في بعض أجزاء المباني. ولذلك فإن تدمير المباني العملاقة بصورة نهائية تمَّ ببطء شديد، وبشكل أساسي في العهود العربية، نتيجة التفكيك التدريجي لمواد البناء. وفي نهاية المطاف، وكما أسلفنا، ظلَّ في مكانه عمود وحيد معزول.

يسرد مؤرخ الكنيسة في معرض حديثه عن معبد سرابيس وسقوطه قصة قصيرة، لكنها ذات دلالة:

علمت من بعض الأشخاص أن الفيلسوف أوليمبوس سمع في الليلة الصماء، التي سبقت ذلك اليوم الحرج (أي يوم اقتحام المسيحيين للمعبد، أصواتاً ما تنشد في حرم سرابيس «هاليلويا». كانت البوابات مغلقة بإحكام، والجميع غارقون في نوم عميق، أما هو فقد سمع الإنشاد بوضوح، فَهِمَ وأدرك ما الذي يعنيه. فغادر المعبد خلسة، وعثر في المرفأ على سفينة ما وأبحر إلى إيطاليا[٥١].

لا بد من الاعتراف بأنها لوحة مشكلة بأسلوب بارع «بروفسوريّ».

كانوبوس:

مَنْ الذي وضع هذه الرواية عن «الهاليلويا» الظافرة، التي جلجلت في الليل الأصم داخل المعبد الوثني المحاصر، وتحديداً في قلب الفيلسوف الأكثر وفاء لسرابيس، أهم المسيحيون؟ تبدو الإجابة على مثل هذا السؤال بسيطة ولا يرقى لها الشك: بالطبع، يجب نسب تأليفها للمسيحيين؛ فَمَن غيرهم كان قادراً على القيام بذلك، ومن غيرهم له مصلحة في مثل هذا الضرب من الخيال؟ ولكن، وبغض النظر عن الجانب الظاهري، يمكن البحث عن جذورها في المعسكر المناهض بالذات! إذ لا يستبعد أبداً أن يكون **أوليمبوس** نفسه قد لفَّق وأشاع ما عاشه في تلك الليلة الحرجة؛ وأراد أن يبرر بذلك فراره الجبان من سرابيوم، مستنداً إلى علامة تحذير زعم إرسالها من قبل القوى الخفية في اللحظة الأخيرة. كما يُحتمل أن تكون القصة قد ظهرت في بعض الأوساط الوثنية تلقائياً، وعلى نحو مستقل عن هذه أو تلك من روايات **أوليمبوس**. فهناك حقيقة مدهشة فعلاً: أنه في تلك الفترة بالذات قام أتباع الآلهة القديمة بلهفة بإشاعة نبوات مختلفة غير مواتية لقضيتهم. تصرفوا إذن على نحو، وكأنهم وجدوا لذة عجيبة في ذلك النمط من تعذيب الذات والنعيب الكئيب. أو يمكن أنهم أرادوا ببساطة التحرر من الشعور بالمسؤولية، والتبرير لأنفسهم وللآخرين سبب سلوكهم السلبي أمام العدوانية المتزايدة من جانب الديانة الظافرة؟ أو إقناع المعاصرين بامتلاكهم لسرٍ ذي مستوى أرفع؟ يمكن التعبير عن هذا الإحساس أو السر على النحو التالي:

أجل، يرحل الآلهة. يهجرون الأرض الناكرة للجميل، يتخلون عن المعابد والتماثيل، والمذابح الجميلة ـ إرث قرون طويلة من العبادة والتبجيل. لكنهم، وهم يودعون الجيل الحالي يعلمون بذلك الأكثر وفاء لهم والأقرب إلى قلوبهم؛ هؤلاء القادرون بعد على فهم أصواتهم. فالآلهة يستنكفون عن المعركة ظاهرياً فقط، لكنهم يقدمون في الآن ذاته البرهان القاطع على أنهم موجودون فعلاً ما داموا ينسحبون، سيعودون هنا في موكب ظافر فيما بعد، يجب عدم الشك بذلك إطلاقاً! سيأتون يوماً، ولو في المستقبل البعيد، عندما ستقوم دائرة التحولات الأزلية، التي تدور ببطء، ولكن بعناد، بإحياء ما كان موجوداً من قبل!.

بمثل هذه الموهبة في استشفاف نوايا ومقاصد الآلهة الراحلين، تحلى الفيلسوف والمتصوف **أنطونين**، الذي استقر لأعوام طويلة في **كانوبوس** على مقربة من البوابات الشرقية لمدينة الإسكندرية. يعود الفضل في تعرفنا على شخصيته وعلى الأساطير المرتبطة بها، إلى

كلمات **يونابيوس**. وبما أننا سنعود في أكثر من مرّة للاستعانة بمعلومات هذا الكاتب، نجد أنه من المفيد تقديمه للقارىء؛ وخاصة لأنه رجل نموذجي لعصره، أي لعهد الإمبراطور **ثيودوسيوس**.

ولد **يونابيوس** في آسيا الصغرى الغربية، في مدينة **ساردس**، حوالي عام ٣٤٥ م، أحب بحرارة اللغة الإغريقية بكامل إرث الحضارة الهلنستية. كان من أتراب ـ للتذكير بالكتاب، اللاتين الذائعي الصيت، الذين استشهدنا بهم مراراً هنا ـ **أمبروزي** و **هيرونيم**، لكنه أصغر سناً من **أميان مرسيلينوس** بعشرة وبضعة من الأعوام، ويصغر **أوغسطين** ببضعة أعوام. أما القاسم المشترك بينهم جيمعاً، فهو ممارستهم للجزء الأكبر من نشاطهم الأدبي في عهد **ثيودوسيوس**؛ وإذا أخذنا بعين الاعتبار المبدعين الآخرين، الذين سيرد ذكرهم في أوانه، لا بدَّ من الاعتراف بأن هذه الحقبة تميزت بأهمية خاصة من جهة غزارة نتاجها في تاريخ الأدب القديم بكلتا اللغتين (الإغريقية واللاتينية). ولكن بخلاف الأسماء الآنفة الذكر (أميان مرسيلينوس محايد دينياً)، انتمى **يونابيوس** إلى الوثنيين، الذين لم يعرفوا المساومة. عبرَّ عن قناعاته قبل كل شيء في عمل تاريخي عملاق عالج فيه بشكل رئيس مشاكل عصره. كرّس أجمْل صفحاته المفعمة بالتبجيل السامي، للإمبراطور **يوليان** الجاحد؛ أمكن له أن يراه بأم عينه وهو لا يزال رجلاً شاباً، أما المعلومات الثمينة، التي سمحت له بتحديد ملامح شخصيته وأعماله، فيعود الفضل في حصوله عليها إلى تقارير صديقه وطبيب **يوليان** الخاص معاً. لكنَّ هذا العمل القيِّمَ لم يُحْفَظْ حتى أيامنا؛ ربما كان ذلك بسبب طابعه المتميز بالمناهضة الصريحة للمسيحية؛ اذ جعل معتنقي الديانة الجديدة يفضلون إتلافه على نسخه. ولذلك فإننا نعرف من بعض الفقرات والملخصات فقط المجلدات، التي أمكن لها أن تكون رديفة ومعاكسة لكتب «تواريخ الكنيسة»، ذات الشعبية الواسعة آنذاك، والتي تكرر تأليفها. لكنَّ عملاً آخر من أعمال يونابيوس ظلَّ محفوظاً، ليس ضخماً بحجمه، لكنه شيِّق ومثير للاهتمام إلى أقصى حد. وهو معروف باسم «حياة السفسطائيين»؛ هذه التسمية، التي كانت تطلق عادةً، آنذاك على معلمي الحكمة، والفلاسفة، والخطباء في آن واحد، والمتصوفين أيضاً في معظم الأحيان. عرف يونابيوس شخصياً أو من خلال التلامذة المباشرين، عرف كثيرين من أساتذة الفكر والكلمة الوثنيين في القرن الرابع. نجد أمامنا إذن صورة عالم المثقفين الإغريق في الأيام، التي كانوا لا يزالون يحاولون صدَّ ومقاومة ضغط المسيحية الظافرة؛ انها الوثيقة الفريدة من نوعها، إذا قرئت بتمعن. الهدف، الذي وضعه المؤلف نصب عينيه واضح تماماً: الرغبة في مواجهة حيوات القديسين والشهداء المسيحيين بركب من القادة الروحيين الوثنيين. سنبين أخيراً ـ لهذا الشيء دلالته وأهميته الخاصة

بالنسبة لنا ـ أن يونابيوس كتب مُؤَلَّفَهُ هذا في أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة، وأنهى عمله بعد عام ٣٩٥ بفترة وجيزة، بعد بضعة أشهر أو سنة وبضعة أشهر من موت ثيودوسيوس.

أورد يونابيوس وهو يسلط الضوء على شخصيات هؤلاء الحكماء الوثنيين اسم **أنطونين** أيضاً، ابن بلده إلى حد ما. لقد انحدر بدوره من آسيا الصغرى، لكنه استقر على نحو دائم في **كانوبوس** المصرية، في معبد الإله سرابيس المحلي. توفي قبل عام ٣٩١ بقليل، لكنه تنبأ قبل موته ـ لنلاحظ أن هذه المعلومة ينقلها يونابيوس الوثني! ـ بأنه ما أن «يغمض عينيه» حتى يلحق الدمار بمعبده المحبوب. الشيء، الذي تحقق وتزامن مع سقوط سرابيوم (معبد الإله سرابيس) في الإسكندرية؛ وهذا أمر مفهوم ومفروغ منه، ما دام الانتقال من أحد المعبدين إلى الآخر لم يتطلب سوى مسيرة يوم واحد.

كانت كانوبوس واقعة حيث اليوم بلدة أبو قير تماماً،أي على بعد ما يقارب العشرين كيلو متراً إلى الشرق من الإسكندرية، على خليج بحري يَصُبُّ فيه الفرع الغربي من النيل، المعروف باسم كانوبي. كانت الطريق سهلة وممتعة: السير بمحاذاة الشاطىء، أو ركوب البحر، أو عبر القناة المارة براً. فلا عجب إذن في أن كل ما حدث في المدينة العظيمة، تردد صداه هنا في الحال.

قام الجغرافي والمؤرخ **سترابون** بزيارة للإسكندرية والمناطق المحيطة بها في عهد القيصر **أغسطس**، أي في أواخر الحقبة القديمة ومطلع الحقبة الجديدة. جاء وصفه لكانوبوس قصيراً، لكنه مليء بالصور النابضة بالحياة.

تبعد البلدة عن الإسكندرية ١٢٥ فرسخاً إذا اختيرت الطريق البرية. يوجد هناك معبد سرابيس المحاط بأعمق مشاعر التبجيل، المكان الذي تحدث فيه حالات شفاء المرضى. وهذا ما يؤمن به أناس من ذوي المكانة المرموقة؛ فإذا عجزوا عن الحضور شخصياً، أرسلوا آخرين ليستلقوا ويناموا هناك باسمهم. كما يوجد هناك من يدوِّن وَيُوَثِّقُ معجزات الشفاء تلك، وكذلك النبوات المحققة. لكنَّ المشهد الفريد حقاً، هو الحشد الهائل، الذي يتوجه إلى هذا المكان خلال الأعياد. فالمكان مليء بالناس ليل نهار، بالرجال والنساء. يركب البعض القوارب عبر القناة وهم يغنون ويرقصون بأسلوب خلاعي؛ ويملك آخرون في كانوبوس ذاتها مساكن للنزلاء تمتد على طول القناة، ملائمة تماماً لذلك النمط من الانحلال واللهو[٥٢].

ما بقي من آثار الفن المعماري من كانوبوس القديمة ليس بالكثير، مع العلم أنه بوشر بأعمال

التنقيب الأركيولوجي هناك منذ أواسط القرن التاسع عشر؛ الجزء الأكبر من المنحوتات والموجودات الصغيرة محفوظ الآن في متحف الإسكندرية، أما أبو قير ذاتها، فقد اكتسبت شهرة تاريخية بفضل المعركة البحرية، التي خاضها الأدميرال نيلسون في الخليج في اليوم الأول من آب عام ١٧٩٨ ، مدمراً الأسطول الفرنسي؛ والمعركة البرية في العام التالي، حيث سحق نابليون الجيش التركي، الذي فاق جيشه عدداً. أما بالنسبة لعالم الآثار، فإن اسم كانوبوس غالباً ما يرتبط في ذهنه باسم أوان فخارية متميزة بشكلها، غالباً ما يُعثر عليها في المدافن المصرية. وهذه الأواني نوع من الجرار، لغطائها شكل رأس إنسان، أو ضبع، أو رُباح، أو نسر. حُفِظَتْ في داخلها أحشاء الجثث المحنطة، وقد وُضِعَ منها دوماً أربع بجانب الناووس الحجري. أطلق عليها علماء الآثار المعاصرين اسم Canopic Jars خطأً، وذلك بنتيجة التفسير الخاطىء لملاحظة وردت في كتاب روفين عن تاريخ الكنيسة. وعلى الرغم من أن اسم هذا المؤلف غير معروف اليوم على نطاق واسع، فهو يستحق أن يُذكر. عاش روفين في الأعوام ٣٤٥ ـ ٤١٠ ؛ انحدر في الأصل من شمال إيطاليا، من محيط أكويليا، أقام بعد عام ٣٧٠ ، ولمدة لا تقل عن خمسة عشر عام كحاجٍ في مصر وفلسطين، يزور العتبات المقدسة وينال البركة من النُساك، ويعكف في الوقت ذاته على دراسة الأدب اللاهوتي الفني باللغة الإغريقية. كان شاهداً قريباً (إن لم يكن شاهد عيان) على ما حدث في الإسكندرية أثناء المعارك حول معبد سرابيس. بعد عودته إلى موطنه الأصلي كرّس نفسه بشكل رئيس لترجمة أعمال المؤلفين المسيحيين الشرقيين الأكثر أهمية وقيمة إلى اللغة اللاتينية؛ يصعب اليوم تقييم مدى ما تدين به القرون اللاحقة لروفين وجهوده في مجال المعرفة الفلسفية ووضع المصطلحات الملائمة أيضاً. ففي مؤلفه «تاريخ الكنيسة» ـ وهو في واقع الأمر تفصيل وتوسيع لعمل يوسيبيوس ـ يشير إلى كانوبوس والعبادات المحلية الوثنية هناك، أما الإله، شفيع المدينة وسَمِيُّها، فيصفه كما يلي: له هيئة إنسان، لكنَّ قدميه ذاويتان، البطن كروي وبارز وكأنه إبريق مياه، الكتفان متشابهان، والرقبة قصيرة جداً. وعلى ما يُعتقد لم يكن هذا سوى إناء لحفظ مياه النيل المقدسة، فيض روح أوزيريس. نظراً لتشابه تمثال الإله كانوبوس الموصوف والأواني المستخدمة لحفظ أحشاء المومياء، أطلق على الأخيرة اسم الجرار الكانوبية.

لنعد الآن إلى الموقع أو البلدة ذاتها: استمرَّ هناك حتى أيامنا هذه تقليد معين، ربما تعود جذوره إلى الحقبة القديمة مباشرة؛ وجود عدد كبير من المطاعم والمقاهي الصغيرة والجميلة، حيث يمكن أن يلهو المرء بحرية.

نبوءة أنطونين:

كان لكانوبوس إذن شهرتها الخاصة في الحقبة القديمة. عُرفت مباهج هذا الموقع على نطاق واسع، كما أضحت التسمية ذاتها مرادفة للإنحلال والإنغماس في الملذات. وهذا ما نجد صداه في إحدى مقولات سينيكا:

ـ لن يختار الحكيم، الباحث عن عزلة هادئة، كانوبوس أبداً؛ ومن ناحية ثانية، لن تمنع كانوبوس ذاتها أحداً من العيش بعقلانية!.

لقد أضحى خير دليل وبرهان على إصابة هذه الحكمة، التي تفوّه بها كاتب في عهد نيرون، ـ إذا صدق يونابيوس ـ هو الوثني الورع أنطونين في أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة. وإذا أُخذت رواية يونابيوس حرفياً، فقد قدمت إليها مواكب من نوع آخر مختلف عن تلك، التي وصف سترابون طابعها وصفاً صريحاً. إذ يقول مؤلف «حياة السفسطائيين» بكثير من المبالغة في صياغاته، التي يسهل كشفها:

جاء أنطونين إلى الإسكندرية من بلاد ما وراء البحر. ولما رأى مصب النيل في كانوبوس، تملكه شعور غامر بالإعجاب، بحيث كرّس نفسه كلياً لآلهة ذلك المكان وطقوسها السرية. خطا خطوات سريعة في تقدمه واقترابه من الألوهية. لم يُعرْ جسده أي اهتمام، وتحرَّر كلياً من كافة المتع المرتبطة به. اقتصر على ممارسة حكمة تجهلها الغوغاء. يجدر بنا أن نقول شيئاً أكثر عن هذا.

لم يُبدِ أنطونين ميولاً لصنع معجزات تنحرف عمّا هو مألوف في مجال الحواس؛ ربما تصرف بهذا القدر من الحذر، لأنه أدرك جيداً ما تعنيه الأوامر الإمبراطورية؟ لكن صلابته، وصرامته، ورسوخ آرائه، كانت موضع إعجاب الجميع. لذلك زاره هؤلاء، الذين أقاموا آنذاك في الإسكندرية بهدف الدراسة. وكانت هذه المدينة بفضل معبد الإله سرابيس، معبد العالم بأسره؛ فقد اجتذبت أعداداً لا تحصى من الحجاج من كل مكان، حيث كان تعدادهم يبلغ عدد سكان المدينة ذاتها. وحالما كان ينتهي هؤلاء من تمجيد الآلهة، كانوا يتوجهون إلى أنطونين؛ والذين كانوا على عجلة من أمرهم، كانوا يختارون الطريق البرية، بينما كان الآخرون يركبون القوارب النهرية ـ متجهين براحة تامة إلى موضع الدراسة الجادة. وحين يتشرفون باللقاء، كان البعض يطرح مشكلة منطقية ـ وفي الحال كانوا

يشبعون بثراء الحكمة الأفلاطونية. وطرح آخرون تساؤولات تمس مباشرة المواضيع الإلهية - فوقف هؤلاء أيضاً، وكأنهم أمام تمثال، لأنه لم يكن يجيب بكلمة واحدة. واقتصر على التحديق وتثبيت نظراته على السماء. وهكذا ظلّ صامتاً؛ لم يشاهَد أبداً وهو يحاور أياً كان بمثل هذه الأمور.

لم يتوقف سيل الشبان ذوي الأرواح السليمة والمتعطشة للفلسفة، من التدفق على أنطونين، ولذلك اكتظ المعبد بالكهنة الشبان. أما هو، الذي كان لا يزال يبدو إنساناً مستمراً في تعايشه مع الناس، فغالباً ما تنبأ لرفاقه:

ـ بعد موتي سيزول هذا المعبد. وكذلك حرم سرابيس المقدس في الإسكندرية سيختفي في هيولى الظلمة. سيتعرض للتحول. سيخيم ظلام لا محدود، وكأنه من تلك الأساطير القديمة على ما هو الأجمل في أرضنا!.

وثبت بعد فترة قصيرة أنه تضمن فعلاً شيئاً من الألوهية. فلم يكد أن يرحل عن عالم البشر، حتى وُضِعَ حدٌ للخدمة الإلهية في معابد الإسكندرية وفي سرابيوم. ولم يقتصر الأمر على الخدمة الإلهية، بل شمل المباني أيضاً. وحدث كل شيء كما في تلك الأساطير الشعرية عن انتصار العمالقة، أعداء الآلهة وواجه معبد كانوبوس المصير ذاته(٥٣).

حزن وغضب الوثني:

يجب بالضرورة سرد تتمة رواية يونابيوس هنا. تستحق هذه الكلمات أن تُقرأ باهتمام، وإن لم يكن صداها محبباً أو مستساغاً، تستحق ذلك، لأنها تعالج أحداثاً بتنا نعرفها من خلال روايات ثلاثة من المؤلفين المسيحيين، **سقراط**، **وسوزومينوس**، **وثيودوريت**. الحقيقة أن أقوال **يونابيوس** لا تقدم أية معطيات جديدة ذات قيمة جوهرية، لأنها تتميز بالعمومية، لا بل هي خطابية. ولكن لنأخذ بعين الاعتبار أننا في هذه الحالة نسمع صوت الجانب المناهض، الجهة المهزومة، صوت وثني، أهين في أقدس مشاعره. فهي إذن في نبرتها، وفي اختيار ألفاظها، وبأسلوب رؤيتها، وثيقة استثنائية، ربما حُفظت بمعجزة. وهنا يطرح سؤال نفسه: ما الدافع لأن يُنسخ في العصر الوسيط، في مكان ما في **بيزنطة**، مخطوط مفعم بهذا القدر من الكراهية الصريحة لكل ما هو مسيحي؟ ربما نسخه الوثنيون السريون، الذين عاشوا حياة بائسة على مرتبات المعلمين الهزيلة، في عزلة المكتبات والأرشيفات؟ لا يستبعد

شيء هنا، إذ ليس في وسع أحد أن يُحدد على نحو جدير بأن يُعْتَمَد وَيُقْبَل، متى رحل آخر مُبجّلي الآلهة ومتى خمدت عباداتهم نهائياً؛ فالجمر ظلَّ مشتعلاً تحت الرماد لقرون أو ربما لآلاف السنين.

الجملة الأولى في هذا الفصل من المُؤَلَّفِ مشبعة بالغيظ والسم، وتشير بوضوح كافٍ إلى موقف المؤلّف:

«حكم آنذاك الإمبراطور ثيودوسيوس، بينما ترأس ثيوفيل الملاعين؛ كان هذا الرجل يبدو وكأنه يوريميدونت ذاك، الذي وفق ما جاء في الأوديسيا، حكم العمالقة المتغطرسين في حينه. مارس السلطة المدنية يواغريوس، وَكُلِّفَ رومانوس بقيادة الجيوش المعسكرة في مصر. وقد قام كل منهما بتصعيد كراهية الآخر للمعبد، أو حتى للحجارة والصخور المنحوتة ذاتها؛ لا بل تنافساً فيما بينهما في هذا المجال. ولذلك دمرا سرابيوم (معبد الإله سرابيس) وأعلنا الحرب على تقدمات المعابد؛ وكل هذا دون أن يسمعان ولو مجرد شائعة عن أية نوايا عدوانية في الجانب الآخر! هكذا حققوا النصر دون أن يواجهوا الخصم، وفازوا في المعركة دون الاضطرار لخوض القتال. أما فيما يتعلق بالتماثيل وتقدمات المعبد، فقد حسموا الأمر معها بشجاعة لا توصف، ولم تقتصر القضية على أنهم هزموها، بل لأنهم قاموا بسرقتها أيضاً؛ اعتمدت استراتيجية المعركة معها على تغطية كل مَنْ حاول الاستيلاء على شيء لنفسه. لم يتركوا في سرابيوم سوى بلاطات الرّصف، وكان ذلك بسبب ثقل الحجارة، الذي لم يسمح بزعزعتها.

ولما انتهى هؤلاء السادة الشجعان والنبلاء إلى هذا الحد من أعمال التدمير وَذَرِّ كل شيء في مهب الريح، رفعوا أيديهم إلى الأعلى؛ أجل، لم تكن الأيادي ملطخة بالدم، لكنها لم تكن نظيفة أبداً، بل كانت مدنسة بالجشع. صاحوا قائلين بأنهم انتصروا على الآلهة، واعتبروا نهب المعابد والتجديف عنوان فخر واعتزاز.

ثم جاؤوا إلى تلك الأمكنة المقدسة بحشود ممن عُرفوا بالرهبان، إنهم بشر من حيث الشكل، لكنهم يعيشون كالخنازير، يسمحون علناً بالقيام ـ ويقومون بأنفسهم ـ بالكثير من الممارسات المنحطة، التي يندى الجبين خجلاً من مجرد نقلها. ولكن هذا بالذات اعْتُبِرَ بمثابة ورع وتقوى: احتقار كل ما هو إلهي. تمتع كل من ارتدى أثواباً سوداء آنذاك، وتصرف بأسلوب تافه وغير جدير بالاحترام، بسلطة استبدادية. فإلى مثل هذه الذرى من الفضيلة صعد النوع البشري!.

استقر هؤلاء الرهبان في كانوبوس أيضاً. فرضوا بدلاً من تكريم الآلهة الحقيقيين، عبادة العبيد، ويا ليتهم كانوا من العبيد الأمناء! جمعوا من كل حدب وصوب عظام وجماجم أولئك، الذي أُلقي القبض عليهم كمجرمين وحُكِمَ عليهم بالموت بقرار من المحكمة، ونادوا بأن هؤلاء المحكومين هم آلهة. تلووا أمام تماثيلهم، وتمرّغوا في الوحل أمام قبورهم. نعتوهم بالشهداء، والخدم، والرسل، الذين ينقلون طلبات الناس. وفي واقع الأمر، لم يكونوا سوى عبيد، خدموا بالعار، وانتهوا تحت ضربات السياط، ولا يزالون يحملون جراح خستهم على صورهم. هاكم إذن الآلهة، الذين تلدهم هذه الأرض».

هكذا إذن أعلن أنطونين حقيقة للجميع: أن المعابد ستتحول إلى قبور. وهذا ما منح معرفته وقدرته على التنبؤ شهرة واسعة. توفي بهدوء بعد أن عاش شيخوخته بدون مرض، أما ذوو القدرة على التفكير، فقد شعروا بألم أكبر بالنهاية، التي توقعها للمعابد[٥٤].

موضوع الشياطين والعفاريت:

أنباء صِحَّة ودِقَّة تنبّؤ أنطونين بتدمير معابد الإله سرابيس، التي أضفى عليها جموح الخيال بهاءً وألقاً أكبر بكل تأكيد، انتشرت على نطاق واسع في عالم ذلك العصر؛ ذاع صيتها واكتسبت أهمية بالغة ليس في أوساط الوثنيين فحسب، وإنما بين المسيحيين أيضاً. شعر الفريق الأخير بحرج كبير بمجرد أن تكهُّن الفيلسوف الوثني، الذي يكمن مصدره ـ أيمكن الشك بذلك؟ ـ في إلهام شتى أنواع الأرواح النجسة، الكامنة في الأوثان، تحقق بذلك القدر من السرعة والدقة. وهكذا ظهرت في اعتقاد أعداد غفيرة من المسيحيين مشكلة جوهرية ذات طابع فلسفي ولاهوتي. يمكن إعادة صياغة المجرى الأساسي لتحليلهم على وجه التقريب كما يلي:

مَنْ هم الآلهة القدماء؟ ليسوا في واقع الأمر سوى عفاريت شريرين، وماكرين، وكاذبين، وخدماً للشيطان. يقودون، الذين اعتمدوا عليهم إلى هلاك مريع. يكرهون كل حقيقة أو حتى ظِلِّ الحقيقة، مثلما يخشى الظلام كل شعاع نور قادم من الشمس. فبأي أسلوب، وبأية طريقة، وبواسطة اية خدعة تستطيع الأرواح الشريرة في أي وقت كان، أن تتعرف، وتتوقع، وتكشف لأتباعها ولو عن جزء يسير مما سيحدث في الواقع؟ لأنها بكشفها عن المستقبل، تعزز إيمان الوثنيين بقدراتها الخارقة! فَلِمَ يسمح الرب بحدوث شيء على هذا

القدر من الخطورة على خلاص الأرواح البشرية، في أزمنتنا وعلى مرأى من أعيننا؟

عولجت هذه المواضع على نحو جادّ وجذري. جرت نقاشات عديدة، ولم تبدُ الآراء المطروحة أثناءها أرثوذكسية دوماً. وفي نهاية المطاف، اتخذت القضية أبعاداً هائلة، تطلبت معها الضرورة أن يتصدى لها أحد أقدر العقول اللاهوتية لتلك الحقبة، أو ربما ليس لتلك الحقبة وحدها؛ ألا وهو أسقف هيبونا ـ عنابة ـ شخصياً، أوغسطين. فقد كرّس لهذه القضية مقالة مستقلة. ليست المقالة مسهبة في الحقيقة. ولكنها مثيرة للاهتمام ومتميزة بالنظر لموضوعها، الذي تعالجه. وهي بعنوان «عن تنبؤ العفاريت بالمستقبل» De Divinatione Daemonum. وقد استخدم المؤلف موضوع تدمير سرابيوم منطلقاً لتأملاته. ويكتب في كلمات المقدمة:

> «في صباح أحد الأيام اجتمع لدي عدد من إخوتنا المسيحيين العلمانيين. جلسنا في المكان المعتاد، ثم بدأ الحديث عن موقف الديانة المسيحية من غرور الوثنيين ومعرفتهم المفعمة بالشكوك، حيث يُزعم أنها مذهلة ولا محدودة. تذكرت هذا النقاش وأتممته فيما بعد؛ وارتأيت بأنه جدير بأن يُوَثَّق كتابة. لن أذكر أسماء، الذين اتخذوا فيه موقفاً معارضاً من رايي؛ كانوا مسيحيين على أي حال، وعبّروا عن آراء كهذه، ربما بهدف التوصل إلى ما يجب الرد به على الوثنيين.
>
> تعرضوا لموضوع التكهنات المنبثقة من العفاريت. ولمّا تمّ التذكير بأن أحدهم تنبأ بهدم معبد سرابيس، الشيء الذي حدث فعلاً في الإسكندرية، قلت:
>
> ـ لِمَ العجب من أن العفاريت أمكنها أن تعرف سلفاً وتعلن حقيقة التدمير، الذي هدد المعبد وتماثيله هناك؟ لأنها قادرة بالأسلوب ذاته على توقع وإعلان العديد من الأحداث الأخرى. ولكن بطبيعة الحال، فقط بذلك القدر، وضمن تلك الحدود، التي سُمح لها في البدء برؤية الحقائق المقبلة وإعلانها للناس!
>
> فَرُدَّ علي:
>
> ـ اذن ليست تكهنات العفاريت شراً، وليست كريهة في نظر الرب! فلو كان الأمر على هذا النحو، لما سمح هو نفسه، العادل والكلي القدرة بحدوث أشياء شريرة وظالمة!».

هكذا كانت بداية الجدال. وكما يمكن التخمين بيسر، فإن أوغسطين لم يفتقر للحجج ويجدر بنا أن نلاحظ هنا بأنه، شأنه شأن جميع معاصريه، آمن بعمق بوجود العفاريت ككيانات حقيقية، ومحددة تماماً، متميزة بكيانٍ فيزيائي مستقل. اعتمد في آرائه على

مختلف العقائد الافلاطونية والافلاطونية المحدثة، وكذلك على المعتقدات الشعبية والمقولات الإنجيلية. تم النظر إلى العفاريت في العالم الوثني على أنها كائنات تحتل موقعاً وسطاً ما بين البشر والآلهة، وهذه الكائنات عادة (وإن لم يكن دوماً) خَيِّرة، وصديقة، ونافعة، يكفينا هنا أن نستشهد بذلك العفريت، الروح الشفيعة، التي تحدث عنها سقراط كثيراً. لكنَّ هذه الأمور في نظر أوغسطين، اتخذت صيغة مختلفة تماماً.

أجل، اعترف بأن العفاريت كائنات متفوقة على البشر في جوانب عدة. فهي خالدة لا تموت، وأجسامها ذات طابع شفاف وحركي كالهواء، ولذلك فهي تخترق كل شيء، بما في ذلك ذواتنا. لكنها ليست سوى ملائكة ساقطة، وأرواح شريرة، عدوة لدودة ومستبدة وغادرة لسعادة الجنس البشري بأجمعه ولأي إنسان على نحو مستقل! تحوم وكأنها طيور جارحة، سريعة على نحو عجيب، ودقيقة الملاحظة بشكل لا يقارن، في الطبقات الدنيا من الهواء، تحت مجال القمر. وتنقض كالنسور على كل شيء في عالمنا يبدو لها فريسة سهلة. إنها هي سبب الكثير من الأحلام، والرؤى، والكوابيس. وهي قادرة على خداع الحواس، والكشف جزئياً عن الحقائق المقبلة؛ ويعود السبب في ذلك إلى صعودها نحو الأعلى وامتلاكها لحواس أكثر كمالاً، الشيء، الذي يمكِّنها من الرؤية أكثر وأبعد وأدق مما نستطيعه نحن هنا على الأرض. وأخيراً، هي، التي تمكنت من أن تدس في عقول الفانين القناعة المهلكة بوجود الآلهة. ولكن مَنْ هم الآلهة؟ إنهم في جوهرهم كائنات لا أخلاقية، ماصَّة دماء، ميَّالة للنزاع، لا مسؤولة، ولا تختلف بشيء عن العفاريت! ولا غرابة في ذلك ما دامت جزءاً من عالمها، وإلى حدٍ ما من مخلوقاتها. أيمكن لها إذن، وهي الآلهة الزائفة، أن تحجب عنا شمس القوة الحقيقية والعلية؟.

طرح أوغسطين مثل هذه الآراء وما يشابهها فيما يتعلق بموضوع العفاريت، وخاصة في عمله العظيم «عن مملكة الله». كما يعود للمواضيع ذاتها في العديد من رسائله. أما في المقالة، التي استعرضناها هنا، فهو يفترض أن العفاريت كائنات من هذا النوع، وأن هذا الشيء معروف لدى الجميع، ولا ضرورة للإسهاب في الحديث عنه.

بين النصوص الإنجيلية العديدة، التي تتحدث عن الأرواح الشريرة، أثار دوماً اهتمام القراء والمعلقين ذلك النص، الذي يتحدث عن الممسوس، الذي طرد منه يسوع حشداً من الشياطين، وكيف أنها دخلت في قطيع من الخنازير كانت ترعى في الجوار، فانطلقت تعدو على السفح المنحدر، وألقت بنفسها في مياه البحيرة لتغرق منتحرة.

يبدو الموضوع بعيداً وغريباً ظاهرياً، ولكن يمكن النظر إليه بنظرة جديدة؛ وسوف نُفاجأ ببعض الخواطر والتداعيات المذهلة! وهذا ما فعله ذلك الشاعر، الذي بدا له ذلك العالم قريباً وكأنه ليس بأبعد من يوم البارحة ـ بالرغم من أننا اليوم المصكوكات وجوه قياصرة آخرين. وعلى نحو مشابه، يتابع القول: حشود الناس في حالة من التذبذب والتعطش للمعجزات، واختلاف السلوك، ظاهري ليس إلاَّ. والشياطين لا تزال تنشط مثلما كانت تفعل في حينه. ولكن في الأزمنة القديمة، وبعكس ما نجده الآن، لم يكن لدى الممسوسين أي الذين دخلتهم الشياطين، لم يكن لديهم «مطبوعات وشاشات، أو احتكاك يُذكر بالفن والأدب»؛ كما أن «سريان الرعشات في الجسم وظهور الزبد على الشفاه واصطكاك الاسنان لم يُنْظَرْ إليها آنذاك كدلائل على المواهب». والمثل الإنجيلي، كما يؤكد الشاعر، يبقى محافظاً على قيمته: لأن الروح المستحوذة على الممسوسين يمكن أن تدخل في الخنازير. وهذه الأخيرة «تتهور بسبب اليأس الناجم عن الصدام المباغت بين الطبيعيتين، الذاتية والشيطانية، وهو ما يجعلها تقفز في المياه وتغرق».

وهكذا فإن لكل عصر مسحوريه و«فتيته الغاضبين» ومعرفته الخاصة بالأرواح والعفاريت، أي آراءه عن أسباب وجوهر المسّ. كما أنه يقر الطرق الملائمة، الوحيدة الفعالة على حد زعمه، لمقاومة الاستحواذ والمسّ. يمكن أن نستعرض هذه الطرق عبر الحقب والقرون. كانت يوماً الرقى وطاردي الأرواح بالرقى؛ يتحدث عنهم الكتَّاب والمخرجون، أي ممثلو تلك الفروع من الفن، التي غالباً ـ إذا صدقنا الشاعر ـ ما يجوس فيها الممسوسون.

أيام احتلال روما:

نكتفي بهذا القدر عن موضوع العفاريت ـ في معرض الحديث عن مقالة أوغسطين. لكن الشيء المثير للاهتمام لا يقتصر على سبب وسير النقاش المسْتَشْهد به، بل يشمل إن صح القول، بعض الظروف الخارجية، المرافقة لظهور عمل أوغسطين «عن تنبؤ العفاريت بالمستقبل». كُتِبَ هذا العمل حوالي عام ٤١٠ ، أي بما يقارب العشرين عاماً بعد تدمير معبد سرابيس. وهذا برهان قاطع نسبياً على أن الأحداث كانت لا تزال حيَّة في الذاكرة، حتى في بلدان على هذا القدر من البعد عن الإسكندرية. كاد انقضاء المهرجانات في أولمبيا أن يتزامن مع سقوط مراكز عبادة سرابيس؛ لكنَّ أحداً من المعاصرين لم يلاحظ هذا الشيء. فلم ترتفع أصوات المعارضة أو التعبير عن الاحتجاج. وإذا وُجِدَتْ مثل هذه الأصوات أصلاً، فقد كانت ضعيفة ومحظورة، بحيث لم يصلنا حتى صداها. وبطبيعة

الحال، لم تكن المستوطنة الصغيرة في بلاد البليوبونيز الفقيرة مدينة عالمية عظيمة، مثلما كانت الإسكندرية آنذاك. من ناحية أخرى، لم تكن كل تحف فن العمارة والنحت في معبد سرابيس لتعادل المعنى الرمزي للمهرجانات الأولمبية.

حين كان أوغسطين منهمكاً بإعداد مقالته «عن تنبؤ العفاريت بالمستقبل»، كان الغزو القوطي بقيادة ألاريك يتهدَّدُ روما؛ أو ربما كان الغزو قد تمَّ. كنا قد تعرضنا للحديث عن هذا العام المتميز والحدث الهام، الذي تمَّ فيه، في مكان آخر؛ وتحديداً، في معرض الحديث عن إقامة ميلانيا وفولوزيانوس في المقاطعات الإفريقية. إننا نميل للاعتقاد، بأن العالم المعاصر اختنق آنذاك رعباً أمام ما حدث في إيطاليا، واستحوذ موضوع واحد ووحيد على أفكار الجميع. لكن الحقيقة مغايرة لهذا التصوّر. ففي المقاطعات البعيدة والتي كانت ما تزال آمنة بَعْدُ، لم يكتف الناس بمجرد العيش الاعتيادي، بل وجدوا الوقت الكافي، والهدوء، والرغبة في معالجة المواضيع المجردة؛ ومن بين هذه المواضيع، على سبيل المثال، هل تقول العفاريت الحقيقة. أو مواضيع أخرى مشابهة، منفصلة عن الواقع تماماً. وها هو مثال آخر، مأخوذ من المقاطعة ذاتها ومن الفترة الزمنية ذاتها، ولكن من الأوساط غير المسيحية:

حين كان فولوزيانوس، الآنف الذكر، وهو الرجل الوثني، يكتب عام ٤١٢ إلى أوغسطين، أخبره في رسالته عن موضوع حديث جرى قبل فترة قصيرة بين أصدقائه، الوثنيين أيضاً. لقد ناقشوا أولاً مواضيع مختارة من فن البلاغة. ثم انتقلوا إلى خفايا الشعر، وخاصة نظم القصائد وجمال الاستعارة والمجاز، وسمُو المقارنة. ثم صعدوا في مستوى النقاش أعلى فأعلى، وتناولوا عقائد مختلف المدارس الفلسفية، بدءاً من الحقبة القديمة البعيدة، من الأكاديمية الأفلاطونية ومعهد أرسطو؛ وأخيراً، راح أحدهم، (المعني هو فولوزيانوس نفسه بكل تأكيد) يتأمل بعض القضايا المزعجة، والتي تثير الوثنيين دوماً: **بأي وسيلة أمكن لرب العالم أن يبقى طيلة ذلك الوقت في أحشاء العذراء الطاهرة، ويتحمل فيما بعد الآلام والبلوى المرتبطة بكل حياة دنيوية، بما في ذلك الكائنات الخالدة**[٥٥]؟

ألهذه الحقيقة، حقيقة خوض مثل هذه النقاشات في تلك اللحظات التاريخية الحاسمة، وذلك في أوساط المسيحيين والوثنيين على حد سواء، ما تُعَبِّر عنه؟ يمكن بطبيعة الحال الاكتفاء بتفسير سطحي، والقول بأنها مجرد صدفة. ولكن من ناحية ثانية، يمكن أن نرى في ذلك مظهراً من مظاهر عمليات نفسية أعمق، تكاد أن تكون في مستوى اللاوعي في أحضان المجتمعات الكبرى. فمن يدري إن لم يكن الأمر يعني الهرب من الواقع الرهيب والوحشي، الهرب إلى مجالات التأملات السامية والمجردة كلياً؟ إذ غالباً ما تتكرر ظواهر

مشابهة في كافة الحقب، وخاصة عندما تتهدد الجوائح النظام القائم. وربما كان هذا نوعاً من العمى وعدم إدراك خطورة الموقف بشكل تام. أو ربما العكس، برهاناً قاطعاً على عظمة متميزة للروح، وفوق كل شيء، على الرؤية الحدسية لحقيقةٍ على قدرٍ عالٍ من البساطة والوضوح، تصبح معه أحياناً غير ملحوظة أو مهملة بازدراء من قبل رجالٍ ذوي معارف وآفاق واسعة إلى أقصى حد؟ تنص هذه الحقيقة على أنه: في حياة كل مجتمع، عندما يتعلق الأمر بقضية الوجود والاستمرار كمجموعة مستقلة، لا تعود الحقائق السياسية أو الاقتصادية هي ما يقرر الأمر، وإنما تلك، التي ترسخ وتوطد الشعور بالاستمرارية الثقافية؛ ومما يوطد هذه الاستمرارية، مناقشة مواضيع تبدو ظاهرياً غريبة كلياً عن الواقع الجاري ـ على هذا القدر من الغرابة، كموضوع المجازات الشعرية وقضية قدرة العفاريت على التنبؤ بالحقيقة. الواقع أنه في الحالة الأخيرة، يمكن أن يُعَدَّ مُجرَّد اعتبار الآلهة القديمة بمثابة عفاريت، عفاريت شريرة ومفعمة بالكراهية، دليلاً واضحاً على انقطاع استمرارية ما في مجال الحياة الدينية؛ لكن هذا الانقطاع تلخص إلى أقصى حد في إزاحة واستبدال الأسماء وأسس التقييم.

النبؤة الوثنية:

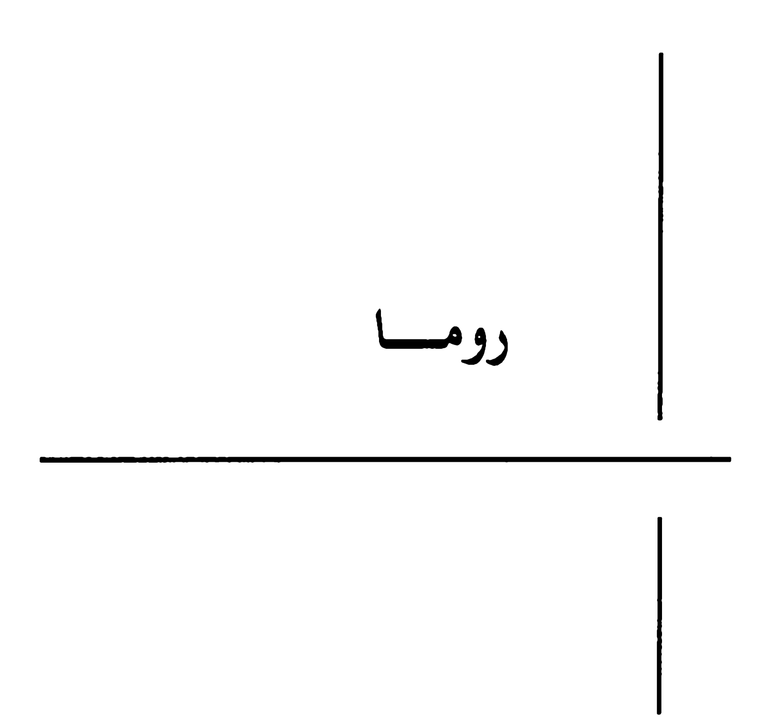
«سيأتي ذلك اليوم، الذي يتضح فيه كم كان عديم الجدوى ورع إيمان المصريين وخدمة ذلك الشعب، المفعمة بالتضحية، له. ستنحط هنا الذكرى المقدسة للآلهة وتتحول إلى عدم، وسيرحل الآلهة أنفسهم من هنا نحو السموات، سيهجرون الأرض المصرية إلى الأبد. وهكذا فإن هذا البلد، الذي كان عبر قرون طويلة مهداً، ودعامة، وعماداً، ومحراباً للديانة الحقة سيُجرَّد من الحضور الإلهي، ويتيتَّم، ويصبح فارغاً. سيحتل الغرباء أرضه الزراعية، ولن يقتصروا على الاستخفاف بالإيمان المقدس، وإنما ـ كم هو مؤلم هذا الشيء ـ سيصدر ما يشبه المرسوم، الذي سيحظر تحت طائلة أقسى العقوبات، التقيد والالتزام بقواعد الدين، والتقوى، والعبادة.

«هذه الأرض الجليلة، مقر المذابح الإلهية، ستملأ منذ الآن بالقبور والجثث فقط. يا مصر، يا مصر الحبيبة! لن يبقى ما يشهد في القرون المقبلة على عباداتك سوى الأساطير والحكايات، ولكنها بالرغم من ذلك، ستبدو للأجيال مجرد خرافات عادية. ستصمد الآثار المنقوشة في الحجارة وحدها كآثار وبراهين على أفعالك التقية. سيستوطن السكوذي، أو الهندوسي، أو واحد آخر شبيه بهما، همجي من البلاد المجاورة، هذه الأرض بأسرها. وعندئذ سَتُحَبُّ الظلمة أكثر من النور، وسيفضل الموت على الحياة. صدقيني، ستبلغ الأمور في نهاية المطاف

> حداً تُفْرَضُ معه عقوبة الموت على كل مَنْ يجرؤ على الاعتراف بالعقل الإلهي. وبهذا الأسلوب، سيتم الفصل المؤلم للآلهة عن البشر. ولن يبقى هنا سوى ملائكة الشر. ستبقى لتدفع التعساء إلى أسوأ جرائم الغرور: إلى الحروب، والاغتصابات، والنهب، والخداع. أي نحو كل شيء مناهض للطبيعة الحقة، لروحنا»[٥٦].

لا، لم يتفوه بهذه النبوة أي فيلسوف ـ وثني، ممن شهدوا أحداث **الإسكندرية** عام ٣٩١ أو من شعروا بضرورة ووجوب دوامها. وليس من كهنة **هيلاروس**، أستاذ المحو و كاهن **زوس هيليوس سرابيس**. كما أنه ليس **أمونيوس** كاهن **هرمس ثوت**، أي القرد، ولا **أوليمبوس**، الحارس الأمين لحرم سرابيس حتى النهاية، حتى تلك الليلة الأخيرة، حيث زُعِمَ سماع ترتيل «هاليلويا». كذلك ليس هو أنطونين حلية المعبد في كانوبوس، العرَّاف، والحكيم، والمعلم. وليس أياً من أقاربهم أو المعاصرين لهم. العبارات المقتبسة هنا، صياغة جديدة للآراء، التي تضمنتها مقالة لاتينية بعنوان: **أسكليبيوس** (وهو إله الطب عند الإغريق). بقيت محفوظة في مكتبة الكاتب النثري العظيم **أبوليوس**، الذي عاش في القرن الثاني بعد الميلاد وكتب باللاتينية؛ لكنَّ هذه المقالة لم تخرج من تحت ريشته بالتأكيد. فهي تعود إلى مرحلة متأخرة عنه بعض الشيء، اي إلى أواخر القرن الثاني. ولكن لا بدَّ وأنها ظهرت ـ يصعب في الواقع تصديق ذلك! ـ بما لا يقل عن مئة عام قبل أيام **ثيودوسيوس**، أي بما لا يقل عن قرن قبل أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة، حيث دُمِّرَتْ أو أُغلقت في مصر معابد الآلهة، وَحُظِّرَ تقديم الأضاحي.

نقرأ إذن كلمات نبوءة وثنية تحققت حرفياً. ولم يقتصر تحقيقها على مصر فحسب فإذا نطقنا بما جاء في النبوَّة وفكرنا وفق مقولات آخر الوثنيين، يمكننا القول، بأن الظلام خيَّم على كامل العالم المأهول؛ وكذلك على **هيلادا**، حيث الأولمب، مسكن الآلهة، وحيث **أثينا**، معبدهم العظيم، وحيث أولمبيا موقع المهرجانات المكرسة لتمجيدهم. فقط في **روما**، في **روما** بالذات، اختلف الأمر بعض الشيء، فهناك فقط برزت مقاومة أكثر تصميماً، مقاومة بعض الجماعات والدوائر ـ بأسلوب مختلف.



رومـــا

رسالة:

«أحسدك لأنك في روما، وأحسد روما، لأنها تحتضنك. فأنت مقيم في المدينة، التي لا يمكن لأية مدينة أخرى في العالم أن تماثلها، وهي بدورها تستضيف شخصاً، لا يتخلف عن مواطنيها إطلاقاً ـ حيث يصنف الكثيرون منهم، الآلهة بالذات، في عداد أسلافهم! مجرد إقامتك في مثل هذه المدينة هو بمثابة شرف عظيم لك، حتى لو التزمت الصمت، وأصغيت للخطب، التي يلقيها آخرون؛ وروما لا تفتقر إلى خطباء يسيرون بجدارة على خطى آبائهم. ولكن، ها نحن قد عرفنا من أشخاص قدموا إلينا من هناك، بأنك شاركت شخصياً، وعلى نحو فعال، في الخطابات العامة، وسوف تستمر في المثول أمام الجمهور! لا غرابة في ذلك؛ فنتاجك الآن يضم مجلدات عديدة، ويبدو الجزء الذي استحق الثناء، وكأنه يلحُّ في طلب اكتمال المجلدات التالية. كما سمعتُ أن روما منحت تلقائياً إكليل النصر لثمرة أعمالك، ويعترف صوت الرأي العام ببساطة أنك من بعض الكتّاب أفضل، وعن البعض الآخر لا تتخلف إطلاقاً. لا يكلل مثل هذا المجد هامة المبدع الذي ترعرع بيننا وحده، بل يملأنا فخراً، نحن جميعاً».

«لا تتوانَ إذن في العمل، ولا تُخفِ نتاجك في سكون المنزل، بل احمله معك، واعرضه في اللقاءات العامة! ولا تدع لتحولك إلى موضع إعجاب أن يضجرك. ولتنمُ شهرتك وتزهُ أكثر فهي تمسنا نحن أيضاً. لأن هذا ما يحدث للمواطن، الذي يتألق اسمه، إذ يشع على مدينته الأم أيضاً».

«هكذا إذن تبدو أوضاعك، ونحن؟ يغمرنا الألم. وفي الحقيقة لا أعرف كيف سنتحمله، إذا لم يهرع إله ما لنجدتنا ويمدُّ يد العون لنا. فابني، الوحيد، والحسن، المولود من أم فاضلة، وإن لم تكن من طبقة الأحرار، رحل. توفي، ودفن وسط الدموع. بات ضحية لتصرف متغطرس لأحدهم. حاول من فضلك،أن تعرف من آخرين، مَنْ هم الناس، الذين واجهوه بذلك الاحتقار؛ لأنه إذا ما تعلق الأمر بنا، فنحن نحترمهم حتى ونحن نتألم. كانت هذه الكارثة ماتزال حديثة، عندما اختطف الموت المفاجىء كاليوبوس من بين كتبه، من

العمل مباشرة. وهكذا يتوضع الجرح فوق الجرح، ويبدو كل حدث أسوأ من الحدث، الذي سبقه»[٥٧].

ليبانيوس:

عجيب هو أمر هذه الرسالة. تبدو في جزئها الأول والرئيس خطابة صرفة، تتخللها تعابير مجاملة مصطنعة ومبالغ بها؛ وفي النهاية، أو في الخاتمة بالأحرى، يتردد صدى صوت بسيط وإنساني.

أُرسلت هذه الرسالة من **أنطاكية السورية إلى روما عام ٣٩٢** . محررها هو **ليبانيوس**؟ أمكن للشيخ الجليل، الذي كان قد بلغ الثامنة والسبعين من العمر، أن يتطلع بفخر حقيقي إلى نتاج عمل حياته. قام بتربية جيل كامل من التلاميذ على محبة جمال الأدب الهلنستي الكلاسيكي، وعلَّم مئاتٍ من الشبان وزودهم بمعرفة الأسلوب الفني والخطابة الاستقرائية. خلَّف وراءه عدداً كبيراً من المؤلفات: حوارات، وخطب، وقصص، ورسائل، وكانت بمثابة نموذج يحتذى به لفن الصياغة وسلامة اللغة الأدبية لأجيال عديدة عبر القرون التالية، بما في ذلك العهود البيزنطية أيضاً. لا بدَّ في واقع الأمر من الاعتراف بأن كتابة **ليبانيوس** تصدمنا بتصنع التعبير، ومحاكاة القِدَمْ، وبرودة البلاغة؛ ولكن، ربما نفتقر لفهمها، أو ببساطة ينقصنا الاستعداد للتمتع بفتنة وسحر زخرف هذا الأسلوب المنمق.

حظي **ليبانيوس** باحترام ألمع شخصيات عصره، ليس في أوساط المثقفين فحسب، وإنما في أوساط السياسيين أيضاً. كان له تلاميذ وأصدقاء بين المسيحيين والوثنيين. لم ينقصه الأعداء أيضاً، ولكن ضمن تلك الحدود، التي لا يفتقر إليهم أحد ممن يتفوق ويصعد فوق مستوى عامة الناس، ويستطيع أن يفخر ببعض النجاحات. وبالرغم من ذلك، فإن تصريحات الكاتب العظيم في الأعوام الأخيرة من حياته تشير بوضوح، إلى أنه رحل عن العالم كرجل محبط من جراء تجارب قاسية، شاعراً بمرارة عميقة وكأنه تعرض لكارثة مؤلمة. لم يكن هذا ناتجاً عن التحولات النفسية ـ الفيزيائية، التي غالباً ما نصادفها لدى الشيوخ المسنين؛ بل كانت لدى ليبانيوس أسباب موضوعية، لتقيِّم بقسوة، العالم المعاصر له ونتائج جهوده.

كان شاهد عيان أعزل على الموت، الذي تعرّض له، تحت الضربات الرهيبة التي لا تعرف

الرحمة، كل ما أحبه من أعماق قلبه، وكرّس له كل أيام حياته منذ أيام صباه: الإرث الرائع للثقافة الهلنستية. حُظِّرَ تقديم الأضاحي على مذابح الآلهة، أُغلقت، لا بل هُدمت ودُمِّرت المعابد ذاتها وطُرِحَتْ أيضاً، وحُطِّمَتْ، وصُهرت، وأُبعدت وسط التهكمات الكريهة تماثيل الآلهة، نتاج ألمع فناني القرون الماضية. بدت أشد التوسلات، والرجاءات ومحاولات الإقناع إلحاحاً، بما في ذلك العرائض والالتماسات الموضوعة أمام قدمي الإمبراطور، عديمة الجدوى. ولذلك لم يكن بدٌّ من أن يتبادر إلى ذهن الإنسان السريع البديهة والبعيد النظر السؤال التالي:

يقوم المسيحيون الآن بتصفية الحسابات مع التماثيل بشكل منهجي ومطلق، مستندين إلى بعض وصايا وقصائد ديانتهم. فهم مقتنعون بعمق إذن، أن هذه الأصنام البغيضة ليست سوى نتاج خادع ومضلل للأرواح الشريرة، الراغبة بهذا الأسلوب، في إبعاد قلوب الناس عن تبجيل الواحد الأحد، اللا مرئي وغير القابل للتصور. ولما كان النتاج الفني قد تعرض للإهانة على أيدي الرعاع، فمن سيقدم الضمانة على أنه في الوقت الملائم لن يأتي دور تصفية مماثلة في وحشيتها، تصفية مجلدات الشعراء، والكتاب، والفلاسفة؟ لأنها هي بالذات الأخطر على الديانة الجديدة، فهي التي تكيل الإطراء والمديح، وذلك بأسلوب مُعبِّر لجمال الآلهة والأبطال (أي العفاريت)، وروعة جسد الإنسان، وعذوبة الحب الأرضي، وبهجة الحياة واللهو! لأن أشدَّ المفكرين الوثنيين صرامة لن يجرؤوا على إدانة أساسية حقاً وصارمة لما هو دنيوي. أليس محتملاً أن يأتي ذلك اليوم، الذي لن يقتصر فيه التحطيم على مواضيع العبادة وصور الآلهة، بل قد يتجاوزها ويتخطاها ليشمل الكتب والمجلدات القديمة أيضاً؟!

تحققت مثل هذه التوقعات أو ما شابهها إلى حدٍّ ما فقط. فحملات الحرق المتعمد والهادف لنتاج الأدب القديم كانت نادرة وعرضية على الأرجح؛ وقد سبب إهمال الكتب والمخطوطات القديمة وعدم نسخها ضرراً أكبر مما سببته مثل هذه الحملات، حيث تُركت وشأنها أوراق البردي والرق. ولذلك فإن الكتابة القديمة لا تبدو اليوم في وضع أفضل بكثير من أوابد الثقافة المادية لتلك الحقبة؛ والجانبان مجرد حقل من الخراب. لم تسْلَمْ سوى بقايا. والفضل في الشرق يعود في ذلك، إلى بقاء التعليم علمانياً عبر كافة القرون، وحتى النهاية (الشيء، الذي أسلفنا الحديث عنه)؛ بالإضافة إلى بقاء نفر من الوثنيين السريين هناك. أما في الغرب، فلم يسلم سوى ما اعتبر جديراً بالحفظ من وجهة نظر معلوماتية ونفعية صرفة (نماذج أسلوبية مثلاً). وبطبيعة الحال، ما سَلِمَ من الدمار بمحض الصدفة أو

بفضل إهمال بعض الجهات المسؤولة. يمكن القول إذن بدون مبالغة، أنه بدءاً من القرن الرابع، وفي أيام ليبانيوس، بدأت تفصح عن طاقاتها المرعبة في كافة بلدان الإمبراطورية، ثورة حقيقية في مجال الثقافة؛ ربما هي الأكبر والأكثر إيلاماً بنتائجها بين كافة ظواهر ذلك النوع، التي عرفها تاريخ البشرية حتى الآن.

ولكن، ما الذي سيأتي به المستقبل؟.

أجل، كان هناك مَنْ علَّق عليه ليبانيوس آمالاً كبرى، وواقعية إلى حد ما، مؤمناً بأنه قادر على صدِّ قوى الدمار، وبعث عالم العبادات الهلنستية البهيج والبهي. لكنَّ القيصر يوليان الجاحد، قُتِلَ في ريعان الشباب، وبشكل مأساوي؛ فانقطع عمله قبل ان يبدأ تطوره الفعلي. واستخدم كل حاكم لاحق سياسة قمع أكثر غدراً وقسوة مع الوثنيين؛ بما فيهم ثيودوسيوس، على الرغم من أن موقفه من ليبانيوس بالذات اتسم باللياقة والاعتدال.

وأخيراً، حلَّت مصيبته الشخصية، موت ابنه الوحيد! كان يدعى كيمون أرابيوس، توفي عام ٣٩١ ، أي قبل بضعة أشهر من كتابة تلك الرسالة إلى روما، على الأرجح. يبالغ ليبانيوس بطبيعة الحال بقوله في أن سبب الموت كان معاملة الإزدراء، التي تلقاها الشاب من شخصية واسعة النفوذ. أجل، تعرض كيمون في القسطنطينية لإزعاج شديد، لا بل للإهانة. سعى هناك من أجل الحصول على وظيفة، وكان قد حصل على قرار تعيينه حاكماً لقبرص، لكنَّ الوثيقة اختطفت من يده (بمعنى الكلمة) في اللحظة الأخيرة. يبدو أن شخصاً آخر كان يسعى وراء هذه التسمية، ووجد حامياً أقوى. عاد كيمون إلى مدينته أنطاكية عبر آسيا الوسطى في الطريق البرية، وفي كيليكية سقط من العربة، فكسر أو جُرحت ساقه. خضع للعلاج طويلاً في طرسوس، محاطاً بعناية فائقة من أصدقاء والده هناك؛ وفي نهاية المطاف عاد إلى أنطاكية، ولكن ليموت بعد أيام من وصوله. وبعد فترة وجيزة،رحل تلميذ ليبانيوس السابق، والمدرس في المدرسة، التي أدارها، وهو كاليوبوس.

لم يعش الكاتب العظيم طويلاً بعد موت ابنه. ويرجح أنّه قد فارق الحياة معذباً بالمرض والأسى عام ٣٩٣ . أي تماماً عندما أقيمت ـ أو كان لها أن تقام ـ المهرجانات الأخيرة في أولمبيا. حقيقة يصعب ألاّ يلاحظ في ذلك أيضاً تقارباً رمزياً للأحداث: فمعلم الكلمة الإغريقية الفذ الأخير، والوثني الصلب، الذي لا ينثني، رحل مع المهرجانات، التي كانت بمثابة الصلة الثقافية بين كافة الهلنستيين، عبر ما يقارب الاثني عشر قرناً.

المؤرخ ونتاج عمله:

الرجل، الذي قرأ في مطلع عام ٣٩٢ في **روما** كلمات الإطراء، التي تضمنتها رسالة **ليبانيوس** الموجهة إليه، معروف لنا من خلال أقواله، التي استشهدنا بها؛ كان يدعى **أميان مرسيلينوس**.

طاف الكثير من أصقاع الإمبراطورية في أوروبا وآسيا، وخاض الحرب على حدودها كضابط محترف ضد مختلف الأعداء؛ لكنه قبل عشرة أعوام وبضعة، هجر الحياة العسكرية واستقر في **روما** على نحو دائم. لا ريب في أنه استلم رسالة الأنطاكي الذائع الصيت، ابن مدينته، بفخرٍ واعتزاز حقيقيين. فالمجاملات، وعبارات التقدير، أو الإعجاب بالأحرى، تفوّه بها شيخ جليل، تعذّر حتى على أعدائه إنكار تصدُّره لمعاصريه من الأدباء الهلنستيين! لم يكن **أميان** مصنفاً في الواقع في عداد تلامذته المباشرين، بالرغم من أنه كان يصغره بما يقارب الخمسة عشر عاماً، لكنَّه بكل تأكيد أحاطه بمشاعر الاحترام العميق واعتبره بمثابة قدوة له. وعلى أي حال، لم تقتصر معرفته **بليبانيوس** على سماعه به وقراءته لمخطوطاته، بل قامت بينهما علاقات مباشرة ولقاءات شخصية أيضاً. لقد ولد الإثنان في المدينة ذاتها ـ **أنطاكية**، وأقاما هناك معاً في بعض المراحل. انتميا إلى طبقة الهلنستيين المتوسطي الثراء، والشديدي الولع بالأمور الثقافية، كما بقيا وفيَّيْنِ لديانة الأسلاف. فيما يتعلق بالنقطة الأخيرة، لا بدَّ من القول بأن **ليبانيوس** دافع عن الإرث القديم منهجياً، وبشجاعة كادت أن تتسم بالتهور، بينما اتخذ **أميان** في تصريحاته موقف المراقب المحايد. أجل، لم يخفِ أبداً آراءه الوثنية، وسمح لنفسه هنا وهناك بتوجيه بعض الملاحظات اللاذعة إلى ممثلي الكنيسة وتصرفاتهم؛ لكنَّه لم ينتقد أبداً بشكل مباشر المسيحية بحد ذاتها أو مؤسساتها ـ وإنما العكس، لأنه تحدث عن قواعد الديانة الجديدة بشيء من التقدير. كما أنه كان، شأنه شأن **ليبانيوس**، من مبجلي القيصر **يوليان** العلنيين، معبراً في كل مناسبة عن إعجابه بشخصيته وسياسته. لكنَّه عندما أصدر هذا الحاكم مرسوماً ينصُّ على منع المربين المسيحيين من تعليم الشباب، تجرأ **أميان** على التفوه بكلمات النقد الحادة **«هذه قسوة تستحق التحفظ التام!»**. قد يكون هذا مدهشاً إلى حدٍ ما؛ لكن الضابط السابق بالذات يبرز في عمله كمدافع عن التسامح الحقيقي.

سبق أن استشهدنا بفقرات من نتاج **أميان**، وتحديداً بنتفٍ قصيرة من المجلد الثاني والعشرين، تحدَّثَتْ عن **الإسكندرية** كمركز علمي حي ومستمر، وعن معبد **سرابيس**، الذي ضاهى

بروعته وجلاله **كابيتول روما**. وقد أمكن لأميان أن يكتب ذلك فقط قبيل تدمير الحرم عام ٣٩٠ كأقصى حد. وهذه إشارات هامة تساعد في تحديد التعاقب الزمني لكتابة مجلدات «التاريخ» العظيم. تفيدنا رسالة ليبانيوس بأن المؤلف نشر عمله تدريجياً، حيث قرأ بنفسه أجزاء منه أمام نخبة مختارة من القراء؛ وكانت هذه ممارسة شائعة في الأزمنة القديمة، منذ بدايات ظهور الأدب وحتى تراجعه وانحطاطه. وكان لمثل هذا العرض أهمية خاصة في حالة أميان؛ لأن الهدف المباشر تمثَّل في التأكد من أن أسلوبه في معالجة تاريخ **روما** سيلقى قبولاً واستحساناً في عاصمة الإمبراطورية ذاتها. كان المؤلف محقاً في الشعور ببعض القلق، وذلك لأسباب جوهرية ثلاثة على الأقل:

أولاً: كشفت نواياه في منطلقاتها عن طموح كبير؛ ولذلك أمكن للحساد ومحبي الأذية ـ لم تفتقر روما يوماً لأمثالهم! ـ أن يقولوا، بأنه طموح زائد. أراد أميان مواصلة عمل أكبر مؤرخ روماني، **كورنيليوس تاسيت**، الذي مارس نشاطه قبل ما يقارب الثلاثة قرون! وبما أن الأخير أنهى صفحات مجلداته على العام ٩٦ م، عندما تولى العرش **نيرفا**، فقد توجب على **أميان** الإنطلاق من تلك النقطة بالذات؛ وهذا ما فعله. ثابر بعدئذ على سرد روايته بدأب واتساق منطقي حتى أحدث الأزمنة، المعروفة له ولقرائه من خبراتهم الشخصية. واتخذ من العام ٣٧٨، الذي تعرض فيه القيصر **فالنس** للهزيمة وَقُتِلَ قرب **أدريانوبول** في المعركة مع القوط الغربيين، نقطة النهاية لتحليله. لا بدَّ من الاعتراف بأن اختياره لهذه النهاية المأساوية، موفق ومبرر موضوعياً، نظراً للأهمية الكبرى لهذه المعركة وما أسفرت عنه من نتائج في تاريخ أوروبا. تصرف **أميان** إذن بحنكة وذكاء ككاتب ومؤرِّخ، بتحديد هذه النقطة الزمنية بالذات نهاية لروايته. تجدر الإشارة بالمناسبة إلى أنه اختار عمله عن وعي تام، فلم تبعده عن عمله ضرورات خارجية، كالموت أو المرض، الشيء الذي غالباً ما يحدث. ولنتأكد من ذلك، يكفي أن نقتبس العبارة الأخيرة:

> «أنا الإغريقي، والجندي ذات يوم؛ استعرضت هذه الأحداث بالقدر، الذي سمحت به لي قواي، بدءاً من حكم القيصر **نيرفا** وانتهاء بموت فالنس. وأعتقد أنني لم أقم بتشويه العمل، الذي كانت الحقيقة هدفه، لا بالسكوت عن شيء ما عمداً ولا بالكذب. وليكتب آخرون ممن يزخرون بالمعرفة والعمر الملائم، عمَّا حدث فيما بعد. وإذا ما أرادوا القيام بمثل هذا العمل، فنصيحتي لهم، أن يلجؤوا لأسلوب أسمى في التعبير!»[٥٨].

مما يستنتج من هذه الكلمات، ومما تؤكده إشارات أخرى غير مباشرة، كان أميان رجلاً متقدماً في السن عندما فرغ من كتابة «تاريخه»؛ يرجح أنه كان قد تجاوز الستين، ويبدو أنه

توفي بعد نشر المجلد الحادي والثلاثين بفترة وجيزة، ربما في عهد ثيودوسيوس أو بعد موته بقليل؛ وعلى أية حال، لم يعش طويلاً بعد موت ليبانيوس، بالرغم من أنه كان يصغره سناً كما أشرنا من قبل. ولكن لحظة حدوث الوفاة لا تغير شيئاً في جوهر القضية، التي نحن بصددها هنا: عاش المؤلف اللحظة السعيدة، التي اتخذ فيها عمله المهيب شكله النهائي؛ والذي كرّس له كل ذلك الجهد وكل تلك الأعوام!.

ثانياً: لا بد وأن ضخامة هذا الصرح التاريخي بحد ذاتها كانت أحد أسباب قلق المبدع. فهل كان على كافة الأصعدة بالمستوى المطلوب لأداء المهمة، التي حددها لنفسه؟ وهل عالج بأسلوب ملائم كافة القضايا ذات الأهمية التاريخية عبر ما يقارب الثلاثة قرون، بكل ما فيها من ثراء بالأحداث الاستثنائية على مستوى التاريخ؟ هل خطط للموضوع جيداً؟ لم تكن الإجابة على هذا السؤال الأخير بالذات بسيطة. فمنذ عام ٩٦ وحتى عام ٣٧٨ مرّ ٢٨٢ عاماً تماماً. وقد عالجت المجلدات الثلاثة عشر الأولى (وهي مفقودة الآن) الأحداث، التي جرت حتى عام ٣٥٣ ضمناً، أي ٢٥٧ عاماً، وهذا يعني ما يزيد عن قرنين ونصف؛ ولذلك، لا بدَّ وأنه كان وصفاً مختصراً ولمحة تخطيطية، أُنجزا استناداً إلى أعمال الآخرين. أما المجلدات الثمانية عشر الأخرى، اي بدءاً من المجلد الرابع عشر، فقد اقتصرت على معالجة أحداث خمسة وعشرين عاماً،أي ربع قرن! ولذلك فإن التناسب تعرض للخلل، وذلك لصالح الأزمنة المعاصرة. ما هو الأسلوب، الذي كان المؤلف سيلجأ إليه للدفاع عن هذا الإنشاء؟ ليس تخمين ذلك صعباً:

ـ استعرض عدد من المؤرخين الإغريق واللاتين الأزمنة الأقدم، ربما بنجاح أكبر. لذا رغبت في كتابة مقدمة أو مدخل إلى التاريخ الأحدث، الذي لم يعالج بعد. وأنا أحيط بهذا الجانب جيداً، كشاهد عيان على جزء منه. كما أن هذا الموضوع هو الأكثر إثارة للاهتمام بالنسبة لغالبية القراء والمستمعين.

أجل، هذه حقيقة لا غبار عليها. ولكن ما أسهل مضايقة أفراد لا يزالون على قيد الحياة، لدى معالجة أحداث قريبة وجارية! كان كثيرون من الممثلين، الذين لعبوا أدواراً في مآسي ما قبل عام ٣٧٨ لا يزالون ينشطون، ويتمتعون بنفوذ واسع؛ وخاصة بعض الأقرباء والأفراد المرتبطين بهم على هذا النحو أو ذاك. وفي هذه الحالة كان لكل كلمة أو عبارة في المجلدات المخصصة للأجيال القادمة، وكذلك كل إهمال لشخصية أو لخدمة ما، أهمية بالغة في تقييم المعاصرين للعمل.

ثالثاً: وأخيراً، واجه أميان صعوبات ذات طابع شكلي، لكنها جوهرية، فهي لغوية. لقد قرر وهو مقدم على العمل، أنه يجب ألَّا يُكتب بلغته الأم، أي بالإغريقية، وإنما باللاتينية! ما هي أسباب هذا القرار، الذي يدعو للتأمل؟ أهي عبادة كل ما هو روماني، وهذا شيء مفهوم تماماً بالنسبة لرجل دافع بصدره عن حدود الإمبراطورية؟ أيمكن أن يعود ذلك إلى الخوف من الفشل في تحقيق المتطلبات الرفيعة، التي اشترطها الخطباء الهلنستيون آنذاك، بما فيهم ليبانيوس ذاته، على الكتابة، فيما لو تمت باللغة الإغريقية؟ وعلى أي حال، أنجز ما كان في نيته بترابط منطقي. لكنه ربما لم يكن مسروراً من نتائج عمله؛ ولذلك نجد في الفقرة المستشهد بها قبل قليل، وفي الجملة الأخيرة منها ـ وهي الجملة الأخيرة في كامل «التاريخ!» ـ نصيحة موجهة إلى المؤرخين المقبلين، ليكتبوا بأسلوب رفيع. وبالنسبة لنا يبدو نمط أسلوب أميان متعالياً، وفي بعض الأمكنة مصطنعاً إلى حد التعقيد، مما يؤدي إلى استحالة الفهم الصحيح للنص ـ ما أشدَّ رغبتنا في معرفة كيفية تقبُّل وتَقْييم الرومان اللاتين لهذه اللاتينية. وما هي الأحكام، التي صدرت خلال المحاضرات والمناقشات الأولى؟ أكانت إطراء ومديحاً؟ إذ لم تفتقر أوساط المستمعين إلى أدباء رفيعي المستوى، وعلى معرفة عميقة بالأدب القديم وبمعايير سلامة اللغة، ومتحسسين لأذواق التعبير. هناك شيء واحد عمل لصالح أميان بكل تأكيد: ساد آنذاك نمط التأنق الخطابي، الشبيه من وجهات نظر عدة بالباروك اللاحق. أيمكن أن يكون تعبير أميان موضع إعجاب كنموذج خاص من البراعة الخطابية؟ ربما تمَّ تقييم ما نجم عن العجز أمام غرابة اللغة والصراع معها، كحل شكلي جديد ومدهش.

وإن يتساءل أحدٌ عن السبب الذي من أجله نُكَرّسُ كل هذا الوقت والاهتمام لِنتاج أميان، يمكن أن يكون الجواب قصيراً ووافياً على الأرجح: فهو مؤرخ روما العظيم والمستقل الأخير في الحقبة القديمة، وقد نشر معظم أعماله في أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة.

روما أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة:

هكذا إذن، أقام القادم من أنطاكية في المدينة الواقعة على ضفاف التيبر طويلاً؛ ويرجح أن تكون عظامه أيضاً قد استقرت إلى الأبد في مقبرة ما بجوار إحدى الطرق الممتدة من هناك. ولكن هل عاش جندي الإمبراطورية ومؤرخها في عاصمتها بالفعل كما تريدنا أن نقتنع رسالة ليبانيوس الخطابية؟ هل كان ما واجهه هناك مديحاً وإطراء، وإحاطة بمشاعر الإعجاب العام؟ وهل كان موقعه في أوساط روما جديراً فعلاً بأن يُحسد عليه؟ الإجابة

على هذه التساؤلات تقدمه كلمات أميان ذاتها؛ ويمكن العثور عليها لدى تقليب صفحات مختلف مجلدات «تاريخه».

كادت مشاعر التبجيل، التي حبا بها روما أن تكون دينية، كمهد للدولة وكمدينة لا تزال عاصمتها رسمياً، الدولة، التي ضمت جميع البلدان والشعوب المتحضرة آنذاك. وهو الشيء الذي عبَّر عنه بأسلوبه الآسر.

> «عندما بدأت روما تنطلق نحو ذرى المجد وسط أولى الإيحاءات المواتية؛ روما، التي ستحيا ما حَيَتِ البشرية ذاتها، عندئذ تَعاهَدَ القدر والرجولة، المتضادين عادة، على السلم لقرون، راغبين في أن يضمنا لها التطور البهي؛ فلو غاب هذا أو ذاك من العنصرين لما بلغت روما أبداً تلك العظمة المهيبة»(٥٩).

إيمان عميق ومذهل برسوخ وأزلية الإمبراطورية، التي تعرضت قبل أمد قصير لهزيمة ساحقة قرب أدريانوبول! مذهل إذا عرفنا أنه بعد ما يقارب العشرين عاماً ـ بدءاً من لحظة كتابة هذه الكلمات ـ كان لروما ذاتها عاشقة الجمال، أن ترى ضمن أسوارها غزاة همجيين، وكان لقصورها ومعابدها أن تقع ضحية لنهبهم ورعونتهم لكنه في الوقت ذاته إيمان ذو طابع تربوي لا محدود لكافة الأجيال اللاحقة؛ ولنا أيضاً. أجل، نحن نعرف، ولكن الآن، أنه آنذاك، في أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة، كانت في طور الانتهاء سياسياً وثقافياً حقبة تاريخية عظيمة. لكن المعاصرين في ذاك الزمان ـ وكما أسلفنا الإشارة إلى ذلك ـ لم يدركوا على الأرجح أهمية، وعظمة، وسموَّ التحولات. ظلّت قناعاتهم راسخة لا تتزعزع، بأن النظام، الذي أقرته روما غير قابل للتبدل والانقلاب. وبدا انهياره في نظرهم مماثلاً في معناه لنهاية عالم الإنسان؛ لأنه سيكون مماثلاً لتآكل أسس الحياة الاجتماعية، وكافة أنواع التنظيم، وكامل إرث القرون المنصرمة! كانوا محقين، ولكن جزئياً فقط. فلحسن الحظ ليس وجود وتطور الثقافة حكراً على قيام الإمبراطوريات العظمى. والمهم في الأمر هو شيء آخر: يجب أن يتواجد أناس ينتمون إلى ذلك النمط، الذي بغض النظر عن أي شيء، وفي أقل الظروف مواتاة، سيحافظ على الشعور بالاستمرارية، وينقل من جيل إلى جيل الإيمان بمعنى بعض القيم.

غالباً ما تُصنَّف شتى أنواع كتب القرن الرابع ضمن مرحلة هبوط وسقوط الإمبراطورية الرومانية. قد يكون مثل هذا المخطط التصنيفي للمراحل والعصور ملائماً من الناحية التعليمية الصرفة، لكنه لا ينسجم كثيراً مع الحقيقة التاريخية، لا بل يشكل خطورة عليها إلى حدٍ ما، لأن مصطلحات مثل «هبوط» و«سقوط» يجب أن تقود في هذه الحالة إلى

تصورات أو خواطر لا مبرر لها إطلاقاً، وهذا ما يحدث عادة أثناء محاولات تجزئة مسيرة التاريخ المستمرة إلى مقاطع محددة بدقة، ذات تسميات مختصرة واصطلاحية. أجل، لا أحد ينكر بأن الشطر الغربي من الإمبراطورية، كان له أن ينهار بعد بضع عشرات من الأعوام تحت وطأة ضغط التفوق العددي الوحشي للشعوب الهمجية؛ كما أنها حقيقة لا يرقى لها الشك، تعرُّض الإمبراطورية إبَّان القرن الرابع لهزائم عسكرية مؤلمة، ولكن من ناحية أخرى، ولدى الحديث عن القرن الرابع تحديداً، لا يحق لنا إطلاقاً أن نخضع لإيحاءات معرفتنا الحالية عمَّا كان له أن يحدث فيما بعد! لا يجوز أن نسقط بعض التقييمات على الماضي! كما يجب أن نتذكر دوماً الأشياء الأكثر أهمية:

خلال قرن كامل، وقف في مطلعه **ديوقلتيانس**، وختمه **ثيودوسيوس** الكبير، كانت الإمبراطورية لا تزال تشكل قوة عظمى، فجيشها الكثير العدد، والحسن التدريب والقيادة، وبالرغم من أنه تجند إلى حدٍ بعيد من أناس غرباء، كان قادراً على القيام بأنشطة فعالة ومؤثرةً ليست دفاعية فقط، وإنما هجومية أيضاً. ولم يكن الاقتصاد في حالة إنهيار إطلاقاً، بالرغم من أنه عانى من صعوبات كبيرة في بعض الأحيان والمراحل، وذلك نتيجة المجهود الدفاعي الفائق والحتمي معاً؛ ولكن هذا ما يحدث غالباً، ودون أن يقتصر على الحقبة القديمة وحدها. وكانت الإدارة حسنة الأداء، باستثناء بعض المناطق الحدودية في أوروبا، حيث أُخليت تدريجياً. وتميز الأدب، وخاصة في مجال الكتابة، المسيحية منها والوثنية، بالوفرة وثراء الصيغ والأفكار. تطورت المدارس بشتى أنواعها، بما في ذلك الجامعات، وضمت جماهير غفيرة من طلاب العلم. أضحت جميع الحواضر الكبرى راسخة، تتباهى بمنشآتها الرائعة وتنبض بالحياة. والعاصمة الجديدة، تلك، التي على شواطى البوسفور، ظلَّت تنمو باستمرار، دون أن تفقد القديمة شيئاً من تألقها، وجمالها، وجلالها، ولم تخسر شيئاً من ثراء نصبها التذكارية وأوابدها الأثرية. شمخت بكامل بهائها الباسيليقات، والمعابد، والقصور، والحمامات العامة، والمسارح، والأقنية المزدانة بعدد لا يحصى من التماثيل، والرخام، والفسيفساء، والمسلات، واللوحات. كما بدأت تُشَيَّدُ أولى الكنائس الكبرى للديانة الظافرة. لم يتمكن القادمون من أكبر مدن الشرق وأكثرها ثراء من إخفاء إعجابهم وانبهارهم بروما. تشهد كلمات **أميان** ذاته على الإنطباع، الذي كانت المدينة تتركه آنذاك على كل قادم يراها للمرة الأولى، حيث وصف إقامة الإمبراطور **كونستانسيوس** في روما في ربيع عام ٣٥٧ . إنه يتحدث ظاهرياً عن رد الفعل المفعم بالتفاؤل لدى الحاكم، الذي لم يشاهد عاصمة ملكه حتى ذلك الحين، وعرفها فقط من الوصف؛ لكنَّ هذه الكلمات في جوهرها تعبير عمَّا شعر به المؤلف نفسه أيضاً:

«وطىء إذن أرض روما، معبد الإمبراطورية بأسرها ومحراب الفضائل كافة. ولما صعد إلى المنطقة، التي تُعَدُّ المنبر الأبهى للعظمة القديمة، وقف مشدوهاً من فرط الإعجاب، فحيثما جال ببصره بهره ثراء الأشياء الرائعة»[٦٠].

ثم يسرد المؤرخ أهم الأوابد الجليلة، التي رآها الإمبراطور آنذاك، على عجل، والتي تأملها بهدوء فيما بعد وتمتع بجمالها، وهو مقيم هناك أعواماً طويلة ـ قبل أن تحطم «رأس الإمبراطورية» ذاك أعمال النهب الهمجية، وحالة البؤس العام للإمبراطورية ومواطنيها، وازدراء المسيحيين بمعابد «العفاريت» ونفورهم منها. وها هي الصروح وفق التسلسل، الذي أورده أميان، ووصفه لها:

معبد **جوبتر** في **الكابيتول**. الحمامات، التي كادت مساحتها أن تعادل مقاطعة كاملة. المدرج الهائل، أي **الكولوسيوم**، المشيد من الجلاميد الضخمة، ذو العلوّ الشاهق، الذي يكاد البصر يعجز عن الإحاطة بحافته العليا. **البانثيون**، الذي شكّل بحدٍّ ذاته حياً دائرياً، متوجاً بقبةٍ مهيبة. الأعمدة الباسقة، التي أمكن الصعود إلى تيجانها على سلالم، حيث، تماثيل الأباطرة القدماء. ساحة السلام. مسرح **بومبيوس**، **الأوديون**، ميدان سباق **دوميتيان**. ساحة **تراجان**.

لا شك أن مجموعة المباني الأخيرة كانت المكان المحبب لأميان في العاصمة على ضفاف التيبر، وهذا ما يكتبه عنها:

«عندما جاء الإمبراطور إلى ساحة **تراجان** ـ وهو صرح لا مثيل له تحت قبة السماء؛ وكما أظن، يعترف الآلهة أنفسهم بأنه جدير بالإعجاب! وقف مشدوهاً. أمعن النظر حوله محدقاً في المنشأة العملاقة. تعجز الكلمات عن وصفها، ولن يتمكن الفانون يوماً من تشييد شيء مماثل»[٦١].

ما الذي صمد وبقِيَ من هذه المباني؟ فقط خطوط محيطية لأساسات معبد **جوبتر**، بقايا بعض الحمامات، جزء من **الكولوسيوم**، **البانثيون**، الذي أُعيد ترميمه، عمودا مارك أوريليوس وتراجان ولكن بدون التماثيل، بقايا وأجزاء من ساحة تراجان؛ تسمح هذه في الواقع بإعادة رسم المخطط العام، لكنها لا تقدم أي تصور عن روعة مجموعة الأبنية، التي كانت تثير الدهشة والإعجاب حتى في النصف الثاني من القرن الرابع، حيث اعتبرت حِلية فن العمارة في العالم، وذلك في أعين أُناسٍ عرفوا جيداً مدن الشرق العملاقة، من أمثال **كونستانسيوس وأميان**.

وصف المؤرخ إقامة القيصر **كونستانسيوس في روما** بدقة، وقد استغلَّ في ذلك تقارير الكتّاب الآخرين، الشفهية والمدونة، لم يكن بنفسه شاهد عيان على ذلك الحدث، وتعذر عليه أن يكون، لأنه كان يخدم في الجيش آنذاك. لكنه في المقابل، وبكل تأكيد، حضر شخصياً وتتبع باهتمام كافة مراحل زيارة **ثيودوسيوس** لروما. وقد أقام الأخير في العاصمة منذ يوم الثالث عشر من حزيران وحتى الثلاثين من آب عام ٣٨٩ ، حيث كان أميان مقيماً هناك منذ أمد طويل. كادت المدينة بأسرها أن تعيش لما يقارب الثلاثة أشهر موضوع وجود الحاكم. وذلك منذ لحظة دخوله الظافرة برفقة ابنه الأصغر **هونوريوس** ذو الأعوام القليلة الذي جيء به بشكل متعمد، وعلى عجل، من **القسطنطينية، لأن ثيودوسيوس** أراد أن يطلع رعاياه بوضوح، مَنْ الذي سيحكمهم مستقبلاً. مَنْ كان قادراً آنذاك، وهو ينظر إلى الصبي الصغير في أثوابه الذهبية والأرجوانية الثقيلة، أن يتوقع بأنه سيصبح حاكم الغرب بعد مرور ستة أعوام فقط؟ ومَنْ تصور آنذاك، أنه هو بالذات سيبدأ سلسلة مستقلة من القياصرة تستمر حتى النهاية القريبة جداً لوجود ذلك الشطر من الإمبراطورية مستقلاً؟ فبعد سبعة وثمانين عاماً فقط، كان لآخر خلفائه أن يُعْزَلَ عن العرش؛ الشيء، الذي اعتبرته الأجيال بمثابة نهاية الحقبة القديمة. استُقْبِلَ ثيودوسيوس وابنه بحماس بالغ عام ٣٨٩ ، وأُبدي إعجاب شديد بثراء الحاشية،والسلاح، وموقف الوحدات المرافقة، وتمَّ النظر بفخر إلى الموكب، الذي رَمَزَ لعظمة الإمبراطورية. ومع كل هذا، كان للغالبية العظمى من المشاهدين أن تعيش بعد واحد وعشرين عاماً، في ظل حكم هونوريوس،، رعب الغزو القوطي لعاصمة الإمبراطورية!.

لم يُشِرْ أميان ولو بكلمة واحدة إلى إقامة ثيودوسيوس في العاصمة، لأن هذا الشيء تجاوز الإطار التاريخي، الذي حدده لعمله. إذ استعرض تاريخ الإمبراطورية حتى عام ٣٧٨ فقط. ولكن مَنْ يدري، فربما استغل بعض عناصر ومشاهد هذه الزيارة الإمبراطورية، التي راقبها عن كثب بنفسه، ليصف فيما بعد تلك، التي لم يكن في وسعه أن يراها؟ أما بالنسبة لنا، فقد كان الوصف أوسع وأكثر مصداقية لما فعله ثيودوسيوس هناك، وللإنطباع، الذي تركته الزيارة لديه، أن يكون مثيراً وفي غاية الأهمية! بينما نحن الآن مرغمون على الاكتفاء بمعلومات جزئية وغير مباشرة.

يبدو وكأن **ثيودوسيوس**، شأنه شأن **كونستانسيوس**، لم يكن قد شاهد عاصمة الإمبراطورية من قبل؛وبكل تأكيد لم يدخلها أبداً بعد أن تولى العرش. ربما بدا بدوره، وهو المفعم دوماً بالحب والولاء للإرث العظيم لماضي الإمبراطورية مبهوراً وهو يرى الآثار. يمكن أن

يُستشف هذا بصورة غير مباشرة من أحد المراسيم، التي أصدرها بعد بضعة أشهر من الزيارة. يدعو فيه روما باحترام ظاهر ((Urbs Aeterna)) المدينة الأزلية، ويوصي بعقلانية صارمة بضرورة ترميم المباني القديمة هناك، وعدم تشييد مبانٍ جديدة وغير ضرورية على نفقة الدولة؛ وإذا ما باشر أحد الموظفين بالبناء بدون علم الإمبراطور وموافقته، مستخدماً الأموال العامة لهذا الغرض، سوف يُضْطَرُّ لإعادة كافة النفقات ودفع غرامة قدرها عشر أرطال من الذهب(٦٢). من المعروف أيضاً، أن ثيودوسيوس ـ شأنه شأن كونستانسيوس في حينه ـ تصرف بكثير من الرغبة في الوفاق مع الأسر الأرستقراطية الوثنية. زار السادة الكبار في قصورهم. وألقى الوثني باكاتوس كلمة الترحيب به في مجلس الشيوخ، وتولى بعد فترة وجيزة منصب حاكم إفريقيا. كما تولَّى الوثني المتقد الحماس سيونيوس ألبينوس ـ أسلفنا الحديث عنه ـ منصب والي روما بدءاً من حزيران عام ٣٨٩ وحتى شباط عام ٣٩١ . وجميع هذه الحقائق معبرة إلى أقصى حد.

لم تكن هذه زيارة ثيودوسيوس الأولى فحسب إلى روما، بل كانت الأخيرة أيضاً. توجد في واقع الأمر بعض المصادر القديمة، التي تشير إلى إقامة قصيرة له في هذه المدينة في خريف عام ٣٩٤ ، ولكن يبدو وكأن هذه الإشارة مجرد خطأ، وذلك لأسباب عدة. وبما أننا في هذا الكتاب نولي اهتماماً للإشارة إلى مختلف الارتباطات الرمزية وإبرازها، فلنحاول التذكير بهذا الشيء أيضاً: في صيف عام ٣٨٩ ، عندما زار آخر الأباطرة الرومان، الذي حكم كامل الإمبراطورية (أي قبل تجزئتها)، روما للمرة الأولى والوحيدة إبَّان حكمه، أُقِيْمَتْ في أولمبيا على ضفاف ألفيوس المهرجانات ذات الرقم ٢٩٢ ؛ مفتتحة بذلك أعوام الدورة الأخيرة لأولمبيادات الحقبة القديمة.

لم تكن روما في نظر كونستانسيوس، وثيودوسيوس، وأميان، وجميع المفكرين في تلك الحقبة، مجرد جملة من الاثار، ولو كانت الأكثر بهاء وروعة؛ لأنها شكلت رمزاً بارزاً ومركزاً لمهمة تاريخية محققة وظافرة. روما ـ هكذا يصف المؤرخ الأمر ـ لوت يوماً رقاب بعض الشعوب المتغطرسة وأرست أسس القانون، القاعدة والضمانة الأزلية للحرية. ثم نقلت كامل الإرث إلى القياصرة، وكأنها الأم لأبنائها. ولكن حتى الآن ـ يقول أميان هذا بفخر ورضى لا يحاول إخفاءهما ـ يُعْتَرَفُ في كل بلدان العالم وأصقاعه، أنها الأم والملكة؛ وفي كل مكان، تحاط سمعة وشيبات أعضاء مجلس الشيوخ بمشاعر الاحترام، ويثير اسم الشعب الروماني بحد ذاته مشاعر التقدير العميق(٦٣).

لكننا إلى جانب هذه التصريحات المشبعة بالتوقير، والتي تكاد أن تنم عن الافتتان، نجد في

مجلدات «تاريخ» أميان عبارات إدانة كثيرة؛ الحقيقة أنها ليست موجهة للمدينة بحد ذاتها، وإنما لحفنة من سكانها غير محددة بدقة، حفنة فقط، على حد زعمه؛ أما في واقع الأمر فإن نقده اللاذع الذي لا يرحم، يشمل جميع طبقات وأصناف الرومان آنذاك.

رومان الدورة الأولمبية الأخيرة:

«تألق المجتمع رائع، لكنَّ ما يهينه هو إطلاق العنان لطيش عدد محدود من الأفراد. إذ يوجد أناس لا يأبهون إطلاقاً بمكان ولادتهم، فيقعون في الأخطاء وينغمسون في الملذات، وكأن الآثام هنا مُنيحَتِ الحرية التامة».

بعد هذا الحكم الأولي الصارم، اللائق بأن ينطق به أي واعظ مسيحي، يقدم أميان تصنيفاً طويلاً لشتى رذائل، ونقائص، وترف مواطني روما؛ أثبتت أنه مراقب سريع البديهة، لكنه غير متعاطف مع أبناء مدينته. يجدر بنا أن نمر ولو سطحياً، ولو باختصار، على هذا السجل العجيب! لأننا لن نجد في أي مكان، ولدى أي من مؤلفي الحقبة القديمة تصويراً على هذا القدر من الكمال والتألق،مع أنه يتيمز بالخبث والمبالغة في الكآبة، لحياة عاصمة الإمبراطورية في أواخر القرن الرابع، في أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة.

يعتقد البعض ـ يقول مؤلفنا ـ أنهم سينالون الخلود، إذا حصلوا على تمثال؛ ولذلك فإنهم يسعون بكل إمكاناتهم لنيل هذا الشرف. ويجد آخرون كامل مجدهم في المركبات، التي تكون أعلى مما هي عليه عادة، وفي الأثواب الثمينة، التي يُرتدى الواحد منها فوق الآخر، وتُغلق تحت العنق، وتُطرز بنماذج متعددة الألوان. وهناك فريق لا يتوقف عن جمع وحساب ـ بالرغم من أنَّ أحداً لا يسأله عن ذلك ـ موارده السنوية من ممتلكاته، التي تمتد من البلدان الغربية حتى الأصقاع الشرقية. هذا إذا لم نتطرق للحديث عن النهم أثناء الولائم، وإغراءات مختلف الملذات!.

وها هو مشهد مصور من الحياة مباشرة:

«يبدي البعض ولعاً بالتجول في الشوارع المرصوفة داخل المدينة الفسيحة، ينطلقون إلى الأمام غير آبهين بشيء، ويهمزون الجياد بأقدامهم، وكأنهم فرسان البريد الحكومي، يجرون خلفهم حشود الخدم كعصابات قطاع الطرق، دون أن

يتركوا أحداً في الدار. تقلدهم بعض النسوة، اللاتي يأمرْنَ بأن يُنْقَلْنَ عبر كافة أحياء المدينة. يجلسن، ووجوههنَّ محجوبة، في الحمالات، بينما يقود القائمون على خدمتهنَّ، الذين يسهل تمييزهم بفضل السياط، التي يحملونها في أيمانهم، مواكب طويلة. يتقدم أولاً موكب ورشة الحياكة، يليهم الطباخون، وبعدهم بقية الخدم، وقد اختلطوا بالغوغاء من المناطق المجاورة. وأخيراً، حشد الخصيان، بدءاً بالشيوخ وانتهاء بالفتية الصغار؛ وهم عادة كائنات بليدة، عديمة الشكل نتيجة تشوه الطبع. ولا بد من لعن اسم الملكة القديمة **سميراميس**، لدى النظر إلى جموع المعوقين، فهي التي أدخلت عادة خصي الرجال الشباب».

يخمن كل من يقرأ هذه الكلمات بيسر كبير، أن نصالها موجهة إلى نحور الطبقات الأكثر ثراء، بما في ذلك أعضاء مجلس الشيوخ. كما سيخمن كل قارىء بدون صعوبة العُقَدَ، التي تكونت لدى المؤلف خلال إقامته في روما. إذ لم يكن له أن يحلم ـ وهو الضابط الشجاع والكاتب القدير ـ بأن يكافأ ويُنْصَبَ له تمثال على نفقة الحكومة في موقع مشرِّف، وَيُزَوَّدُ التمثال بنص جميل ومُعبِّر. لم يكن يملك مركبة فخمة، أو أثواباً ثمينة، أو حشوداً من الخدم، أو ممتلكات شاسعة، كما أنه لم يُقِم الولائم السخية؛ وهذا ما كان قبل أي شيء آخر ـ أو ربما الشيء الوحيد ـ، الذي اكتسب أهمية هنا. لكنه كرجل، ربما متوسط الثراء، كان معرضاً لشتى أنواع الإهانات. بدءاً من توجب الإنزواء عن الطريق حيطة، كلما مرَّت في الشارع مركبة أحد السادة الكبار أو حمالة سيدة تحلَّق حولها حشد الخدم والمتفرجين. لم يقتصر الأمر على هذا الشيء وحده! تعرض أميان لمضايقات أخرى، اعتبرها بحق إهانة لكرامته الشخصية. ويمكن تخمين ذلك لدى قراءة كلمات كهذه:

«إذا قمت أيها الغريب الفاضل بزيارة أحد الأثرياء، المغرورين بثرائهم، للمرة الأولى، سوف تُسْتَقْبَلُ برحابة صدر. وسوف يسألك المضيف عن كل شيء، دون أن يتوانى عن إرغامك على الكذب أيضاً. وستشعر بالدهشة وتتساءل: لما يستقبلك رجل على هذا القدر من سموِّ المكانة، أنت بالذات، الشخص المجهول تماماً هنا، بذلك القدر من التوقير والاحترام؟ وسوف تُذَكِّرُ نفسك إن لم تكن قد جئت إلى روما قبل عشرة سنين! ولكنك إذا صَدَّقْتَ هذه الخدعة وجئت في اليوم التالي إلى ذلك المنزل، ستستقر في ركن ما مهملاً، كمتطفل عادي، دون أن يتعرف عليك أحد. فالمضيف، الذي كان في البارحة يحثك ويرغبك في تكرار الزيارة، سيفكر ملياً، مَنْ أنت ومن أي مكان قدمت إليه. ولكن لنفرض بأنه سيعتبرك صديقاً من جديد! سترى، أنك لو ثابرت على زيارته يومياً لثلاثة أعوام متواصلة، ثم انقطعت عن زيارته لفترة مماثلة، بأن أحداً لن يهتم بذلك، ولن يتساءل أحد، إذا ظهرت هناك من جديد، عمّا جرى لك طيلة

ذلك الوقت.

يقوم أحدهم أحياناً بالإعداد لوليمة مديدة وضارة بالصحة، أو لحفلة توزيع طرود مع الهدايا. فيبدأ أولاً بالتفكير ملياً، فيما إذا كان الأمر يستوجب توجيه الدعوة لبعض الغرباء ـ باستثناء الأشخاص، الذين يفرضهم التبادل بطبيعة الحال. وإذا قرر بعد التفكير الجذري بالموضوع توجيه دعوات، فعلى مَنْ سيقع اختياره؟ على رجل ينام أمام منازل سائقي عربات السيرك؛ على نصّاب يتقن قواعد اللعب بالنرد؛ على مشعوذٍ يتظاهر بمعرفة أسرار السحر. بينما يتحاشى المتعلمين وذوي المعارف الواسعة، كأناسٍ عديمي النفع وممن يجلبون النحس».

يبدو وكأن عام ٣٨٤ انطبع في ذاكرة أميان على نحو مؤلم بشكل خاص، حيث حدثت فضيحة نادرة كما يقول المؤرخ:

«تقرر إبعاد السكان الوافدين من المدينة، حيث برزت صعوبات كبيرة في تزويدها بالمؤن. فَطُرِدَ، وعلى الفور، ممثلو الفنون العقلية، بالرغم من أنهم لم يكونوا سوى قلَّة. وفي المقابل سُمح بالبقاء للأفراد المرافقين لممثلي المسارح بما فيهم القائمون بالخدمة الدائمة والمرحلية. وهكذا أمكن للراقصات بالبقاء في المدينة، وقد تجاوز عددهن الثلاثة آلاف، ومعهن الكوارس والمعلمون؛ دون أن يتعرض لهنَّ أحد. ولذلك فإنك حينما تجول ببصرك هنا، تجد نساء بتسريحات عالية وجدائل، يمسحن الأرض بأقدامهن إلى حد الاشمئزاز، عندما يحاولن الدوران بسرعة؛ إذ أنهن يرغبن في التعبير بالحركة عن عدد لا يحصى من المشاهد المبتكرة في الفنون المسرحية. وكم من النساء بينهنَّ، كان لهنَّ أن ينجبن ثلاثة أطفال لو تزوجنَّ!».

هل أُبعد أميان أيضاً من المدينة لفترة ما، عندما تهددها الجوع؟ هذا ما يفترضه بعض الباحثين اليوم، معتقدين أن الإنفعال، الذي تفيض به الفقرة المقتبسة هنا برهان قاطع على ذلك. ولكن ربما لم يَمُسَّهُ القمع الإداري شخصياً، بل شمل بعض أصدقائه والمقربين منه؟ وعلى أي حال، إن كان الأمر على هذا النحو أو ذاك، لا يمكن إخفاء الشعور بالأسى العميق، الذي تنضح به الكلمات التالية:

«في زمن ما، عندما كانت روما حقيقة محراب الفضائل كافة، حاول العديد من السادة ذوي المقامات الرفيعة فيها، اللجوء إلى العديد من أساليب الرقة والود لإبقاء بعض الوافدين الأحرار إلى جانبهم ـ مثلما فعل أبطال هوميروس هؤلاء عن طريق عذوبة الفاكهة. أما الآن، فإن غرور غطرسة البعض، يدفعهم للاعتقاد، بأن كل مَنْ وُلِدَ خارج حدود المدينة

جدير بالإزدراء. اللهم إلا إذا كان الأمر يعني أناساً غير متزوجين أو غير قادرين على الإنجاب. إنه شيء يكاد أن لا يصدق، سعي الناس في روما وراء رضى أولئك، الذين لا وريث لهم!»(٦٤).

جميع الفقرات المستشهد بها حتى الان، مقتبسة من المجلد الرابع عشر من «التاريخ»، الذي صدر بعد عام ٣٨٤ بفترة وجيزة. قد لا يتعدى الأمر إفراغ شحنة من النفور المرحلي، المنطلق بعنف تحت تأثير المعاناة المؤلمة بلا ريب، والمتمثلة في عملية مراقبة سياسة سلطات المدينة حيال الوافدين؟ ولكن لا! لأن أميان يعود إلى هذا الموضوع «المعادي لروما» في المجلد الثامن والعشرين أيضاً، الذي كُتِبَ بعد ذلك الحين بما يزيد عن عشرة سنين. فهو يعبر من جديد عن كراهيته، التي كادت أن تكون هاجساً، لسكان المدينة، وخاصة لأولئك، الذين انحدوروا من أثرى الطبقات. ومن جديد يخط بقلم الهجائي الحاد والمسموم سلسلة كاملة من المشاهد بالسلوك، والصور المأخوذة من الحياة مباشرة ـ من الشارع، ومن الحمامات، ومن القصور.

«ها هو أحد الأقطاب، يرتدي أثواباً حريرية براقة، يتقدم محاطاً بحشدٍ من الخدم وسط الضوضاء والإرتباك. وما أن يجد نفسه داخل صالات الحمَّام المسقوفة حتى يبدأ بإطلاق صيحات مرعبة: أين اختفى رجالي؟! ـ على الرغم من وجود ما لا يقل عن خمسين شخصاً حوله. وبغتة يجيء كوقع الصاعقة نبأ قدوم عاهرة أو بنت هوى مجهولة هنا حتى الآن، جاءت من بلدة كان في وسع مَنْ شاء، نيلها. يهرع السادة الجليلون نحوها متسابقين، يتملقون ويرفعون إلى السماء بكلمات المديح الكريهة البغي العجوز ـ وكأنهم سكان الشرق القديم أمام **سميراميس**، أو المصريون أمام **كليوباترة**، أو التدمريون أمام **زنوبيا**. هكذا يتصرف أناس، لو تجرأ أسلافهم على تقبيل زوجاتهم أمام بناتهم، لقام الرقيب بوسمهم!.

كيف تبدو مشاهد تبادل التحية بينهم؟ عندما يلتقي إثنان منهما وجهاً لوجه، يقبلان بعضهما، لكنهما يديران أثناءها برأسيهما وكأنهما ثوران يتناطحان. وللمداهنين يقدمون الرُكب أو الأيدي للتقبيل، ويعتبرون هذا شرفاً وسعادة تامة لمن مَيَّزُوه بذلك، كما أنهم على قناعة تامة، بأنهم يعاملون الغريب بلطف زائد، إذا سألوه عن الحمَّام أو المياه، الذي يتردد عليه، وفي أي مسكن يقيم.

غالباً ما يزور قصورهم المتسكعون والثرثارون، الذين اعتادوا على مداهنة كل ثري ومتنفذ بالتصفيق لكل كلمة يتفوه بها، وذلك على شاكلة أولئك الطفيليين، الذين كانوا موضع سخرية في الكوميديا القديمة. يعبرون عن

إعجابهم الشديد بارتفاع الأعمدة الحاملة لواجهات المباني، وبالجدران البراقة بما رُصِفَت به من حجارة ذات ألوان مختارة بعناية. أما أثناء الولائم، فلا يكفون عن طلب الميزان؛ حيث يعاينون باهتمام أوزان أضخم الأسماك والطيور المقدمة على المائدة، ويصيحون دون توقف بأن هذا الشيء غير عادي ولم يصادف من قبل، بينما يقوم حشد من الكتبة بتدوين كل ذلك بعناية ودقة. إذا تأخر العبد عن تقديم المياه الساخنة في الموعد المحدد، يعرض نفسه للجلد ثلاثمئة جلدة. لكنَّه لو قتل رجلاً عن سابق عمد وإصرار، وتعالت الأصوات من كل حدب وصوب مطالبة بأن يدفع حياته ثمن ذلك، سيجيب سيده: وما الذي تتوقعون أن يفعله هذا الوغد المعروف بدناءته؟ إنْ يتجرأ وَيُقْدِم مرة أخرى على شيء مشابه، عندئذ سنعاقبه!

لا يبدي السادة النبلاء رغبة في مغادرة المدينة. فإذا ابتعدوا قليلاً لإلقاء نظرة على أراضيهم أو بهدف الصيد ـ ليس السادة مَنْ يتعب أثناء الصيد بطبيعة الحال! ـ يكفي هذا، لكي يعتقدوا بأنهم أنجزوا عملاً مماثلاً لحملات **الإسكندر الكبير** أو **يوليوس قيصر**. وإذا قاموا بنزهة في قوارب زاهية الألوان من بحيرة **أفيرنوس إلى بوتيول**، يظنون بأنها رحلة بحرية حقيقية لجلب الصوف الذهبي؛ وخاصة إذا ما تجرؤوا على النزهة في الفصل القائظ من السنة. وما أكثر التذمر والشكوى من أنهم لم يولدوا في مكان ما من الشمال البعيد، إذا حطَّت ذبابة على الثوب الحريري بالرغم من حركة المروحة، أو عندما يتسرب شعاع من الشمس عبر شِق في الستائر الواقية! ولكن ها هو رجل آخر يخرج من الحمَّام، من المغسل الصحي، فما أن يطفو فوق المياه، يتناول أرقَّ المناشف وأكثرها نعومة ليجفف جسمه بها. ثم يفتح الصناديق ويُمعن النظر إلى الأثواب، التي تومض ببريق متألق، يرتدي جميع الأثواب معاً، وهي كافية لإكساء اثني عشر فرداً (دزينة). وعندما يقع اختياره في نهاية المطاف على بعضها ويتلفع بها، يضع الخواتم (أعطاها للخدم من قبل لكي لا تسقط في المياه)، وينصرف بخطوات كأنها قياسية.

ما هي الاهتمامات والأعمال الرئيسة لأبناء هذه الطبقة؟ اصطياد التركات. اللعب بالنرد. دراسة العرافة والتنجيم. يوجد بينهم كثيرون ممن ينكرون وجود قوى خارقة في السماء؛ لكن هؤلاء أنفسهم، لا يجرؤون على مغادرة المنزل، أو تناول طعام الإفطار، أو الاستحمام، قبل أن يدققوا في تقويم الأبراج والتأكد من موقع عطارد في اللحظة المعينة، أو من الجزء، الذي يحتله القمر في مساره الدائري من برج الجدي»(٦٥).

وفي اقتباس جديد من المجلد الرابع عشر ها هي :

«بيوت لا تحصى، ذات صيت ذائع يوماً في ممارسة هوايات واهتمامات جادة، غارقة اليوم في مباريات الكسل، الذي يبلد العقل؛ تتردد فقط أصداء الغناء وطنين القيثارة. حلَّ المطرب محلَّ الفيلسوف، واسْتُبْدِلَ الخطيب بمعلم فنون اللهو. تُغْلَقُ المكتبات إلى أبد الدهر كالمدافن. تُصْنَعُ في المقابل أصناف الأورغ المائي،والقيثارات بحجم المركبات، وكذلك المزامير وشتى أدوات الممثلين»(٦٦).

لكن المكانة الأولى في قلوب وعقول وأحاديث الرومان، احتلتها بلا قيد أو شرط، سباقات المركبات في السيرك؛ حيث مَتَّعَتْ أعضاء مجلس الشيوخ والعامَّة معاً.

العامَّة والمهرجانات:

كيف عاش وما الذي انشغل به عامة الناس في روما؟ الإجابة، التي يرد بها أميان على هذا السؤال زاهية أيضاً، ولكنها مبالغ بها بخبث، شأنها شأن اللوحة، التي رسمها لطبقة أعضاء مجلس الشيوخ.

«فيما يتعلق بقطيع الناس الأشد فقراً،فإن البعض يقضي الليل في الحانات، حيث يباع الخمر. ويختبىء آخرون تحت ظلال الستائر الممتدة فوق خشبات المسارح. أو يتشاجرون بشجاعة وهم يلعبون النرد، ويطلقون أصواتاً تُثير الاشمئزاز، لأنهم يتنفسون شخيراً من أنوفهم. أو أخيراً ـ وهذا هو موضوع أكبر انفعال لديهم جميعاً ـ يرهقون أنفسهم في القيظ أو المطر منذ الصباح الباكر وحتى المساء، وهم يناقشون بالتفصيل مزايا ومساوىء سائقي مركبات السيرك وجيادهم. شيء مثير للدهشة إلى أبعد حد: النظر إلى حشود لا تحصى من الناس وقد أصيبت عقولهم بمس من جنون، وهم ينتظرون في توتر شديد نتيجة سباق المركبات»(٦٧).

اقتبست الفقرة السابقة من المجلد الرابع عشر. ويعود أميان في المجلد الثامن والعشرين لمعالجة الموضوع نفسه، حيث يقول:

«لنتوقف الآن عند الغوغاء، مثال التسكع والكسل! يتألق بينهم حملة ألقاب وأنساب رنانة، مِمَّن لا يجدون ما ينتعلونه. ويكرس الجميع كامل الحياة للخمرة، واللهو، والحانات الرديئة السمعة، والمتع، والمهرجانات. أما المعبد، والمنزل، ومقر التجمعات، والأمل بالنسبة لهم جميعاً، فهو السيرك الكبير. يمكن إذن مشاهدة مجموعات صغيرة من الناس على مفترقات الطرق، وفي الشوارع والساحات،

يتخاصمون ويتحدُّون بعضهم وسط الشجار، لأن كلاً منهم، وكما يحدث عادة، يدافع عن موقف مختلف؛ أما، الذين عاشوا الحياة حتى التخمة، وأضحى رصيد العمر المديد ورقة رابحة بين أيديهم، فيصرخون ويقسمون بشعرهم الأشيب، بأن الدولة يجب أن تنهار، إذا كان المتباري فلان أو فلان في السباقات المقبلة، لم ينطلق من مكانه أولاً، ولم ينعطف انعطافاً حاداً بجياده الملعونة. يسود في هذه المدينة عفن البطالة والكسل، ولكن ما أن يطلَّ فجر يوم المباريات المنتظر، وقبل أن يلوح قرص الشمس النقي في الأفق، يهرع الجميع برشاقة في حشود غير معهودة، حيث يتصور المرء بأنهم سيسبقون المركبات، التي هم في طريقهم لمشاهدتها. قضى الجميع الليلة الماضية دون أن يغمض لهم جفن، وقد تملكهم الرعب على نتائج السباق والقلق على آمالهم.

وعندما يتوجهون من ذلك المكان إلى العروض المسرحية الرديئة، فإن الممثل، الذي لا يشتري رضى الغوغاء الخسيسة بالمال، يُطْرَدُ بالصفير. وإذا لم يحدث مثل هذا الصخب، تتعالى الصيحات المطالبة بطرد جميع الغرباء. كريهة هي تلك الأصوات وغبية، لأن الفضل في وجودهم يعود للغرباء. فما أبعدهم عمَّا كان يهيم به العامَّة قديماً، وعن الأسلوب، الذي عبَّروا به عن إرادتهم؛ وقد نقلت لنا التقاليد الكثير من أقوالهم ونكاتهم! وفي الآونة الأخيرة، ابتكروا أسلوباً حديثاً تماماً للتعبير بقوة خاصة عن التملق والإطراء. ففي كل مهرجان، يقوم الأشخاص المخصصون للتصفيق بإطلاق صيحات مستمرة ليس على شرف قاهري الحيوانات المفترسة، وسائقي المركبات، وشتى أصناف الممثلين فحسب، وإنما على شرف الموظفين على مختلف المستويات أيضاً؛ لا بل، حتى على شرف بعض سيدات المجتمع الراقي.. أما العبارات المستخدمة فهي: ليتعلم منك هؤلاء! والحقيقة أنه ما من أحد يستطيع أن يقول، ما الذي يجب أن يتم تعلمه»(٦٨).

الطواحين والمواخير:

هذه صورة مرسومة بمكر للحياة في روما في أواخر القرن الرابع، وهي مشوهة على نحو كاريكاتوري! ولكننا إذا تأملنا الصورة بروية سنجد بأنها ترسخ لدينا القناعة بتوفر شروط مثالية لحياة خالية من الهم لسكان العاصمة الدائمين، بالرغم من عدم دماثتهم، أو بالأحرى بالرغم مما أثاروه من النفور بسلوكهم وتصرفاتهم؛ سواء هؤلاء الأكثر ثراء، أو أولئك الأشد فقراً بينهم. لقد أمضوا جميع أيامهم في المدينة الرائعة الجمال والمليئة بكافة وسائل الراحة، مستسلمين للكسل والتسكع، غير آبهين بالسياسة أو الاقتصاد، بالعلم أو الفن؛ أما الشيء

الوحيد، الذي شدَّهم فعلاً، فكانت المباريات، والمسارح، والحانات، وألعاب القمار. وفيما يتعلق بالعمل ـ يبدو أن هذا يستنتج بوضوح من كلمات أميان ـ فلم يكن هناك أحد يرغب في ممارسته أو يضطر لذلك.

لكنَّ الأمور لم تكن حسنة على هذا النحو، وتعذَّر عليها أن تكون. أجل، إنها حقيقة واقعة: أنَّ عاصمة الإمبراطورية لم تكن تشكل مركزاً إنتاجياً كبيراً حتى في مجال الإنتاج الحرفي (الشيء، الذي اختلفت فيه عن الإسكندرية إلى أقصى حد، وهذا ما سنعود للحديث عنه فيما بعد)؛ فقد تميزت روما بطابع استهلاكي أساساً. ولكن لا بدَّ وأن هناك أحداً ما تحمل عبء الأعمال الخدمية المضنية، الضرورية لوجود أي تجمع بشري كبير. كان لا بدَّ من إدارة رحى المطاحن (لم يكن استخدام المياه لهذا الغرض معروفاً بعد)، وإعداد الخبز، ونقل السلع، وتدفئة وتنظيف الحمامات، والعناية بأنابيب الصرف الصحي وترميم الأسوار والمباني، وتحسين الطرقات. أُلقي بأحقر هذه الأعمال على عاتق العبيد والمعتقين والمحكومين. ولكن بالرغم من ذلك، فقد ظلَّت الحاجة قائمة دوماً للأيدي العاملة لإنجاز أسوأ الأعمال. نقص في اليد العاملة في مدينة على هذا القدر من الكثافة السكانية والثراء! ولهذا السبب بالذات، فقد تهددت الغرباء وعديمي الخبرة مختلف المخاطر. يعالج هذا الموضوع مؤرخ الكنيسة **سقراط**، الذي ورد ذكره هنا مراراً، وذلك بصورة زاهية وتنويرية. فبمناسبة زيارة **ثيودوسيوس** إلى روما عام ٣٨٩ ـ أسلفنا الحديث عنها ـ يشير إلى وباءين كانا يعذبان المدينة آنذاك، وقد قضى عليهما هذا الحاكم على حد زعمه.

أُنشئت في روما مطاحن ومخابز ضخمة، وقد تمت موضعتها في الأدوار السفلية من المباني تحت الأرض؛ بينما وُجِدَتْ في الواجهات المطلة على الشوارع، حانات، جلست فيها **العاهرات** عادة. ولذلك فقد تردد الكثيرون على هذه الحانات، وخاصة الغرباء غير الواعين للأمور؛ البعض بهدف شراء حاجات معينة، والبعض الآخر بهدف اللهو المبهج. ولكن في الداخل كان ثمة شرك خطير يتربص بهم؛ إذ أن أجهزة سرية كانت تعمل على إسقاطهم إلى الدور السفلي من المبنى مباشرة، حيث يُرغم من أُسقط على العمل المضني والمتواصل في المطاحن، ويتعذر عليه مغادرة جحيمه ذاك حتى أيام الشيخوخة المتأخرة؛ بينما كانت الأسرة قد بكته منذ أمد بعيد وطواه النسيان، وُصُنِّفَ في عداد الموتى أو المفقودين بدون أثر! واجه أحد الجنود، الذين رافقوا **ثيودوسيوس** أثناء زيارته لروما المصير ذاته. لكنَّ الجندي كان مسلحاً بحربة، وكان قوياً وحاذقاً؛ فتمكن من تحرير نفسه والصعود إلى الأعلى، بعد أن داس جثث عدد ممن اعترضوا سبيله. جرت اللعبة كلها وكأنها في قصة معاصرة أو في

فيلم مغامرات! أثارت القضية ضجة كبرى بطبيعة الحال. وعاقب القيصر مجلس (نقابة) الخبازين بغرامة ضخمة، وأمر بهدم المباني المليئة بالمصائد حتى الأساسات.

لا ضرورة لأن نبرهن بأن الرواية بهذه الصيغة غير جديرة بالثقة. فاصطياد الناس، على الرغم من أنه حدث هنا وهناك (ليس في روما وحدها وفي الحقبة القديمة فحسب!)، تميز بطابع عرضي؛ وعلى أي حال، لم يكن ممكناً ممارسة مثل هذا النشاط لفترة طويلة في المنطقة ذاتها من المدينة الواحدة. ومع ذلك، يمكن القول، بأن الحكاية تتضمن بذرة الحقيقة على أقلِّ تقدير؛ ومن ثمَّ تمَّ تضخيم قضية فردية وتعميمها. أما الوباء المزعوم الثاني في روما، الذي وردت الإشارة إليه في رواية سقراط، فيجبُ أن يُصَنَّفَ في عداد القصص الخيالية الصرفة، التي حبلت بها مخيلة شخص منحرف جنسياً. يؤكد المؤرخ على شيوع هذه العادة هناك: أُلقي القبض على المتزوجات اللاتي التقطن بالجرم المشهود وهنَّ يزنين، وتمَّ إيداعهنَّ في الماخور، حيث أُرْغمن على ممارسة الدعارة، وكانت مجموعة من الخشاخش المبتكرة تجلجل مع كل حركة لتعلن عن الخزي والعار ـ وذلك لتسلية حشد المتفرجين. وكان ثيودوسيوس مَنْ ألغى هذه الممارسة المشينة.

يعتمد كل شيء هنا على التلفيق. فقد تمَّ خلط أمور عديدة وأضفيت عليها صبغة إباحية فاحشة، صورة أو صوتاً. يجب التذكير قبل كل شيء، بأن المرأة المتزوجة، التي خانت زوجها، كانت معرضة فعلاً لعقوبات أقسى وأشدَّ صرامة: فوفقاً للقوانين الرومانية القديمة، يُحكَمُ عليها بالنفي وبمصادرة جزء من الممتلكات، وكامل المهر، أو حتى بالجلد؛ وطبقاً للقوانين اللاحقة، وخاصة تلك، التي شرَّعها الأباطرة المسيحيون، بدءاً من قسطنطين الكبير؛ يُحكم عليها بالموت. وهذا مثال صارخ على الظاهرة المعروفة جيداً، والتي تمثلت في موقف العالمين الوثني والمسيحي من موضوع الجنس؛ حيث تميز الأول بشيء من الليبرالية والتسامح، والثاني ـ بالقسوة المطلقة. أجل، لقد حُكِمَ في بعض الأحيان في روما على النساء بالحجز في المبغى، لكنَّ هذا الشيء كان يحدث في أزمنة أقدم وبسبب جرائم أخرى ـ جرائم المرأة نفسها أو أقرب أفراد عائلتها.

قد يستغرب أحدهم أننا نسرد هنا ونعالج حكاية تافهة، وملفقة بشكل صريح. لكنها قضية مثيرة إلى أقصى حد، كما أنها ذات مغزى: لقد اعتبرها أحد مؤرخي الكنيسة، الرجل، الذي بقي مقيماً في القسطنطينية، جديرة بأن تنقل للأجيال! حريٌ بنا إذن أن نبحث عن الهدف، الذي دفعه للقيام بذلك. يرجح أن يكون مزدوجاً. أولاً: أراد أن يُبرز أمام أعين قرائه المسيحيين، الفظائع، التي جرت في عاصمة الإمبراطورية تلك حتى وقت قريب؛

العاصمة، التي لا تزال وثنية في أعماقها، وخاصة في أوساط الطبقات العليا. **ثانياً**: أراد الإشارة إلى أن الحاكم العائد لتوِّه إلى القسطنطينية، والوفي لهذه العاصمة، التي على شواطىء البوسفور، هو مَنْ تمكن من وضع حدٍ للجرائم والأعمال المخزية على ضفاف التيبر، لأن الرومان أنفسهم عجزوا عن معالجتها.

وعلى أيِ حال، لا بدَّ من الاعتراف، بأن روما ذلك العصر لم تكن محظوظة بالمؤرخين لأن كلاً من سقراط المسيحي وأميان الوثني كانا غير وديين في شهادتهما لها.

أميان والأرستقراطيون:

لا بُدَّ للقارىء النزيه وغير المتحيز أن يتساءل أخيراً: إذا كان وضع أميان على ضفاف التيبر بهذا القدر من السوء، فَلِمَ لم يهجر بأسرع ما يمكن ذلك الشعب المليء بالرذائل المقيتة؟ فقد كان كامل العالم الروماني مشرع الأبواب أمام الضابط السابق والرجل المستنير! وعلى الأغلب لم تكن ثمة صعوبة في أية لحظة تحول دون عودته إلى **أنطاكية**، مسقط رأسه، ليبتهج بصداقة **ليبانيوس** ومعارفه السابقين.

كما كان في وسعه أن يستقر في الإسكندرية، التي يثني عليها ويكيل لها المديح كمحراب لا يزال مزدهراً لشتى العلوم والمعارف. كما كان له أخيراً أن يجرب حظه في العاصمة الجديدة، تلك التي على شواطىء البوسفور، فقد نمتْ بسرعة وزخم، ولذلك فإن موقف سكانها من الوافدين كان بطبيعة الحال مختلفاً عمَّا كان عليه في روما القديمة، كان ودياً ـ لأن الجميع هنا كانوا وافدين، استقروا فيها منذ ما لا يزيد عن جيلين أو ثلاثة. فَلِمَ تشبث أميان طيلة تلك الأعوام، وبكل ذلك القدر من التشنج، بالمدينة البغيضة في نظره، حيث مارست النبالة النفاجة والميل الهمجي للثراء الفاحش، وتميز الشعب بالكسل، ولم يحب سوى المتع والمهرجانات؟ ثم لمَ لم يغادر الكاتب على جناح السرعة المكان، الذي كانت فيه المكتبات ـ كما كتب تصويرياً ـ مقفلة وصماء كالقبور.

لا نعرف جيداً تفاصيل حياة **أميان** وكافة الظروف المحيطة بها بذلك القدر، الذي يسمح لنا بالإجابة على هذه التساؤلات بشكل قاطع. فربما كانت هناك أسباب متعلقة بالممتلكات أو الأسرة. ويحتمل أيضاً ـ وهذا ما يُفترَض غالباً ـ أن يكون قد وجد في **روما** سهولة أكبر في جَمْعِ المعطيات الضرورية لأبحاثه، وفرصة أفضل لإتقان اللاتينية. لكنَّ مَنْ قرأ أعمال **أميان** بتمعن، ومَنْ تعرَّف على سُبُلِ تفكيره الملتوية والعجيبة، وعلى عقده الأكيدة، ورهابه،

وضغائنه، سيتوجب عليه بلا ريب أخذ احتمالات أخرى بعين الاعتبار. إذ ما كان لرجل كهذا أن يشعر بالارتياح في أي مكان؛ وتتحمل مسؤولية ذلك سمات سلوكه الفطرية. فهو مراقب حاذق وسريع البديهة، وفي الآن ذاته مفرط الحساسية على كافة أشكال النفور ـ الحقيقية منها والوهمية ـ منه أو من الأشخاص المعدودين، الذين كانت عواطفه متأججة نحوهم. ولا ضرورة لأن نضيف بأن سمات النفس هذه تكاد أن تنعكس على كل صفحة من صفحات عمله،وتجعل من أميان كاتباً ذا شخصية مشوقة؛ فالناس الدمثون والإسترضائيون في حياتهم، غالباً ما يكونون في إبداعهم أيضاً ذوي أدب ولياقة ورقة. وهكذا ينشأ احتمال، أن مؤرخنا كان في روما في وضع حسن نسبياً ـ بالرغم من كل ذلك السيل من التفجع، واللعنات والتذمر.

ربما شعر بالإرتياح لسبب آخر أيضاً، وهو احتكاكه هناك بأوساط المثقفين الوثنيين، الذين أبدوا حرصاً شديداً على تقاليد الأدب القديم، وعلى رعاية التقاليد الدينية والوطنية. ولكن يبدو أن أميان عجز عن الصعود إلى أعلى دوائر ذلك الوسط ـ وكانت هذه الدوائر متقدة الحماس دينياً، كما كانت الأكثر نشاطاً ثقافياً؛ أو ربما وصل هناك، ولكن بشكل متأخر نسبياً، فلم ينعكس هذا الشيء في عمله ونتاجه بالشكل الملائم.

تحلقت الدوائر، التي نحن بصددها حول عدد من أعضاء مجلس الشيوخ. وفي مقدمتهم **فيتيوس بريتيكستاتوس**؛ **وسيماخوس الأصغر**؛ **ونيكوماخوس فلافيانوس** ـ الأب، الذي دُعي **فيريوس**، وابنه؛ وأخيراً **سيونيوس ألبينوس**، الذي تعرفنا به جيداً في فصل سابق. ظلَّت قصور هؤلاء الأرستقراطيين الفاحشي الثراء، المعتزين بقدم، وعراقة، وأهمية أنسابهم، مغلقة في وجه أميان لفترة طويلة جداً، أو ربما حتى النهاية. لماذا؟ يمكن القيام بكثير من التخمينات. ربما كان العائق كامناً في انحداره من بلد غريب أو في انتمائه الطبقي المتدني؟ أو ربما كان مجرد خلاف عرضي مع إحدى الأسر العريقة في عضوية مجلس الشيوخ، أو مع أحد الأفراد المقربين منها؟ وإذا ما اسْتُقْبِلَ الأنطاكي في أيٍ من هذه القصور، فإنه بالتأكيد لم يلق هناك الترحيب القلبي والتقدير اللائق، الذي كان يتوقعه لقاء خدماته وموهبته. ولا ريب في أن المؤلف الطموح تألم لهذا السبب، وتتجلى مرارة خيبة الأمل بوضوح تام في أقواله، التي استشهدنا بها، عن أثرياء ومتنفذي روما ونمط حياتهم. إنها سمات عامة، بغير أسماء؛ ولكن يبدو أنَّ هذا الأسلوب كان مأموناً بشكل أفضل.

فيما يتعلق بالأشخاص المشار إليهم لتوِّه، فإن مؤرخنا يبدي رأياً حسناً وبدون تحفظ في الأول منهم فقط. لكنَّ **فيتيوس بريتيكستاتوس**، الذي توفي عام ٣٨٤ ، حظي باحترام عام

في أوساط المسيحيين أيضاً، بالرغم من أنه كان وثنياً علنياً متقد الحماس. ومن ناحية ثانية، قلّما يورد أميان اسم **سيماخوس** الأصغر، الرجل ذو النشاط والنفوذ الهائل، وعندما يتحدث عنه، فبشيء من الفتور وبغير لهفة؛ وفي بعض الأمكنة يُشعرنا بالنفور منه. وهذا ما لا يدهشنا، فسيماخوس نفسه كان والي روما عام ٣٨٤ ، عندما أُبعد منها في مواجهة المجاعة، السكان الوافدون، ومن بينهم على الأرجح، الضابط الأنطاكي، الذي استقر هناك قبل فترة قصيرة؛ وأخيراً **فيريوس نيكوماخوس**. كتب بنفسه عملاً تاريخياً بعنوان «الحوليات»، العمل الذي اقتبس منه أميان بغزارة على ما يبدو. وبالرغم من ذلك، فإننا لا نجد في مجلدات أميان سوى إشارة واحدة إلى مؤلف الحوليات، وهو السياسي اللامع! ربما كان هذا السناتور في الأعوام الأخيرة من حكم ثيودوسيوس من أكثر مؤيدي المتمرد والمغتصب **يوجينيوس** حماساً؟ ولذلك ـ يمكن لمن يشاء أن يصر ـ ارتأى أميان أنه يفضِّل حذف اسم هذه الشخصية المثيرة للجدل من عمله، لكي لا يعرض نفسه لعداء الإمبراطور الظافر.

أوريليوس فيكتور:

لكنَّ أميان وجد مسؤولاً أقام معه علاقة وثيقة. الشيء الجدير بالاهتمام هنا، هو أن هذا المسؤول، المهتم بالتاريخ أيضاً كان من الوافدين إلى روما، أي من أناس الخارج، وتعذر عليه أن يتباهى بأصله الأرستقراطي. والمسؤول الذي نتحدث عنه هنا هو **أوريليوس فيكتور**، تولّى منصب والي المدينة عام ٣٨٩ ، وتحديداً حين تمَّ الاحتفال في أولمبيا بإقامة المهرجانات للمرة ما قبل الأخيرة. تولَّى المنصب الرفيع في أواخر حياته، بعد أن سلك درباً غير اعتيادية، وهي على أي حال، مميزة للظاهرة، التي يطلق عليها العلم المعاصر اسم «الحركية الاجتماعية»؛ وقد ثبت، ليس على أساس هذا المثال وحده، أن المجتمع الروماني آنذاك، وبالرغم من كافة العوائق، والعقبات، والحواجز، لم يشكل نظام طبقات منغلقة.

وُلِدَ **فيكتور**، كما يعترف بنفسه في قرية فقيرة من قرى **إفريقيا** الرومانية. لم يكن والده متعلماً. أما هو فقد أتمَّ تعليمه ويتباهى بهذا الشيء بفخر لا يخفيه قائلاً: «حققت بفضل الدراسة العظيمة ما جعل حياتي أجدر!»[٧٠]. لا نعرف الظروف والأسباب، التي دفعته للانتقال من أفريقيا إلى هضاب الإمبراطورية الواقعة على ضفاف **الدانوب**، حيث استقر في مدينة **سيرميوم** على ضفاف نهر **سافا** على مقربة من **بلغراد** الحالية. أيمكن أن يكون عمل كمدرس للبلاغة؟ أو في أحد مكاتب ذلك المركز الإداري والعسكري الحيوي آنذاك؟ وهل

هو مَنْ ألقى كلمة الترحيب بالإمبراطور **يوليان** عندما تخطى الأخير بوابة المدينة عام ٣٦١؟ كانت مثل هذه الكلمات في ذلك العصر محطة لا غنى عنها في مراسم استقبال الضيوف الرفيعي المقام. وعلى أي حال لم يكن مثل هذا محصوراً بذلك العصر وحده. يُحْتَمَلُ أيضاً أن يكون فيكتور قد قدَّم بهذه المناسبة للإمبراطور الشاب نسخة من العمل التاريخي، الذي كان قد فرغ لتوِّه من كتابته ونشره. المهم في الأمر أن شخصيته انطبعت في ذاكرة **يوليان**، ما دام قد عيّنه بعد أسابيع معدودة في منصب حاكم مقاطعة عُرفت باسم **بانونيا** الثانية، وضمت الشريط الواقع ما بين نهري **سافا** و**دارفا**. ولا ريب في أن هذا الحدث كان بمثابة نقطة انعطاف في حياة فيكتور. فبدءاً من تلك اللحظة راح يصعد درجات السلم الوظيفي حتى بلغ منصب والي **روما** عام ٣٨٩ ـ لا نعرف شيئاً عن المناصب التي تولاها قبل ذلك. لا شك بأنه تمتع بمواهب حقيقية، وأثبت بأنه جدير بالتقدير: لقد كان وثنياً وكان ليوليان فضل كبير عليه، ولكن بالرغم من ذلك كلفه **ثيودوسيوس** بمهمة على هذا القدر من الأهمية! عبَّر فيكتور من جانبه عن مدى تقديره للثقة الممنوحة له، فنصب في ساحة **تراجان** تمثالاً للإمبراطور ثيودوسيوس، وأمر بنقش نص على قاعدته، كان لا يزال مرئياً حتى القرن السادس عشر، وترجمته:

> «إلى سيدنا فلافيوس ثيودوسيوس، التقي الظافر، أغسطس روما؛ إلى ذاك، الذي تجاوز عطف، وقداسة، وكرم القياصرة القدماء ـ سيكستوس أوريليوس فيكتور، الرجل ذو المقام الرفيع، والي المدينة، قاضي المحاكم الإمبراطورية، الوفي لذي الجلالة المتأله»(٧١).

اين البرهان على معرفة أميان بفيكتور وتقديره له؟ أجل، مثل هذا البرهان موجود؛ وعلى الرغم من أنه غير مباشر ويبدو ضئيلاً ظاهرياً، فهو مؤكد بما فيه الكفاية. فها هو المؤرخ لدى حديثه عن لقاء الوالي المقبل مع يوليان يقول باقتضاب روماني حقيقي: «رجل جدير بأن يُقَلَّدَ نظراً لاستقامته»(٧٢).

يحمل عمل فيكتور عنواناً إصطلاحياً De Caesaribus. يستعرض فيه حكام روما بدءاً من **أغسطس** وانتهاء **بكونستانسيوس** الثاني، وتحديداً، حتى عام ٣٦٠ . ظهرت في العالم الروماني قبل ذلك الحين مؤلفات تقدم لمحات عن أهم الحقائق التاريخية وسمات ألمع الشخصيات، لكنَّ القرن الرابع كان مولعاً بها بشكل خاص؛ وبين المقالات المحفوظة من هذا النوع، يعود ما لا يقل عن أربع إلى الربع الأخير من القرن الرابع. ومن بين هذه المقالات الأربع ثلاث خُطَّتْ بِرِيَشْ أناسٍ لم يكونوا من المؤرخين المحترفين؛ كتبها مسؤولون في الدولة بمستوى الوزراء، إذا ما استخدمنا مصطلحات اليوم. هكذا كان **يوترويوس**

قنصل عام ٣٨٧ ؛ **وفيستوس**، حاكم آسيا في الأعوام ٣٧٤ ـ ٣٧٨ ؛ وأخيراً، **أوريليوس فيكتور** (الذي مهد له عمله هنا الطريق نحو المستقبل المشرق). تراود الذهن هنا بعض الخواطر: ما هو عدد الدول في أوروبا المعاصرة، التي تستطيع أن تفخر بوزراء مستعدين من تلقاء أنفسهم لكتابة ولو أبسط لمحة عن تاريخ بلدانهم ـ وتكون لديهم المقدرة على أداء هذه المهمة على نحوٍ سليم؟.

يفترض بعض الباحثين أن كتابة هذه الملخصات دلالة على انحطاط علم التاريخ آنذاك، وتدني المستوى الثقافي العام. لكنَّ أعمالاً طموحة وأصيلة، مهيبة بسعتها وأفكارها، ظهرت في تلك المرحلة أيضاً. أما ظهور الملخصات، فيمكن تفسيره كدليل على تزايد الاهتمام بالماضي، حيث برزت الحاجة لمعرفته في العديد من الأوساط. كانت الكتب المفضلة باهظة الثمن وغير متوفرة. فهذا إذن مطلب اجتماعي (لِمَ لا نستخدم المصطلح الشائع اليوم؟) تَمَّتْ محاولة تلبيته ـ وإن لم يكن بالنجاح المطلوب في كافة الأحيان وفي كافة الأمور.

تجدر الإشارة أيضاً إلى أن الكتب المقتضبة، التي ظهرت في مرحلة عدد من الأولمبيادات الأخيرة، لعبت دوراً بالغ الأهمية لا يقدر حق قدره اليوم: فقد نقلت وحافظت خلال قرون الليل والظلام على الحد الأدنى من المعرفة التاريخية. وقد ظهرت في العصور الوسطى رغبة جامحة في إعادة نسخ هذه الكتب وقراءتها، وخاصة كتاب **يوتروبيوس**، لصغر حجمه وسهولة قراءته.

يختلف كتاب **فيكتور** De Caesaribus ـ إيجابياً لصالحه ـ عن اللمحات المحفوظة الأخرى والمعاصرة له. لأننا نستطيع العثور في هذا العمل على كثير من التقييمات، والملاحظات، والأحكام الصادرة عن المؤلف نفسه. وهكذا على سبيل المثال ـ يثني على معرفة الأدب والبلاغة كأجمل حلية لدى كل حاكم؛ كما يدين، وبكلمات قاسية، سَحْقَ الشعب بالضرائب، التي تفوق الطاقة؛ لا بل يسمح لنفسه بانتقاد البوليس السري.

وبما أن المؤلف وثني، فهو يحيط الديانة الجديدة بجدار من الصمت، نشأتها ومصيرها؛ الاضطهادات، التي تعرضت لها في حينه وظفرها الحالي. كما يومىء إلى الوثنية على نحو غير مباشر، بما في ذلك اعترافه بأن يوليان هو مَنْ رفعه؛ لأن هذا الإمبراطور قام دوماً بدعم الناس المتميزين بعلمهم واستقامتهم، ووفائهم للعبادات والآلهة القديمة.

وكما أسلفنا، كان **أميان** من المعجبين المتَّقِدي الحماس **بيوليان**. فالإمبراطور، الذي رغب

في إحياء المعتقدات القديمة وصدِّ زحف الديانة الجديدة، هو البطل الرئيس للعديد من كتب التاريخ، وهكذا فإن التعلّق بشخص ذلك المأساوي، أضحى بمثابة عامل هام في التقارب بين هذين الشخصين، أميان وفيكتور اللذين استوطنا في المدينة العملاقة، والتي أبدت نفوراًمن كل الغرباء. يمكن تصورهما وهما يتحدثان عن تلك الأزمنة، عن أزمنة شباب كليهما. فمن منظور أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة، بدت بعيدة جداً؛ إذ قُتِلَ يوليان عام ٣٦٣ ، أي قبل ما يزيد عن الربع قرن. ولا ريب في أن مصير المهرجانات الأولمبية كان سيتخذ منحى آخر لو قُدِّرَ له أن يعيش ويحكم لفترة أطول.

مطالعات الرومان في أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة:

لكنَّ أوريليوس فيكتور لم يكن الرجل الوحيد في روما المتسم بالإستقامة والاهتمام الجاد بالتاريخ، كما أن المدينة لم تكن قفراً ثقافياً، علماً أنَّ هذا هو ما يمكن استنتاجه من اللوحات الكئيبة والمبالغ بها، المخطوطة بمسبار أميان الماكر. وعلى أي حال، فهو بنفسه - بسبب النسيان، أو عدم الترابط المنطقي وهي نقائص كتابته المتكررة - يشير بشكل غير مباشر إلى أن أمور المطالعة لم تكن على ذلك النحو. فهو يقول في إحدى الفقرات:

> «كما يوجد أناس يتحاشون كافة العلوم وكأنها السم، لكنهم يقرؤون جوفيناليس وماريوس مكسيموس باهتمام زائد؛ يغمرهم هدوء عميق ولا يتناولون بأيديهم أي كتاب آخر سوى تلك. لماذا؟ لا يعود أمر البت في هذه القضية لمعرفتنا المتواضعة!»(٧٣).

تبدو هذه المقولة مذهلة ومتناقضة في ذاتها. لأن كتب هذين المؤلفين لم تكن من أيسر المطالعات؛ كانت بالأحرى بمثابة دراسة تتطلب استعداداً كبيراً وجهداً فكرياً. فلا ريب إذن في أنها لم تكن مواضيع مطالعة للمتسكعين من المثقفين. ولتقريب المعنى الحقيقي لكلمات أميان، علينا ترجمة مضمونها إلى لغة الأمثلة الأيسر والأقرب إلى الفهم. يمكن لأحدهم أن يقول اليوم: «يوجد هنا أناس يتحاشون كافة العلوم كالنار، يستحوذ عليهم الكسل ولا يتوقفون عن قراءة مؤلفات أوبالينسكي وكوخوفسكي(*)؛ ويرفضون مجرد النظر إلى الكتب الأخرى». وبكل تأكيد كنا سننظر إلى هذا القول على أنه مجرد فكاهة. لكنَّ أميان لم يدرج أسماء المؤلفين من أجل الفكاهة! يبدو أن نجاح المؤلفين القدماء أمام

(*) أوبالينسكي وكوخوفسكي: من الأدباء البولونيين المشهورين.

عينيه آلمه بحق.

لِنُذَكِّر! كتب الهجائي جوفينال في مطلع القرن الثاني نتاجات شعرية لا تزال محفوظة حتى اليوم، أعمالاً لاذعة، لا بل مسمومة، تجلدُ بلا رحمة بسياط عباراتها المنتقاة النقائص الحقيقية أو المضخمة لمعاصريه من الرومان، وخاصة المنتمين منهم لطبقات المجتمع العليا؛ الوسام اللامع للوحات المشاهد العامة. يمكننا أن نجازف بالقول أنه من وجهات نظر عدة، يبدي جوفينال وأميان، الشاعر والكاتب النثري، العديد من السمات المتشابهة في أسلوب الرؤية والتهكم. يبدو وكأن بعض سمات طبيعتيهما كانت متماثلة. لكنَّ المؤرخ ربما لم يتعرف من خلال مطالعاته على مجموعة الهجاءات، التي كُتبت قبل ذلك الحين بما يقارب الثلاثة قرون؛ فلو أنه اطلع عليها، لغرف من موادها الشيء الكثير. أيمكن أن يكون ظرف خارجي عرضي جعله ينفر منها - فإن يُعْجَب مثلاً بشعر جوفينال نَفَّاخٌ متفاخر من معارف أميان، شعر بنفور شخصي منه؟ أيمكن أن يكون اعتبر تلك الأعمال المتعلقة بأمور وعلاقات عبرت منذ أمد بعيد، ثقيلة لغوياً ومتعذرة على الفهم من حيث المضمون؟ وعلى أي حال، فقد أذهله، أو ربما أثار أعصابه وجود ذلك العدد الكبير من المعجبين بجوفينال وسط الرومان الأصلاء. لقد كانت ملاحظته في غاية الدقة! فهناك العديد من المؤشرات، التي تسمح بالجزم وبشكل قاطع، بأن جوفينال أضحى في أواخر القرن الرابع، في أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة، شاعر الموضة الرائجة، ولاقت أعماله قبولاً عاماً، بعد أن كاد النسيان يطويه كلياً منذ بضعة أجيال واستقرت كتبه وسط غبار المكتبات بالمعنى الحرفي للكلمة؛ قُرئت هجاءاته بحماس منقطع النظير وعُثر فيها على سحر اللغة الراقية، وإن كانت قديمة؛ وكذلك على معرضٍ من المشاهد، والشخصيات، والأوضاع الدائمة التكرار، والجديرة بأن يُسخر منها باستمرار. نُشرت أعمال جوفينال وكُتبت حولها التعليقات. يُعَدُّ بعث بعض المؤلفين من الماضي البعيد ظاهرة متكررة ونموذجية إلى حدٍ ما في حياة كل أدب عريق التقاليد. فلننشر على سبيل المثال (في الأدب البولوني) إلى الإزدهار الرائع في أيامنا وعلى مرأى من عيوننا، وزيادة الاهتمام بالشعر الباروكي لكل من شارينسكي، ومورشتين زبيغنيف، ومورشتين أندريه، حيث صدر خلال الأعوام القليلة الماضية ما يزيد عن عشر طبعات من أشعارهم، هذا إذا لم نتحدث عن عشرات الأعمال المكرسة لهم.

أما شعبية جوفينال، التي ترسخت على هذا النحو المُشرق أثناء إقامة أميان في روما، فكان لها أن تثبت دون تغير يُذكر لقرون عديدة. ولم تُطفأ شعلتها كلياً حتى في المرحلة الطويلة من ظلام العصر الوسيط المبكر. وقد ثَمَّنَتْ المراحل التالية منه عالياً هذا الشاعر كمعلم

للقول الصائب، وناقد لا يرحم لكافة الانحلالات الخلقية. لم يتغير هذا الموضوع في العصور الحديثة أيضا، لأن الرذائل، التي تستحق الهجاء لم تتغير أيضاً؛ أما ثراء وانحلال روما البابوات، فقد ذَكَّرَ إلى حد بعيد بسمات روما القياصرة. وهذا ما أثَّر على تطور ذلك النمط الأدبي في مختلف اللغات القومية؛ بما في ذلك لسان البولونيين. يجدر بنا أن نتذكر كل هذا ونحن نحلل تعدد وسمو بعض الظواهر في أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة في العالم القديم؛ حيث ثبت أن بعضها يتميز بحيوية تفوق كل التصورات. وتثمر بأساليب مختلفة عبر القرون. الحقيقة أن أميان ربما كان سيشعر بشيء من الحرج في هذه الحالة: فها هو ما اعتبره مجرد نزوة عابرة لمجموعة من النفاجين المثقفين، يثبت أنه لبنة سليمة في صرح الأدب الأوروبي!.

ماذا عن المؤلف الثاني، الذي ذكره أميان، وهو **ماريوس مكسيموس**؟ من الصعب إبداء راي واتخاذ موقف إزاءه، لأن عمله مفقود، وعن المؤلف لا نعرف سوى القليل. عاش في أواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث، أي بما يقارب القرنين قبل مؤرخنا أميان. يرجح أنه كان حاكم مقاطعة، وفي عام ٢١٧ تولى منصب والي روما الرفيع. كتب سِيَر حياة عدد من القياصرة، بدءاً من **نيرڤا**، اي من عام ٩٦ ، وانتهاء بالحكام، الذين عاصرهم، فشمل من الناحية العملية القرن الثاني باسره. يبدو أنه استأنف في كتاباته ـ أو قَلَّدَ إلى حد بعيد ـ سِيَرَ الحياة الشهيرة لاثني عشر قيصراً التي كتبها **سفيتونيوس**، والتي لا تزال تُقرأ برغبة زائدة حتى في وقتنا الحاضر أود أن أُذَكِّرَ بأنه في **بولونيا** في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية صدر ما يزيد عن عشرة طبعات من ترجمة عمل **سفيتونيوس**، وكل منها بأعداد كبيرة! كان **ماريوس مكسيموس**، شأنه شأن سفيتونيوس مولعاً بجمع وسرد شتى نمائم وفضائح البلاط، والفكاهات اللاذعة. لكنه اختلف عنه في إسهابه في الرواية، وربما في الميل إلى الفنتازيا. لا بدَّ وأنَّ كل هذا ضايق أميان، الذي مال إلى شيء من التكلف والوضوح في الأسلوب؛ وإلى إضفاء شيء من الجدية، والمأساوية، والرعب على الأحداث التاريخية الكبرى. وعلى أي حال، فإنه عرف هذا العمل واستغله إلى حدٍ ما، لأن المجلدات الأولى من «تاريخه» غطت المرحلة ذاتها، التي بدأت بعهد الإمبراطور نيرڤا.

لا بدَّ من الاعتراف من جديد، بأن أميان محق في اعتبار ماريوس مكسيموس المؤلف المحبب، وخاصة في بعض أوساط الرومان في أواخر القرن الرابع. كان آنذاك كاتباً موضع إعجاب شديد، بحيث وُجِدَ من يقلده؛ واستطاع الأخير أن يلائم أذواق القراء إلى حدٍ تمكن معه من إزاحة مُؤَلَّفِ سلفه المفضل جانباً، وإحلال عمله المقتضب والأكثر جاذبية في

بعض الوجوه، محلَّه. وقد صمد هذا العمل حتى أيامنا هذه. لكنه يصعب الجزم فيما إذا كان يعود بالنفع أم بالضرر على معرفتنا عن روما القياصرة؛ قد يكون هذا التصريح مذهلاً، ولكن سيتضح بعد قليل أنه ليس عديم الأسس! أما شخصية المؤلف، واسمه الحقيقي، والمعنى الصحيح لما كتبه، فلا تزال تشكل أحد أكبر الألغاز في تاريخ الأدب الروماني.

بورجيس أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة:

«كُتَّاب التاريخ القيصري» Scriptores Historiae Augustae، هذا هو العنوان الإصطلاحي أو بالأحرى اسم مُؤَلِّفٍ صغير، يتضمن سِيَرَ حياة حكام روما، بدءاً من **هدريان** وحتى **نومريان** (مع وجود بعض الثغرات)، أي منذ عام ١١٧ وحتى عام ٢٨٤ ، إذا قلنا كُتَّابا، فيجب أن يكونوا عدة. فعلاً: فالعمل يعدد أسماء ستة أشخاص مختلفين، أعطى كلٌ منهم جزءاً من الكل. لكنَّ الدلائل تشير إلى أن الأمر مجرد بدعة عجيبة: فالمؤلف في واقع الأمر ليس سوى واحد! انتحل هذا الرجل لأسباب مجهولة ستة أسماء مختلفة، وأوجد ستة مبدعين (أو مبدعين مشاركين) لكتابه. هل تصرف على هذا النحو لمجرد الفكاهة واللهو؟ أو تكون هذه الأسماء، الغريبة، والمصطنعة إلى حد ما، تلميحاً إلى أشياء محددة، بصيغتها، ومعناها، واختيارها، وتسلسلها؟ ربما كان معاصروه، أو المطلعون منهم على الأقل، يقرؤونها على نحو مختلف عمَّا نفعله اليوم، إذ امتلكوا مفتاح الشيفرة، وماذا لو كان الهدف الرئيس للمبدع هو إخفاء اسم المؤلف الحقيقي بدقة؟ لأننا كما سنرى لم يكن لديه سبب للخوف من نقمة أحد، بقدر الخوف من سخرية رفاقه المتعلمين.

لا يقتصر الأمر على ذلك! لأن المؤلفين المزعومين يحاولون إقناع القارىء في مناسبات عديدة، وخاصة في مقدمات الإهداء، بأنهم يعيشون ويكتبون في مطلع القرن الرابع، في عهد الإمبراطورين **ديوقلتيانس وقسطنطين الكبير**. ويجب أن نؤكد من جديد: هذا زيف وتحريف! لأن القراءة الدقيقة والمتمعنة تثبت أن العمل ظهر بما لا يقل عن نصف قرن بعد ذلك الحين. أيمكن أن نحدد بدقة متى؟ تَأَمَّلَ هذا السؤال ولا يزال يتأمله عدد كبير من المؤرخين. والدراسات، التي بوشر بها منذ ما يقارب القرن من الزمن. لم تُغْلَقْ بعد، ولم يُنْطَقْ بعد بالكلمة الأخيرة، ولم يتم التوصل إلى نتيجة نهائية تلقى قبولاً عاماً. اللغز محيِّر، ويشد أجيالاً جديدة من الباحثين، ويدفع للبحث عن حجج وذرائع، وأساليب وطرق حل أكثر تعقيداً. تكاد في كل سنة أن تظهر دراسات، ومقالات، وكتب مكرسة لهذه القضية وحدها. تُعْقَدُ اجتماعات موسعة، وتتخذ النقاشات في غير مرة طابعاً حاداً. ويمكن

للمراقب الخارجي - وإن كان متخصصاً في مجال العلوم الإنسانية ولكنه أقل إطلاعاً على مواضيع التاريخ القديم - أن يُدْهَشَ ويبتسم، لأنه حقل سهل للنكات. فها هو عدد كبير من المثقفين اللامعين، يكرّس جهداً هائلاً، وحماساً بالغاً، وأفكاراً مبتكرة، لِكُتيِّب ليس من روائع الأدب بكل تأكيد؛ كما أنه يتحدث عن أمور وأشخاص ليسوا أبداً الأهم في تاريخ ثقافتنا، وليسوا على ذلك القدر من الشهرة، التي يتحلى بها أشخاص آخرون وحقب أخرى في العالم القديم، كأن نذكر على سبيل المثال حرب **طروادة**، وأثينا عهد **بيريكليس**، وحملة **الإسكندر الكبير**، وأعمال **قيصر**، وجنون **نيرون**، وثورة **قسطنطين**. ألا تشكل إذن دراسة «التاريخ القيصري» - هكذا سندعو كتيّبنا بعد الآن - نوعاً من التسلية العلمية؟ أيمكن أن يعمل رجال، هم علماءٌ حقيقيون، على تكريس أنفسهم لدراستها بحماس جدير بقضية أفضل لكنهم نتيجة معرفتهم الواسعة تاهوا بين ما هو جوهري لتطور المعرفة، وما هو موضوع إثارة جانبية؟ يستحق هذا السؤال أن يوضح بالتفصيل.

نجد في حالة «التاريخ القيصري» ثلاثة عوامل تتداخل فيما بينها وتضخم بعضها البعض، وتؤثر كحافز لدراسةٍ أكثر تمعناً وتدقيقاً. أولاً: الفضول الإنساني الطبيعي إلى أبعد حد، والشائع، القوة المحركة لكل تقدم: الرغبة في حل اللغز، الشيفرة، الأحجية، التي تعذر على أي كان من قبل فك رموزها. وفي واقع الأمر، إنه الفضول ذاته، الذي يدفع بالآلاف والآلاف من المتحمسين للجلوس ساعات وإملاء الفراغات في لعبة المربعات. ثانياً: سوف يسمح تحديد فترة حياة مؤلف «التاريخ القيصري» بتحديد الأهداف، التي دعت لكتابته، ما الذي أراد أن يقوله، وعمّا دافع، وما الذي حاربه. يمكن لهذا الشيء بدوره أن يساعد - وهو العامل الثالث وربما الأهم - على إيضاح درجة مصداقية معلوماته وجدارتها بالثقة.

تبدو الحالة على النحو التالي: يشكل «التاريخ القيصري» جملة المعلومات الرئيسة، أو ربما الوحيدة، المتماسكة، عن تاريخ روما إبّان القرنين الثاني والثالث. ولكن هناك براهين تكاد أن تكون قاطعة تدعو للاشتباه بأن المؤلف قام متعمداً بتشويه المعطيات، التي جمعها ولو من قراءة **ماريوس مكسيموس**؛ لا بل زيفها، كما ابتدع بعض الشخصيات والحقائق! ما هي الأسباب، وما هو الشيء، الذي حدد خطاه في هذا المنحى؟ والكثير من الإجابة على هذا السؤال، يعتمد على رسم صورة الإمبراطورية خلال القرنين الثاني والثالث.

اعتقد عدد من أكثر الباحثين جدية، وذلك حتى وقت قريب، أن العمل أنجز في عهد **يوليان الجاحد** على وجه التقريب أو ربما بعد ذلك الحين بفترة وجيزة، أي في الستينات من القرن الرابع. أما الآن، فيعتقد على نطاق واسع أنه يجب إزاحة فترة كتابة «التاريخ

القيصري» بمقدار جيل إلى الأمام، إلى المرحلة، التي هي موضع اهتمامنا الخاص ـ أي إلى نهاية عهد ثيودوسيوس الكبير. إلى أعوام الدورة الأخيرة للألعاب الأولمبية. ولا بد من الاعتراف بأن حجج أنصار هذا الموعد مقنعة إلى أقصى حدا.

وعلى أي حال، يرجح أن يكون العمل قد كُتِبَ من قبل أحد سكان روما ممن عاصروا سيماخوس الأصغر، ونيكوماخوس فلافيوس، وسيونيوس ألبينوس، وأوريليوس فيكتور. كاد أن يكون من جيلهم، ويرجح أن يكون قد عرف بعضاًمنهم على الأقل. كان مولعاً بماريوس مكسيموس، ولذلك نبش عمله الموسع باهتمام، معيداً صياغته بما يتلاءم وأهدافه. الحقيقة أنه يسمح لنفسه هنا وهناك بتوجيه بعض كلمات النقد لذلك المرجع والنموذج، وهذه ممارسة شائعة في عالم المؤرخين، وذلك دون أن يقتصر الأمر على الأزمنة القديمة وحدها: إذ عادة يعامل بقسوة المؤلف، الذي له أكبر الفضل على صاحب العلاقة.

أمام هذا الواقع يمكن أن نسمح لأنفسنا بطرح افتراضات أخرى أجرأ. بمن كان يفكر أميان، وهو يتفوه بكلماته اللاذعة: «كما يوجد أناس، يتحاشون كافة العلوم وكأنها السم، لكنهم يقرؤون جوفيناليس وماريوس مكسيموس باهتمام شديد؟» أليس بمؤلف «التاريخ القيصري»؟ ولدعم هذه الفرضية يمكن أن يُسشتهد هنا بخاطرة أخرى ذات طبيعة أعم. وهي أن المؤرخين المعاصرين لبعضهم والذين تنصبُّ اهتماماتهم على الموضوع ذاته، يعرفون بعضهم على وجه العموم، ولو بشكل غير مباشر، وفي بعض الأحيان يفسحون المجال أمام بعضهم لممارسة النقاش والجدال المفتوح، لكنهم لا يقدرون بعضهم دوماً حقَّ التقدير، ولا تتوثق بينهم أواصر الصداقة؛ ولذلك فهم يتحينون الفرص لوخز بعضهم بشتى أنواع الدبابيس، بالرغم من أنه لا يشعر بذلك سوى المطلعين، وينجم هذا جزئياً عن الحسد، الذي يتولد على مستوى اللا وعي، وجزئياً من روح التنافس والطموح، وإلى حدٍ ما من عدم القدرة على استيعاب حقيقة جوهرية هي أن موضوعاً على هذه الدرجة من التعقيد والإتساع كالماضي، يعطي كل فرد حقلاً للنشاط، يكاد أن يكون لا محدوداً؛ أما نتائج الأعمال، والدراسات، والبحث، فيجب أن تُستعرض بأساليب متباينة، لأن أذواق، ومستويات، واهتمامات القراء شديدة التباين. لأننا لو اقتفينا الآن أيضاً أثر تقييمات أميان لأمكننا التفوه بالكثير من الملاحظات النقدية عن مؤرخين تعمقوا وتغلغلوا في الأعوام والعقود، مقتصرين على بحث مشكلة واحدة، فعرفوا فعلاً بشكل دقيق مقطعاً ضيقاً من التاريخ، لكنهم فقدوا الآفاق الأوسع من حقِل الرؤية؛ وبالرغم من ذلك، يعتبرون أنفسهم مؤهلين لإصدار الأحكام في كل قضية متعلقة بالماضي، وتُعَدُّ كل كلمة يتفوهون بها بمثابة حكم نهائي، لأنهم ـ هكذا تحلل الغالبية الأمر ـ أخصائيون رفيعو المستوى! ولكن قد يكون

من المفيد أن نعود إلى كلمات أميان ثانية «**لا يعود أمر البت في هذه القضية لمعرفتنا المتواضعة**».

إذا كان **أميان** قد عنى فعلاً مؤلف «التاريخ القيصري»، وهو يدون تلك الملاحظات، فلا بدَّ من الاعتراف بأنه كان محقاً إلى أقصى حد. فهذا العمل يُقَدَّمُ كاستمرارية أو مواصلة لعمل **سفيتونيوس وماريوس مكسيموس**، كتقليد لأسلوبيهما في معالجة سير الحياة. إذ يمكننا كما أسلفنا، وضع الكثير من إشارات الاستفهام حول أعمال هذين المؤلفين: السطحية، والميل إلى قصص الفضائح والنكات اللاذعة، والرؤية الضيقة ـ نعرف هذا بالتأكيد، إذا ما تعلق الأمر بالمؤرخ **سفيتونيوس**، ويمكننا أن نتوقع بأن الأمر كان مشابهاً في حالة **ماريوس مكسيموس** ـ لكن لا يجوز أن يُتهما بالمجانبة الواعية والمتعمدة للحقيقة،وتزييف الوثائق، وابتكار الحقائق، وخلق شخصيات لم توجد أبداً. بينما نجد مثل هذه الطرق وثمار النشاط الإبداعي الحقيقي على كل صفحة من صفحات «التاريخ القيصري»، حيث تتداخل الحقيقة مع الخيال بأسلوب يكاد أن يكون خبيثاً. ولذلك وجب في نهاية الفصل السابق تدوين الملاحظة: صمد هذا العمل حتى أيامنا هذه. لكنه يصعب الجزم فيما إذا كان يعود بالنفع أم بالضرر على معرفتنا عن روما القياصرة. ولذلك ورد في عنوان هذا الفصل، ربما بشكل مثير للدهشة، اسم **بورجيس**؛ سيعترف مَنْ يتأمل الموضوع جيداً، بأن هذا لم يكن عبثاً.

لكننا مدينون للقارىء بمثال واحد على الأقل من الأساليب واللقطات، التي استخدمها بورجيس أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة! ولحسن الحظ يمكننا أن نستشهد بقضية معروفة لنا بشكل أو آخر: قضية **الإسكندرية وسرابيوم** (معبد الإله سرابيس).

ساتورنين والإسكندرية:

ينتحل المؤلف في هذا الجزء من «التاريخ القيصري» اسم **فلافيوس فوبيسكوس**. يستعرض حياة الإمبراطور **بروبوس** (٢٧٦ ـ ٢٨٢)، ثم ينتقل إلى فصل مستقل يتحدث فيه عن حياة أربعة من مغتصبي العرش (أُطلق عليهم في المصطلحات السياسية الرومانية القديمة اسم الطغاة)، الذين ظهروا على الساحة في عهد ذلك الحاكم؛ وصفهم المؤلف بعبارة صريحة «رباعي الطغاة»، ويقصد بذلك مركبة التمرد المشدودة إلى أربعة جياد. أحدهم ـ يقول فوبيسكوس المزعوم ـ كان يدعى **ساتورنين**. انحدر من غالة وَقَدَّمَ خدمات جليلة للإمبراطورية. ولذلك فقد كلَّفه القيصر **أوريليان** بقيادة الجبهة الشرقية، بعد أن أمره بعدم دخول مصر إطلاقاً، وذلك من منطلق الحيطة والتوقعات المستقبلية. لماذا؟. لأن الإمبراطور ـ

حسبما يؤكد مؤلفنا ـ عرف جيداً طباع سكان غالة؛ أدرك أنهم قلقون ومتسرعون دوماً لرفع أحدهم إلى العرش، أو الاستيلاء عليه شخصياً. خشي إذن من أنَّ ساتورنين، وبمجرد أن يتواجد في الإسكندرية، التي كانت الاضطرابات لا تزال تهزها، سَيُدْفَعُ بيسر إلى ما كان طبعه يؤهله له. وبالرغم من ذلك جاء القائد إلى مصر، وهناك استقبله الجمهور بصيحات: ساتورنين، أغسطس، لتحميك الآلهة! كان هذا مماثلاً بطبيعة الحال للمناداة به قيصراً. الحقيقة أن ساتورنين تصرف بحكمة وغادر المدينة حالاً. توقف في فلسطين، وهناك اقتنع بأنه لن يعرف الراحة أبداً، ولن يعرف الأمان كرجل عادي، بعد الشيء، الذي حدث في مصر. ولذلك تناول ثوب زوجته الأرجواني الملقى على تمثال فينوس ووضعه على كتفه، وتقبّل الولاء، الذي يستحقه الحاكم من جنوده.

يستند المؤلف في هذا المكان إلى شهادة لا يستهان بها، وهي رواية أحد المشاركين في هذا المشهد؛ ولم يكن صاحب الشهادة غير جَدّ المؤلف شخصياً!

«غالباً ما سمعته يقول أنه كان موجوداً، عندما تم تنصيب ساتورنين. وقال أيضاً بأن الأخير تذمَّر وبكى:

ـ ها هي دولتنا قد فقدت الرجل، الذي ـ إذا لم يكن في هذه الكلمات غروراً زائداً عن حدِّه ـ لا يسعها الاستغناء عنه. فأنا مَنْ أعاد بناء مقاطعات غالة، وأنا مَنْ استعاد إفريقيا بعد أن استولى عليها الماوريون، وأنا مَنْ هدأ أخيراً المقاطعات الإسبانية. ولكن لِمَ كل هذا؟ لم يجدِ نفعاً وذهب هدراً بمجرد أنني رغبت في الحصول على هذا الشرف!».

ثم ألقى كلمة (ردد جد فوبيسكوس فقرات منها من ذاكرته) استعرض فيها كافة المخاطر والتعاسات، التي بطبيعة الأشياء وبحكم الضرورة تهدد كل مَنْ يتولى السلطة الأعلى، الشيء، الذي تحقق في حالته هو. لم يستمر اغتصاب السلطة طويلاً: وبعد فترة من الزمن هُزِمَ وَقُتِلَ ـ يُزْعَمُ أنه رغماً عن الإمبراطور بروبوس؛ لأن الأخير بعث إلى المغتصب برسائل وديعة ووعده بالرحمة؛ لكن الجنود، الذين رفعوا ساتورنين، لم يثقوا بتلك الوعود(٧٤).

هذا هو المجرى الأساسي للرواية. فكيف نقيِّم هذا الشيء، وما هي النتائج، التي يمكن استخلاصها؟ يجب أن نؤكد بادىء ذي بدء بأن ساتورنين شخصية تاريخية حقيقية. تشير إليه، ولو بشكل عَرَضِي مصادر تاريخية قديمة أخرى، كما أن قطعاً نقدية قام بصكها، لا تزال محفوظة. تمرد على بروبوس عام ٢٨١ على الأرجح، وقُتل على ما يبدو في أفاميا السورية المحاصرة. إذن لا وجود للخيال في هذا المستوى من الرواية، بالرغم من أنها ليست خالية من الأخطاء المؤكدة والاختصارات، والسذاجة، واختلاط التواريخ. وعلى سبيل المثال: يرجح أن ساتورنين إفريقي الأصل وليس غاليَّ الأصول، كما يُشَكُّ بلقبه العسكري

«Dux»، الذي يظهر بانتظام في الرتب العسكرية منذ أيام **ديوقلتيانس**، يلي ذلك، أن **أوريليان** لم يكن مضطراً لمنع ساتورنين بشكل خاص من الإقامة في مصر وفي الإسكندرية، لأن دخول ذلك البلد كان محظوراً منذ أمد طويل، وبشكل عام على جميع أعضاء مجلس الشيوخ، وكل الشخصيات اللامعة، بدون موافقة خاصة. وأخيراً فكرة استخدام ثوب الزوجة الملقى على تمثال فينوس بدلاً من المعطف الإمبراطوري! لا ريب في أن هذه الفقرة من بنات خيال المؤلف، ولكن لها موقعها في بنية الرواية: فهي تخدم كإيماءة فيها قبس من النبوءة، إلى أن الاغتصاب محكوم عليه بالفشل سلفاً، لأن كل ما هو نسائي يوحي بالشر ويصدر الحكم على أية مبادرة؛ أما الثوب، فقد تضمن معنى مزدوجاً، إن صحّ القول، للأنوثة الضاربة ـ كثوب زوجة وإلهة. لكن أتخفي هذه الصورة الخيالية والغريبة شيئاً آخر، كأن تلمح إلى قضية نجهلها، لكنها كانت معروفة جيداً للمعاصرين؟ لن نصدق جدَّ المؤلف، لأنه يظهر مرة أخرى كشاهد عيان في مشهد مماثل من حيث بنيته الخيالية ومأساويته، عندما يقوم **ديوقلتيانس** نفسه بقتل القيصر المغتصب علناً جزاء قتل سلفه. أما خطبة **ساتورنين**، فهي كلمات بلاغة نموذجية، علمتها مدارس ذلك العصر.

ولكن ليست هذه القضية هي الأكثر إثارة للإهتمام. لأننا نجد مثل هذه المعالجة اللا مبالية للمادة التاريخية لدى الكثيرين من المؤرخين القدماء، الذي يتمتعون بسمعة حسنة حتى اليوم. والمهم بالنسبة لنا هو شيء آخر: لأن مؤلف «التاريخ القيصري» يتخذ من قضية ساتورنين ذريعة ونقطة انطلاق للتعبير عن أساه، أو بالأحرى عن خواطره المسمومة؛ وكل هذا لخير الحقيقة التاريخية المزعومة. وهكذا، فهو يستغل الفرصة منذ البداية ليوجه بضع كلمات مغيظة إلى سكان غالة؛ وقد استشهدنا بها من قبل. ثم يسهب في وصف المصريين وسكان الإسكندرية بأسلوب مفعم بالضغينة. وأخيراً يسخر بأسلوب ماكر من معتنقي الديانات الشرقية، أي من أتباع سرابيس، ومن المسيحيين واليهود. وها هي أقواله فيما يخص هاتين النقطتين:

> «وكما تعلم جيداً، فإن المصريين متقلبون، ومتهورون، ومتبجحون، وظالمون، ومنشغلون بالتوافه، ومتعطشون للإنقلابات إلى حدٍ أضحت لديهم أغانٍ يغنونها في الشوارع عن هذا الموضوع؛ كما أنهم يكتبون الأشعار وقصائد المديح؛ وهم أيضاً منجمون، وعرّافون وأطباء. يوجد بينهم المسيحيون والسامريون؛ وكذلك مجموعة ممن لا يعجبهم عصرهم أبداً، الشيء، الذي يعبرون عنه بحرية تامة. ولكي لا يلومني أحد من المصريين، ولا يُعتقد بأن الرأي، الذي عَبّرْتُ عنه كتابةً هو رأي شخصي ومنفرد، سوف أُدرج رسالة

هدريان المأخوذة من كتاب أحد معتقيه، المعروف باسم **فليجون فهو يُعَرِّي** تماماً حياة المصريين:

> من هدريان أغسطس إلى سرفيان القنصل سلام. تأكدت يا عزيزي أن مصر، التي كنت تكيل لها المديح بكل ذلك القدر، طائشة، ومتذبذبة، وسريعة التفاعل مع أي أثر للشائعات. أتباع سرابيس هناك مسيحيون، والأتباع المتقدو الحماس لهذا الإله هم مَنْ يُطلق عليهم اسم الأساقفة. وحتى ذلك البطريرك، عندما يأتي إلى مصر، يرغمه البعض على تمجيد سرابيس، والبعض الآخر ـ على تكريم المسيح. إنهم من ذلك النمط من البشر، الذي يميل لخلق الاضطرابات، وهم حمقى ذوي ميول واستعدادات كبيرة لتسبيب الأذى. تعيش المدينة حياة وفرة، وثراء، ونماء، ولا يعيش فيها مَنْ هو متسكع أو عاطل عن العمل. ينفخ بعضهم الزجاج، وَيُصَنِّعُ آخرون البردي، وينسج غيرهم المنسوجات الكتانية. وعلى أي حال، يبدو وكأن كلاً منهم يتقن مهنة ما أو تعلم مهارة ما. فحتى المصابون بداء النقرس يقومون بعمل ما، كما يمارس الضرير فيهم نشاطاً ما؛ وكذلك، الذين لوى التهاب المفاصل سواعدهم، فهم لا يعيشون عاطلين عن العمل. إلههم الوحيد هو المال. وله يعلن الولاء المسيحيون، واليهود، وجميع الذين يدعون بالوثنيين»(٧٥).

لفَّق مؤلف «التاريخ القيصري» رسالة الإمبراطور هدريان المزعومة بوقاحة؛ وهذا ما أثبتته أحدث الدراسات الدقيقة والمفصلة. وبعملية التزييف هذه، أراد المؤلف رفع شأن كلماته وأحكامه ـ بعد أن جعل حاكماً عظيماً عاش قبل ثلاثة قرون يتفوه بها! أما حقيقة الأمر، فهي أن هذه الرسالة وثيقة هامة تعلمنا الكثير، وتعود لفترة أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة أو بعدها ببضعة أعوام. وهي تُثبت بوضوح تام، أن الأرستقراطيين الرومان الفخورين بأنفسهم، والمثقفين، والمتعلقين بتقاليدهم المحلية، نظروا بازدراء شديد إلى كل ما حدث في الإسكندرية الغريبة عنهم، وخاصة إلى المعارك بين معتنقي مختلف الديانات. وبهذه المناسبة، تجدر الإشارة إلى الاحتقار، الذي نظر به هؤلاء السادة إلى كافة الأنشطة الفيزيائية، ومهارات الحرفيين، وَبُعْدِ نظر بسطاء الناس! ليس لنا أن نستغرب ذلك؛ لأن أرستقراطيي روما لم يكونوا مرغمين على الكفاح من أجل لقمة العيش. والحق يقال أن عامَّة روما أيضاً، حتى الأكثر فقراً بينهم، لم يكونوا مجبرين على بذل جهد كبير للحصول عليها. فقد تركوا للدولة وللأثرياء موضوع تأمين المؤن وتوزيعها المجاني أو شبه المجاني، بينما عاشوا هم بمرح في ظلال الحانات، والسيرك، والمسارح. وأثاروا اضطرابات خطيرة كلما تعرض تزويدهم (ليس بالحبوب فحسب، وإنما بالخمرة أيضاً) للخلل. لم تكن الأمور السياسية الكبرى لتشغل أحداً منهم، باستثناء حفنة من أعضاء مجلس الشيوخ،

وبالرغم من ذلك، اعتبر سكان روما أنفسهم سادة الإمبراطورية وعلى هذا الأساس تمت معاملتهم. ولذلك فإن أميان في وصفه الشعب هناك، أصرَّ باستمرار على أنه متسكع ومتواني، وغير مبال بأي شيء: باستثناء المهرجانات. بينما يدين مؤلف «التاريخ القيصري» ـ اندفاع الإسكندرانيين للعمل.

لا ريب في أن كلمات على هذا القدر من الدهاء والخبث، في محاولة تهزئة عبدة سرابيس والمسيحيين ـ أو ربما الفئة الأخيرة في المقام الأول ـ قد ظهرت تحت تأثير المعلومات الواردة عن الأحداث الجارية في المدينة المصرية العظيمة. ولا شك في أن القارىء، الذي كانت الروايات المنقولة عن تدمير معبد سرابيس، وتحطيم تمثاله، والمعارك الدموية في الشوارع بين المسيحيين وأتباع الآلهة القديمة، لا تزال حيَّة في ذاكرته، وعثر على رسالة هدريان المزعومة، قرأها بشغف، أو ربما وهو يبتسم؛ إذ تبين له، بأن كل ما جرى ويجري في الإسكندرية مجرد مهزلة! لأن أكثر مبجلي سرابيس حماساً هم أساقفة المسيحيين؛ أما حقيقة الأمر، فهي أنَّ أحداً هناك لا يؤمن بأي شيء، بما فيهم البطريرك اليهودي (إذ أنه هو المقصود بتلك الإيماءة الغامضة: «البطريرك عندما يأتي إلى مصر، يرغمه البعض... إلخ»)؛ هناك إله واحد فقط، يؤمن به الجميع ـ هو المال.

ڤين ونهر فريجيدوس

رأس يوحنا المعمدان:

في العاشر من شهر تشرين الثاني من عام ٣٩١ دخل ثيودوسيوس القسطنطينية على نحو احتفالي، لم يختلف عن دخوله روما قبل ما يقارب العامين ونصف العام، في حزيران عام ٣٨٩ ، بروعته أو بمراسمه أو بحماس الجماهير الشعبية ـ الحماس الصادق على الأرجح، لأن قدوم الحاكم كان يعني إقامة المهرجانات. كانت زيارة ثيودوسيوس للعاصمة، التي على ضفاف التيبر هي الأولى بعد أن تولى عرش الإمبراطورية. وكانت قصيرة جداً. أما الآن، فكان عائداً إلى المدينة، التي أقام فيها سابقاً لفترات طويلة ومتكررة، كمقر محبب لقلبه. ولا بدَّ من الاعتراف هنا بأن المؤرخين محقون في افتراضاتهم، بأنه بين كافة أباطرة القرن الرابع ـ باستثناء قسطنطين الكبير مؤسس العاصمة ـ كان ثيودوسيوس مَنْ بذل أكبر الجهود من أجل توسيع المدينة وتجميلها. وكما نذكر، فإن الحاكم قبل مغادرته روما، كان قد أصدر مرسوماً له مغزاه؛ نَصَّ على ترميم الآثار هناك، لكنه حظَّر تشييد مبانٍ جديدة على نفقة الدولة. أما هنا، على شواطىء البوسفور، فقد ظلَّت المدينة تنمو بأسوارها، ومبانيها، ونصبها الجديدة، وقد ساندت الدولة هذا النشاط بوسائل شتى وبكرم زائد.

أقام ثيودوسيوس في القسطنطينية منذ تشرين الثاني عام ٣٩١ لفترة طويلة، ربما لعامين وبضعة أشهر دون انقطاع، حتى ربيع عام ٣٩٤ . وآنذاك أيضاً غادر المدينة متردداً ودون رغبة، تحثه على ذلك الحالة الخطرة في الغرب. وكأنه شعر بأنه لن يعود إلى المدينة المحبوبة حياً! وهكذا شاءت الصدف أن يقضي سنة الدورة الأخيرة للمهرجانات الأولمبية، ليس في العاصمة القديمة، أو في أي من مدن المقرات الإمبراطورية ـ ميلانو، أكويليا، تسالونيكي ـ

وإنما على شواطىء البوسفور، حيث ازدهرت على نحو رائع روما الجديدة، روما الثانية؛ تلك التي كان لها أن تحافظ على تقاليد الأولى الواقعة على ضفاف التيبر، لما يزيد عن عشر قرون أخرى. ولكل هذه الأمور مغزاها التاريخي.

في اليوم الأول من كانون الثاني عام ٣٩٢ تولى القنصلان الجديدان منصبيهما، وهما: **أركاديوس** الابن الأكبر للحاكم، القنصل للمرة الثانية، **وروفين** رئيس مكاتب القصر. الشرف، الذي ناله روفين، لفت أنظار الجميع ودعاهم للتفكير. فهو الذي قام في عام ٣٩٠ بالوساطة بين الإمبراطور والأسقف **أمبروزي**، عندما جعلتهما مجزرة **تسالونيكي** يختلفان. وعبر محادثات سرية دفعهما للوفاق في نهاية المطاف؛ ومنذ ذلك الحين صنِّف في عداد مستشاري الإمبراطور، الذين منحهم أعظم الثقة وأوسع النفوذ في البلاط. كما استمر بتعزيز مركزه، الأمر، الذي يؤكده الترفيع الجديد. وكان هذا التعيين من ناحية ثانية بمثابة إيماءة إلى أن الحزب المسيحي المتحمس وغير المتهاون، سيلعب من الآن فصاعداً دوراً أكبر في قضايا السياسة الداخلية. فقبل عام واحد فقط، أي في عاما ٣٩١ ، كان **سمياخوس وتاتيانوس** قنصلين، وهما وثنيان متحمسان! حتى ذلك الوقت كان لا يزال ممكناً وجود وثنيين علنيين بين أوسع موظفي الإمبراطورية نفوذاً، لا بل محاربين أشداء من أجل قضية الوثنيين. كما أن تاتيانوس، كان لا يزال يتبوأ منصباً في غاية الأهمية، وهو والي الشرق، كما تولّى ابنه **بروكولوس** منصب والي القسطنطينية. لم يخف نيكوماخوس فلانيانوس أيضاً تعلقه بالعبادات الوثنية القديمة، علماً أن رقعة شاسعة من الإمبراطورية كانت خاضعة لسلطته المباشرة كوالٍ، وضمت الجزء الأوسط ـ أفريقيا، وإيطاليا، وإيليريكوم. لكن الوقت لم يكن يعمل لصالحهم. كما أن جهود روفين المضنية ومؤامراته السرية، كان لها أن تثمر في نهاية المطاف، وخاصة أنها في لحظة معينة، حصلت على سند هائل بفضل ما آلت إليه الأمور في الغرب على نحو غير متوقع.

لكن الأشهر الأولى من عام ٣٩٢ لم تكن لتنذر بمأساوية أحداث قريبة إلى هذا الحد. ففي شباط شارك البلاط وسكان القسطنطينية في مراسم نقل أثر مقدس هام وثمين إليها؛ ألا وهو ما زُعِمَ بأنه رأس **يوحنا المعمدان**؛ ذاك، الذي قُطِع رأسه بأمر من **هيرودس**، عندما طلبت إليه ذلك ابنة **هيروديا** كمكافأة على رقصتها. أُشيع أن الرهبان المنتمين إلى طائفة المقدونيين، عثروا عليه في فلسطين قبل بضع عشرات من الأعوام، في عهد الإمبراطور فالينس. كان المقدونيون مماثلين على الأرجح للطائفة القائلة بعدم ألوهية الروح القدس،

وبتوجيه من فالينس، نُقل الرأس إلى القسطنطينية، لكن الموكب توقف في مكان ما قرب خلقيدونيا، أي على شواطىء البوسفور تقريباً؛ وقد زُعم آنذاك أن السبب كان رفض الحيوانات جرَّ العربة، لكن الحقيقة هي نشوب نزاع بين الأرثوذكسيين وأبناء الطائفة المذكورة. وهكذا بقي الأثر المقدس في قرية صغيرة قرب خلقيدونيا، حيث قامت برعايته رئيسة دير ورعة من الطائفة ذاتها. كان لا بدَّ من تدخل ثيودوسيوس شخصياً، الذي غلَّف الأثر المقدس بمعطفه الإمبراطوري الأرجواني، لكي ينهي النزاع أخيراً. وُضع الرأس المزعوم للقديس يوحنا في كنيسة حديثة الإنشاء مكرسة ليوحنا المعمدان في حي من أحياء القسطنطينية، عُرِفَ الحي باسم هيبدونوم، أي السابع[٧٦].

استحوذت مثل هذه الأحداث والاحتفالات على اهتمام الجميع؛ بينما كانت مكاتب الإدارة الإمبراطورية منهمكة كالعادة، كما يحدث في كل مكان وزمان، في نشاطها المنتظم لإعداد مختلف المراسيم والتشريعات، والأوامر الجديدة. وبين الوثائق القانونية الصادرة آنذاك، والتي نستطيع أن نقول شيئاً بصددها، يستحق عدد منها وقفة قصيرة؛ وذلك بسبب مضمونها من ناحية، ولإبرازها مساعي الإمبراطور للمحافظة على خط وسط بين مصالح الدولة ومطالب سلك الإكليروس المتزايدة، من ناحية ثانية. صدر في آذار ونيسان مرسومان يقضيان بفرض عقوبات مادية باهظة على الموظفين، الذين يتوانون في تنفيذ أحكام الإعدام القطعية وغير القابلة للإستئناف إذا كان التلكؤ ناجماً عن تدخل الأساقفة، والإكليروس، والرهبان؛ ومن الواضح ـ يؤكد الإمبراطور ـ أن الأمر يتعلق بمجرمين يحدثون خللاً في النظام والإستقرار العام![٧٧]. نبرة المرسومين حادة إلى أقصى حد؛ لأن سيادة القانون كانت في نظر الروماني قيمة سامية، وكان لمحاولات الإخلال بها،، وإن نبعت من أنبل الدوافع، أن تثير معارضة جذرية. ولكي يطمس ثيودوسيوس معالم هذا التعبير، ويلطف الأجواء مع الأوساط الروحية، ألغى الحظر، الذي كان قد فرضه قبل عامين تقريباً على تواجد الرهبان في المدن [٧٨]. كما ذكَّرَ في مرسوم آخر بعدم جواز إقامة المهرجانات في السيرك أيام الآحاد، لكي لا يضايق هذا القداديس الكنسية؛ باستثناء حالة واحدة، هي أن يصادف عيد ميلاد الإمبراطور في يوم الأحد[٧٩]. يدعى يوم الأحد في اللغة اللاتينية ((Dies Solis))، أي يوم الشمس؛ وهذا تعبير قديم مرتبط بعبادة وثنية، بدا غير قابل لأن يزاح ويلغى، شأنه شأن أسماء أيام الأسبوع المشتقة من أسماء الكواكب والآلهة. لقد أسلفنا في الإشارة إلى الأهمية التاريخية لقرار جعل يوم الأحد يوم عطلة

تتعطل فيه الأعمال ليس في المكاتب فحسب (الشيء، الذي كان قسطنطين الكبير قد قام به في حينه)، وإنما وسائل التسلية العامة أيضاً؛ وكما نعلم، فقد تقيدت بعض الدول الأوربية بهذا الحظر بشكل متزمت إلى أيامنا تقريباً ـ الحظر، الذي يعود تاريخه إلى أيام الدورة الأولمبية الأخيرة.

فالينتينيان وأربوغاست:

في أواخر أيار من عام ٣٩٢ بلغ القسطنطينية نبأ مأساوي من ڤين على **الرودان**، أي من **فرنسا** الجنوبية على الخريطة السياسية المعاصرة. يقول النبأ: في الخامس عشر من أيار قُتِلَ هناك في ظروف غامضة القيصر الشاب **فالينتينيان**، الحاكم الشريك **لثيودوسيوس**، وشقيق زوجته.

وردت في المراجع القديمة إشارات متعددة عن حادثة الموت هذه، التي هزَّت الرأي العام آنذاك نظراً لعمر القتيل من ناحية (إذ لم يكن قد تجاوز الواحد والعشرين عاماً!)، وللأسباب الغريبة المباشرة للموت، التي لم تتضح بصورة نهائية أبداً؛ فحتى لو كانت معروفة، لم تعلن رسمياً أمام الرأي العام. ولذلك فإن الروايات، التي وصلتنا، تتسم بالعمومية وتختلف فيما بينها في نقاط عديدة، وبعضها على تناقض تام. ولكن يبدو وكأن الرواية المرجحة إلى أقصى حد، هي تلك، التي تقول أنه تم العثور على القيصر الشاب ميتاً مشنوقاً في إحدى حجرات القصر. والسؤال، الذي يطرح نفسه: أهو انتحار؟ أم أنها عملية اغتيال، أُضْفيت عليها مظاهر الانتحار؟

لكنَّ أحداً لم يكن ليشك إطلاقً، فيمن يكون المسؤول غير المباشر عمَّا حدث في قصر ڤين ليلة الرابع عشر على الخامس عشر من أيار. فقد اتهم بقسوة وأدين **أربوغاست**، الشخصية الأكثر والأقوى نفوذاً إلى جانب فالينتينيان.

كان **أربوغاست**، كما يُشير اسمه، وكما نقل المؤلفون القدماء، جرمانياً من الشعب الفرنكوني. خدم في الجييش الروماني منذ أعوام طويلة، وكاد كغالبية بني جلدته، الذين خدموا معه، أن يخضع كلياً لمؤثرات الثقافة الرومانية الرائعة. حارب بإخلاص وشجاعة،

ولم يرحم في المعارك قومه أيضاً؛ كما أُثني عليه لغياب الجشع لديه فيما يتعلق بموضوع الممتلكات. ولكن في المقابل، تملكته شهوة جامحة وطموح زائد للسلطة. تمَّ فوزه كمستشار لفالينتينيان بمرتبة وزير، فشغل كافة المناصب الرئيسة في الجيش برجاله، كما أخضع لنفسه الإدارة المدنية، وأبعد القيصر كلياً عن أي تأثير على أمور الدولة، تاركاً له فقط الدور التمثيلي واللقب الفارغ؛ لا بل كاد أن يحوله إلى سجين في القصر.

وهكذا أضحى **أربوغاست** القائد الجرماني الأول في التاريخ، الذي عامل الإمبراطور الشرعي كدمية. وكان لمثل هذه الحالات أن تتكرر في العقود التالية بتردد أكبر وأسلوب أوضح، وخاصة في الغرب. وأخيراً، في عام ٤٧٦ ، أي بعد حادثة **فالينتينيان** بثمانين وبضع من الأعوام، عُزِلَ عن العرش **رومولوس أوغسطولوس**، آخر قياصرة **روما القديمة**؛ وقام بذلك القائد الجرماني **أودوآكر**. يعتبر هذا العمل على نطاق واسع بمثابة نقطة التحول، أي نهاية العالم القديم ونظامه، وبداية العصر الوسيط. ولكن لا بدَّ من التأكيد على أن ما حدث كان مجرد نهاية لعملية طويلة الأمد، بدأت تحديداً في أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة ـ أي عندما كان فالينتينيان يحكم الغرب شكلاً، بينما كان أربوغاست يقرر كل شيء فعلاً. فمن وجهة النظر هذه، تبدو فترة الدورة الأولمبية تلك متميزة وبالغة الأهمية! إنه لشيء مدهش هذا التقارب الزمني لأحداث تعد نقاط انعطاف حقاً، أو أنها، على الأقل، هامة رمزياً في شتى مجالات الحياة الاجتماعية: في السياسة، والمعتقدات الدينية، والثقافة، والعادات! كم من الحقائق الجديرة بالتأمل وردت على صفحات هذا الكتاب، دون أن تستنفد وفرة المادة المعلوماتية! ووضع جميع هذه الحقائق، جنباً إلى جنب في إطار زمني لا يتجاوز بضعة أعوام، يُعزز معاً أهميتها وتعبيرها الرمزي.

جرت الأحداث في حالة **رومولوس أوغسطولوس**، كما نعلم، على نحو غريب ومبتذل. حصل آخر أباطرة روما بلفتة «كريمة» من **أودوآكر** على ممتلكات في أرض **كمبانيا** الجميلة والخصبة، وعلى مخصصات مالية بمقدار ستة آلاف صلدوس سنوياً. ومنذ تلك اللحظة اختفى عن الأنظار، ولكن يرجح أن يكون قد عاش حتى الشيخوخة المتأخرة بأمان وهدوء ـ بالرغم من مختلف الجوائح، التي حلَّت **بإيطاليا**؛ وقد ترك العرش محالاً على هذا المعاش التقاعدي العجيب كفتى وسيم ورائع الجمال، ولهذا يعود الفضل في الحفاظ على حياته، كما يقال. لم يقم أبداً بأي نشاط يمكن أن يستقطب أنظار المجتمع، ولم يناضل أبداً من أجل أي شيء. أما موقف فالينتينيان، فقد كان مختلفاً تماماً، وبنيتجة ذلك واجه مصيراً مختلفاً. أراد أن يكون قيصراً حقيقياً، كما كان والده يوماً. عرف حقوقه جيداً، واعتبر

نفسه حاملاً حقيقياً لهيبة الشعب الروماني، كما كان إحساسه بالكرامة الشخصية عالياً. كان بالرغم من حداثة سنه رجلاً جاداً، مفكراً، مواطناً صادقاً، فخوراً بنسبه ووطنه. وإذا صدَّقنا بعض الإيماءات الواردة في المراجع القديمة، فقد اهتم كفتى بالقضايا السياسية، وتكلم بعقلانية أثناء اجتماعات المجالس والمحاكم؛ كما أبدى تفهماً كبيراً لمصير الطبقات المحرومة والفقيرة، وخاصة في المقاطعات؛ ومن وجهة النظر هذه ـ يشهد على ذلك الأسقف أمبروزي، وهذه كلمات ذات مغزى على لسانه! ـ كان يشبه القيصر يوليان. أما في غالة، فقد بلغت الأمور حداً لم يعد أحد يولي شخصه وأوامره الإحترام، الذي يستحقه؛ حتى الخدم والمرافقون! عجز حتى عن تقرير مكان إقامته، ولم يُسمح له بالتنقل بحرية في البلاد، التي زُعم بأنه يحكمها! لم يكن أربوغاست ليوافق بشكل خاص على مطلب العودة إلى إيطاليا، حيث كان مصيباً في توقعه، بأن الحاكم الشاب سيلقى هناك دعم المسؤولين، والشعب المعادي دوماً للهمجية. وبدون جدوى راسل سجين القصر ثيودوسيوس، الذي لم تربطه به شراكة الحكم وحدها، وإنما القرابة أيضاً ـ من خلال غالا، شقيقة فالينتينيان، زوجة ثيودوسيوس المحبوبة. كما بدت الرسائل الموجهة إلى الأسقف أمبروزي غير مجدية، أقلَّه إلى حين. وبعد أن طلب فالينتينيان بوضوح، أن يأتي الأسقف إلى ڤين على جناح السرعة، ليمنحه سرَّ المعمودية ويتوسط في النزاع القائم بينه وبين أربوغاست، استعد راعي ميلانو للرحيل، ويرجح أن يكون هذا قد تمَّ في مطلع أيار. كان قد تجاوز ذرى الألب، وراح ينحدر نحو الوديان، لكنه لم يصل إلى ڤين، إذ لم يعد هناك ما يذهب من أجله. كان فالينتينيان قد رحل.

فالينتينيان وأمبروزي:

لدى التفكير فيما بعد بتلك الأيام التي استعرضها الأسقف في كلمة تأبين فالينتينيان على النحو التالي، وكأنه أراد إحياء ذكرى المتوفى وتبرير نفسه في آن واحد.

> «تسلمت رسالتك، التي أوصيت فيها أن أعتبر أمر مغادرتي الفورية ملحاً؛ وذلك لأنك أردتني أن أكون بمثابة ضمانة لإخلاصك للوزير أربوغاست. فهل عارضتُ، وهل توانيتُ؟ وأضفت في رسالتك أنه عليَّ الحضور بأسرع ما يمكن، وأن لا أظن أن سبب الرحلة هو مجمع أساقفة غالة (غالباً ما رفضت الحضور بسبب خلافاتهم الكثيرة)، فالموضوع هو أن القيصر شخصياً راغب في تلقي سر المعمودية.

كنتُ قد تجاوزت ذرى الألب، عندما بلغني النبأ المفجع لي وللجميع، عن موت قيصر بهذه العظمة. فأقفلت عائداً أغسل الطريق بدموعي. وسط أية الأماني لجميع السكان غادرت ميلانو! وعرفت فيما بعد مدى نفاذ الصبر المحرور الذي أبداه خلال تلك الأيام الفاصلة ما بين إرسال رسالته الأخيرة لي وموته. غادر ضابط المهمات الخاصة فين مساءً يحمل الرسالة، وفي صباح اليوم الثالث، تساءل عمّا إذا كان قد عاد، وإن كنتُ قد جئتُ. آمن بأن خلاصه سيأتي معي.

«يا أفضل الشبان، ليتني رأيتك وأنت على قيد الحياة! ليت القدر حفظك حتى يوم مجيئي! لا أعد نفسي بأنه كان من الممكن تحقيق شيء بسبب فضيلتي، وحكمتي، وعقلي. ولكن بأي قدر من الولاء كنت سأحاول التوفيق بينك وبين الوزير! ولبقيت إلى جانبك بكل تأكيد، حتى لو بدا متعنتاً ولم يتراجع»[٨٠].

هذا عن أمبروزي. ولكن هل كان لقدوم الأسقف المبكر إلى فين أن ينقذ القيصر فعلاً ويعكس مجرى الأحداث؟ فإذا كان يتساءل بينه وبين نفسه ويلوم نفسه، فعلى الأرجح لم يكن محقاً، لأن النزاع في الأسابيع الأخيرة كان قد تفاقم بين القيصر ووزيره إلى ذلك الحد، الذي لا عودة منه، وتوجّب معه أن يرحل أحدهما عن العالم، أو عن البلاط على أقلّ تقدير. أما الحديث عن مصالحة حقيقية، فلم يكن وارداً إطلاقاً.

أثناء اجتماع المجلس الإستشاري الإمبراطوري، عارض أحد المشاركين بحدة رأي أربوغاست في إحدى القضايا. فانقضّ الأخير على الرجل، بينما حجبه فالينتينيان بمعطفه الأرجواني. لكن الجرماني المسعور لم يأبه بشيء؛ أردى الرجل قتيلاً أمام قدمي الإمبراطور الأعزل. واجتمع المجلس من جديد بعد فترة قصيرة. جلس فالينتينيان على العرش، وهو يرمق القائد بنظرةٍ تنضح كراهية، وناوله وثيقة؛ تضمنت الوثيقة قراراً بإعفاء القائد والوزير من كافة مهامه فوراً. لكنَّ القائد المقال أجاب بإهانة أخرى موجهة لجلالة القيصر. مزّق الوثيقة باحتقار أمام الجميع وصاح قائلاً:

ـ لست أنت من منحني السلطة كما لستَ من يسلبني إياها!.

لم يتمالك فالينتينيان نفسه، وحاول انتزاع السيف من يد أحدِ الجنود من أفراد الحرس الخاص ليطعن به الجرماني، لكن الجندي، الجرماني أيضاً على الأرجح، رفض إعطاء السلاح[٨١].

ومنذ تلك اللحظة، لم يبق أي خيار أمام القيصر والوزير. فربما انتحر فالينتينيان بعد أن عجز

عن تحمل الدور، الذي حُكم به عليه؟ إذ لا بدَّ وأنه خشي إهانات أشد إيلاماً! وربما خُنِقَ ليلاً ثم عُلِّقَ على حبل لإيهام المحايدين بأنه انتحر؟ لم يعرف القدماء الطرق الحديثة لكشف الجريمة، ولذلك فقد كانت القضية غير قابلة للإثبات. سادت قناعة عامَّة بأن رجال الخدمة أو الحرس الشخصي قاموا بارتكاب جريمة القتل، بعد أن رشاهم أو هددهم أربوغاست، لأن الأخير أدرك بأنه ذهب إلى أبعد ما يمكن في تصرفاته. وخشي قبل أي شيء آخر أن يعثر فالينتينيان على رجل قوي ومتنفذ يحميه. أمكن له أن يكون أحد القادة الجرمان الآخرين ـ لا ريب في أن الراغبين في تولي منصب بذلك القدر من الأهمية كانوا كثيرين! ـ أو ربما كان ثيودوسيوس نفسه وراء ذلك. وأخيراً، يوجد ظرف آخر يبدو وكأنه يدعم فرضية القتل: كان القيصر الشاب، بالرغم من عدم خضوعه لطقوس المعمودية بعد، من معتنقي الديانة الجديدة المتحمسين؛ وهذه بدورها اعتبرت الانتحار دوماً بمثابة الخطيئة الكبرى.

نُقِلَ جثمان الضحية بعد فترة وجيزة من فين إلى ميلانو ووضع في القصر مرحلياً. وانتظر الجميع متى وأين سيقرر الإمبراطور دفن الجثة. أما ثيودوسيوس فقد أجَّل الموضوع إلى ما يقارب الشهرين، أي حتى نهاية آب! بكت شقيقتا فالينتينيان العازبتان جوستا وغراتا شقيقهما خلال شهرين كاملين يومياً بكثير من الأسى؛ وقد حاول الأسقف أمبروزي نفسه توبيخهما ومنعهما من ذلك. كما تألمت على نحو مماثل الشقيقة الثالثة غالا زوجة ثيودوسيوس. كانت على الأرجح مقيمة معه آنذاك في القسطنطينية. وشعرت الإمبراطورة باليأس أكثر، خشية أن يؤثر موت شقيقها في المستقبل على مصيرها ومصير ابنتها غالا بلاسيديا التي كانت ما تزال طفلة بعد. إذ أدركت جيداً مدى كراهية أركاديوس لها، وهو الابن الأكبر لثيودوسيوس من زواجه الأول؛ وقد عبَّر عن هذه الكراهية قبل فترة وجيزة، وتحديداً عام ٣٩٠ ، حيث استغل غياب أبيه عن القسطنطينية وطردها ببساطة من القصر، وهي زوجة أبيه. يصعب الجزم بعد مرور كل ذلك العدد من القرون، وضآلة المعلومات المتوفرة، في ماهية الأسباب الحقيقية لذلك العداء، الذي كان متبادلاً على الأرجح، ومَنْ، الذي تحمل الذنب الرئيس: شكوك أركاديوس؟ أم اعتزاز غالا بنفسها؟ أم المؤامرات المحاكة في البلاط؟ أما اليوم، فيمكننا التأكيد، بأن هموم وقلق غالا كان لها أن تبدو عمَّا قريب غير موضوعية: فقد توفيت بعد عامين من وفاة شقيقها أثناء الوضع، أي عام ٣٩٤ . أما حياة ابنتها غالا بلاسيديا، المتيتمة أولاً بفقدان الأم، ومن ثم بفقدان الأب بعد عام واحد، فقد كانت عاصفة إلى حد ما، إذ هذه كانت طبيعة المرحلة، لكنها دوماً انتهت بالنجاح. أُلقي القبض عليها كفتاة صغيرة عام ٤١٠ من قبل القوط الغربيين؛ فكان عليها أن تتزوج

من أحد قادتهم، ويدعى **أتاولف**. وبعد موته أعيدت للرومان ثانية، وأصبحت زوجة كونستانسيوس الثالث، الذي حمل عام ٤٢١ لقب قيصر كحاكم للغرب، فولدت له ابناً دُعي **فالينتينيان**؛ وهذا، الذي وُلِد عام ٤١٩ حكم الغرب شكلاً لفترة طويلة جداً، منذ عام ٤٢٤ وحتى عام ٤٥٥ . حكم شكلاً فقط، إذ أنه بسبب صغر سنه، كان القول الفصل لأمه في البداية، ومن ثم **لأيسيوس**، ذلك الروماني الأخير. حمل ابن غالا بلاسيديا اسم أحد القياصرة من أقربائه ذاك الذي مات موتاً عنيفاً ومأساوياً على يد أربوغاست كما مرّ ـ ولقي هو نفسه المصير ذاته. الحقيقة أنه عاش خمس عشر عاماً أكثر منه، ولكنه بالرغم من ذلك قُتِلَ وهو في زهرة شبابه على يد جنديين في روما. كان الممثل الذكر الوحيد للأسرة التعسة. أما في الثقافة الأوربية، فإن المرأة غالا بلاسيديا هي، التي شيدت لهذه الأسرة النصب الأجمل والأطول بقاء؛ فهي، التي بنت في رافينا الضريح الذائع الصيت، المزخرف بالفسيفساء الرائعة، وكذلك **كنيسة القديس يوحنا الإنجيلي**.

جاء رد ثيودوسيوس بخصوص مراسم الدفن في أواخر آب. تقرر أن يستقر جثمان القيصر الشاب في ميلانو بجوار ضريح شقيقه **غراتسيان**؛ ذاك، الذي قُتِلَ قبل عشر أعوام في المعركة مع المغتصب **مكسيموس**. سعى أمبروزي لتأمين ناووس من حجر البورفير، ظهرت على غطائه منحوتات نافرة رائعة الجمال. وفي مثل هذا الناووس دُفِنَ كافة أباطرة ذلك العصر، بدءاً من قسطنطين الكبير. ومعظم هذه النصب ـ الأضرحة، استقر في العاصمة، التي على شواطىء البوسفور في كنيسة الرسل. وهناك أيضاً، وبعد ثلاثة أعوام، أي في عام ٣٩٥ ، استقر ناووس ثيودوسيوس ـ مع أنه توفي في ميلانو. مَنْ يعرف، فربما ظلَّ محفوظاً حتى أيامنا، كواحد من المجموعة الموجودة حالياً في كنيسة القديسة إيرينا التي صارت متحفاً؟.

توجد بين أيدينا نسخة كاملة من الكلمة، التي ألقاها أمبروزي بمناسبة تأبين فالينتينيان، فهو يبكي بأسلوب متكلف وخطابي الموت المبكر للشاب؛ وجّه كلمات العزاء لجميع الحاضرين، وفي مقدمتهم لشقيقتيْ المتوفى ولنفسه.

ثيودوسيوس وأربوغاست:

ما هو الموقف، الذي اتخذه الحاكم الأكبر سناً، والأوحد الآن للإمبراطورية، إزاء أحداث فين؟ لم يكن رد فعله فورياً بطبيعة الحال، كما لم يكن محدداً تماماً؛ وقد نجم هذا عن

أسباب جادة. لأن الوضع الناجم عن موت فالينتينيان، كان في واقع الأمر يهدد باحتمالات التعقيد في المستقبل القريب، بما في ذلك الصدام المسلح، لكنه من وجهة نظر أخرى بدا مفيداً، وقد تعلق الأمر بالمخططات السياسية اللاحقة ذات الأهمية القصوى. فحتى ذلك الحين، أشارت الدلائل إلى أنه بعد موت ثيودوسيوس، سيتوجب تنفيذ التقسيم الفعلي للإمبراطورية إلى ثلالة أجزاء. **الغرب**، أي **بريطانيا**، **وغالة**، **وإسبانيا**، التي كان لفالينتينيان الثاني أن يحكمها؛ ولهذا السبب أُرسل في وقت مبكر إلى ما وراء الألب. ثمَّ الجزء الأوسط ـ **إفريقيا وإيطاليا**، **وإيليريكوم** ـ التي كان لها أن تُحْكَمَ من قبل **هونوريوس**؛ ونذير ذلك، كان دخوله إلى روما بصحبة والده كصبي له من العمر بضعة أعوام، وذلك في عام ٣٨٩ . وكان لأركاديوس أخيراً أن يحكم الشرق. تمَّ تطبيق مثل هذه الشراكة في الحكم بعد موت **قسطنطين الكبير**، أي قبل ما يقارب نصف قرن. حكم آنذاك أبناؤه الثلاثة الأجزاء الثلاثة المذكورة؛ وتمَّ الالتزام على الصعيد الرسمي بقاعدة وحدة الإمبراطورية. لكنَّ هذا النظام لم يسفر آنذاك عن نتائج إيجابية؛ ثبت أنه غير مستقر وقاد إلى الحروب الأهلية. فلحسن الحظ إذن ـ هذا ما يمكننا أن نقوله اليوم، وهذا ما فكر به البعض آنذاك أيضاً ـ رحل فالينتينيان، ولم يعد يدخل في الحسابات، ولذلك أضحت مخططات الحكام الثلاثة غير ضرورية. وأصبح من الممكن التوقع أو بالأحرى الإقرار، بأن الإمبراطورية سوف تقسم بين الأخوين: أركاديوس وهونوريوس. وكان لهذا الشيء أن يمنح كلاً من الأخوين قوة أكبر في الحرب مع الهمج، ويسمح في الوقت نفسه بفرص أفضل للحفاظ على الاستقرار الداخلي. وكان مهماً لثيودوسيوس أن تبقى الإمبراطورية بأكملها بين يدي ابنيه، لأن فالينتينيان الثاني لم يكن سوى نسيب له. أما نحن، وإذا نظرنا من منظور القرون، فلا بدَّ لنا من القول: أن ما حدث في ڤين في أيار ٣٩٢ ـ في العام الأخير من أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة قرر الشكل السياسي للإمبراطورية في عام ٣٩٥ ، وهذا الشكل، الذي ثَبُتَ لفترة طويلة، ترك بصماته العميقة على مجمل تاريخ أوروبا.

كان كل هذا من أمور المستقبل؛ فقد برز في المستوى الأول التساؤل عمَّا ينوي أن يفعله أربوغاست. كان هناك شيء واحد بدا مؤكداً: لن يرتدي بنفسه الأرجوان الإمبراطوري! لأنه كجرماني سيواجه حالاً بعداء صريح من السكان الرومان في كافة المقاطعات، وبمقاومة من جانب السلطات المدنية؛ كما أن ردَّ فعل الجنود المرتزقة الغرباء أمكن أن يكون غير متوقع. ولذلك لم يكن أمامه سوى طريقين للخيار: الإعلان عن عدم مسؤوليته عن موت فالينتينيان، والبقاء وفياً لثيودوسيوس، الذي سيعين خلفاً للمتوفى وفق قناعاته؛ أو أن يشغل العرش الشاغر في الغرب برجل لن يكون سوى دمية بين يديه. بدت الأمور في

البداية وكأن أربوغاست راغب في سلوك الطريق الأولى. فقد جاءت رسله إلى القسطنطينية على جناح السرعة، ناقلين نبأ انتحار القيصر الشاب ـ الأمر، الذي سبب ألماً كبيراً للوزير. أما العملة، التي صُكّتْ في المناطق التابعة لأربوغاست آنذاك، فقد حملت صورة أركاديوس؛ الشيء، الذي كان يعني إشارة واضحة إلى أنه راغب في رؤيته حاكماً هناك.

تصرف **ثيودوسيوس** بحذر وعقلانية إزاء هذه الحالة الشديدة التعقيد. أصغى إلى رواية رسل **أربوغاست**، واعتبرها صادقة ورسمية. كما أنه استمر في تأجيل موضوع الدفن؛ وفي نهاية المطاف أوصى بدفن الجثة في **ميلانو** وليس في **القسطنطينية**؛ وهذا ما أضفى على المراسم طابعاً أكثر تواضعاً. ولكنَّ كل هذا لم يكن يعني أنه وثق بأربوغاست. أراد فقط كسب الوقت، وتجميع القوى، والقيام بالاستعدادات الأكثر ضرورة. أما شقيقة القيصر صاحب المصير المأساوي، الإمبراطوزة غالا، فلم تُخْفِ أنها تعتبر الرواية، التي يشيعها أربوغاست كذبة عادية، وتعتبره قاتلاً وعلى هذا طالبت بالانتقام. وكان لهذه المرأة الفتية الجميلة تأثير كبير على زوجها ـ بالرغم من عداء ابن الزوج أركاديوس. وبالطريقة ذاتها نشط **روفين** صاحب النفوذ الواسع؛ ربما لأنه وجد في ذلك فرصة ملائمة لتصفية الحسابات مع الوثنيين، الذين كانوا لا يزالون يتسلمون مناصب رفيعة ومسؤولة.

منذ بضعة أعوام تولى منصب القائد العام لجيوش الشطر الشرقي في الإمبراطورية رجل يدعى **ريخوميريس**، وهو فرنكوني الأصل، ربطته علاقة قرابة مع أربوغاست كان من الممكن الاشتباه بأنه مارس نشاطاً ما لصالح الأخير؛ لكن هذا الافتراض خاطىء في الأساس. أجل، كان ريخوميريس من الجنود الغرباء، لكنه خضع «للرومنة» كلياً، وقد ماثل ما بين قضيته الشخصية ومصالح الإمبراطورية والأباطرة، حيث خدم عدداً منهم بإخلاص من قبل، وأبدى أمانة وشجاعة غير معهودتين. كما تسلق درجات سلَّم المجد عالياً، حتى تولى عام ٣٨٤ منصب قنصل. ويبدو أنه حصَّل شيئاً من التعليم، ومن المؤكد أنه أبدى رغبة كبيرة في معاشرة المثقفين. وقد تعززت أواصر الصداقة بينه وبين **ليبانيوس** أثناء إقامته في **أنطاكية** السورية، حيث أثنى عليه الأخير علناً وامتدح ولاءه التام للآلهة والعبادات القديمة. كما أقام في القسطنطينية علاقات مع الخطيب **تيميستيوس** ذو الشهرة الواسعة هناك. وأخيراً، في روما، حيث أقام لفترة قصيرة برفقة **ثيودوسيوس**، تعرف على مدرس للأدب اللاتيني من ذلك الوسط وأحاطه برعايته. كان الإمبراطور على إطلاع تام على علاقة القرابة، التي ربطت الرجلين الفرنكونيين، **ريخوميريس وأربوغاست**، وبالرغم من

ذلك، ظلَّ يمنح الأول ثقة لا تتزعزع.

وهكذا لعب الجانبان، ثيودوسيوس وأربوغاست، طيلة فترة صيف عام ٣٩٢ لعبة كسب الوقت. وكان أربوغاست أول مَنْ انتقل للهجوم. فقد أقدم على خطوة تعذر التراجع عنها، بالرغم من أنها لم تكن تعني إعلان الحرب بعد. جاءت خطوته في اليوم الثاني والعشرين من آب، إذ رفع إلى عرش ذلك الشطر من الإمبراطورية ذلك الذي اختاره ليكون قيصره.

يوجينيوس:

أستاذ الآداب، الذي تعرَّف عليه ريخوميريس في حينه أثناء إقامته برفقة ثيودوسيوس في روما، كان يدعى **فلافيوس يوجينيوس**. يقال أنه كان ذا صيت ذائع في مجال تخصصه. ولم يتميز بالمعرفة والمواهب التربوية فحسب، وإنما بالدماثة واللطف في التعامل، والفكاهة أيضاً؛ وعلى الأقل، فهذه هي الصورة، التي رسمها له أحد المؤلفين القدماء. مَنْ عرَّف القائد **ريخوميريس** على يوجينيوس وأوصاه به؟ يرجح أن يكون السناتور **سيماخوس**، الحسن الإطلاع على عالم المثقفين في روما. ورجل الكتاب والمدرسة هذا، هو مَنْ دخل قلب الجرماني، الذي قدمه بحرارة لقريبه أربوغاست وأوصاه به، حيث كان مقيماً بدوره في روما آنذاك، أي في عام ٣٨٩ .

وبهذا الأسلوب حصل الأستاذ الأديب يوجينيوس على منصب رفيع وهام، على الرغم من أنه لم يتولَّ حتى ذلك الحين أية مهام وظيفية. فأصبح رئيس السكرتاريا بجانب القيصر فالينتينيان ((Magister Screnii)). وبرفقته ورفقة أربوغاست سافر إلى غالة. بدا الاختيار مبرراً تماماً لأسباب عملية. فقد تولى إدارة السكرتاريا الإمبراطورية رجل من روما، أتقن اللاتينية الأدبية، وكان دمثاً، وحظي بسمعة حسنة. أما بالنسبة لأربوغاست، فإن الشيء الأهم هو رغبة واستعداد يوجينيوس للعمل معه. وبفضله أصبح مطلعاً على كل رسالة صدرت أو وردت إلى سكرتاريا فالينتينيان، وكذلك على الوثائق، التي كانت قيد الإعداد. يستنتج من ذلك أن مضمون الوثيقة، التي أقالته من منصبه، كان معروفاً لأربوغاست سلفاً. فلم يشعر بالدهشة، وأمكن له أن يقوم بذلك العمل المفعم بالاحتقار ويتفوه بكلمات الرد، التي بتنا نعرفها.

يكمن هنا سرٌ ما، ويبدو الأمر وكأنه لغز. فها هو روماني مثقف، وذكي، وإنساني، يلعب

دور الحليف لضابط جرماني ضد القيصر الشرعي! قد يرى البعض أن القضية سهلة: رُشِيَ يوجينيوس أو أغري بوعود ترقية أروع. فما أكثر الحالات المشابهة، التي يعرفها التاريخ، وليس ذلك في العصور القديمة وحدها؟ لأن المثقفين لا يُبدون عادة مقاومة إزاء الإغراء أو التهديد. وإنما العكس، يتميزون بالهشاشة، إذ يمتلئون غروراً لدى العمل مع ممثل القوة الوحشية، على الرغم من أنهم يحتقرون بدائيته في أعماقهم. لكنَّ معلوماتنا ضئيلة، وكذلك معرفتنا بالعلاقات القائمة آنذاك وبأبطال الأحداث التي جرت لكي نحكم بهذا الأسلوب في هذه الحالة المحددة. أيمكن أن تكون هناك أسباب عقلانية أعمق؟ ألا يمكن أن يكون يوجينيوس وأربوغاست اضطرا للعمل المشترك، وهما يضعان نصب أعينهما مصلحة الدولة أيضاً، وليس مصالحهما الشخصية وحدها؟ فمن يعرف إن كان فالينتينيان فعلاً إنساناً طاهراً، سهل المعشر، وجديراً بالإعجاب، كما أراد أمبروزي أن يصوره لنا في كلمة التأبين؟ وعلى أي حال، فإن بعض أعمال وتصرفات القيصر الشاب تدعو للتأمل والتفكير. فقبل أي شيء، يبدو أنه في بعض الظروف تصرف بانفعال وعنف مفرطين. كان في بعض الأحيان مغيظاً، وردود فعله مذهلة إزاء اي نقد لتصرفاته أو سلوكه، وإن كان النقد غير مباشر وتعلق الأمر بأشياء صغيرة نسبياً. فقد أمر بقتل كافة الحيوانات في الغابة، التي مارس فيها هواية الصيد، لمجرد أن أحدهم اتهمه بميله المفرط للصيد. وعندما لاحظ شخص آخر، ربما مزاحاً، أن القيصر يبكر في الجلوس إلى مائدة الإفطار، كفَّ عن تناول الطعام كلياً في الصباح؛ ولم يحدث منذ ذلك الحين، أنه جاء إلى الولائم الرسمية، المخصصة للمسؤولين، دون أن يتذوق الطعام[٨٢]. كل هذه الأمور ثانوية بطبيعة الحال؛ لكنها تشهد على أن التعامل اليومي معه كان صعباً. وإذا أضيف إلى ذلك حماسه الشديد للمسيحية! ذلك الحماس، الذي دفعه لعدم زيارة السيرك والمسارح حتى في أيام أعياد ميلاد الأباطرة. أما يوجينيوس، فكان على الأرجح من المسيحيين المتذبذبين، وكان من ناحية القناعات الدينية أقرب إلى أربوغاست منه إلى فالينتينيان.

ظهرت فيما بعد شائعات تقول أن يوجينيوس كان مطلعاً منذ البداية على مخططات إزاحة فالينتينيان؛ تردد في بادىء الأمر، ثم انضم للمؤامرة فيما بعد وساهم بصورة غير مباشرة في جريمة القتل ـ بعد أن عرف أية مكافأة تنتظره. يصعب الجزم في هذه القضية، وذلك في غياب شهادات محددة، ولكن هناك اشتباه، بأن هذه الشائعات سرت في بلاط ثيودوسيوس على نحو هادف لتشويه صورة المغتصب.

باشر سيِّد الغرب الجديد على الفور مساعيه من أجل المصالحة مع حاكم الشرق جاء رسله إلى القسطنطينية. والشيء الملفت للنظر: أن يوجينيوس تكلم ظاهرياً باسمه الخاص فقط، دون أية إشارة في رسالته إلى اربوغاست، ولو بكلمة واحدة، كما التزم أعضاء الوفد أيضاً الصمت بخصوصه. تردد ثيودوسيوس وأجَّل الرد طويلاً، ثم ودع رسل المغتصب بأسلوب لائق؛ دون أن يبخل بالهدايا، لكنه لم يقدم أي ردٍ على الإطلاق. أجل، ألقى كلمة ودية ووديعة النبرة، لكنها شديدة التداخل والدبلوماسية، بحيث لم يكن أحد يعرف ما هو الموقف، الذي سيتخذه من مطالب يوجينيوس.

سقوط تاتيانوس:

في واقع الأمر، وبغض النظر عمَّا كان يقوله الإمبراطور، عن كيفية تصرفه، كان القرار قد اتخذ. فلم تكن لدى ثيودوسيوس أية نوايا للاعتراف بأية صيغة كانت، بالجانب الآخر كسلطة شرعية. ولكي يحمي وحدة الإمبراطورية والإرث الذي أراد نقله لابنيه كاملاً، كان على استعداد لكل شيء، بما في ذلك الحرب.

لكنه مرحلياً، ووفقاً لنصائح روفين بكل تأكيد، اقتصر على القيام ببعض التصفيات في أوساط كبار المسؤولين في الإمبراطورية، المشتبه بتذبذبهم أو عدم الولاء؛ وسقط الوثنيون وحدهم بطبيعة الحال، ضحية لهذه التصفيات. يصعب الجزم فيما إذا كان هذا الشيء قد تمَّ قبل تنصيب يوجينيوس أم بعد ذلك بقليل، لأننا في الوثائق نعثر على بعض الأخطاء في التأريخ. ولكن على أي حال، فإن الشيء، الذي لا يرقى له الشك، هو حدوث ذلك قبل خريف عام ٣٩٢ م.

يبدو أن أول مَنْ عُزِل عن منصبه كان نيكوماخوس فلافيانوس الأكبر. فقد كان والي الجزء الأوسط من الإمبراطورية، أي ذلك الجزء، الذي كان سيصبح في حال نشوب الحرب، الهدف الأول للمغتصب، أو كان سيستخدم كقاعدة انطلاق ضده. ثم عُزل اليوس وابنه بروكولوس، أحدهما من ولاية الشرق، والثاني من ولاية القسطنطينية. وفي الحال، حلَّ روفين محلَّ تاتيانوس كقنصل. وفي تلك اللحظة بلغ ذروة طموحه السياسي؛ فقد كان رسمياً وعملياً الشخص الأول في الإمبراطورية بعد القيصر وابنه.

لكنَّ هذا لم يكن كافياً في نظره. ارتأى أنَّ من واجبه تصفية هذين الاثنين (تاتيانوس وابنه) جسدياً أيضاً؛ يبدو أنه خشي عودتهما بعد حين إلى السلطة وعطف الإمبراطور. أُثيرت اتهامات بتجاوزات مزعومة، أقدم عليها كلاهما، الأب والابن. اتُّهم الأول منهما، أي **تاتيانوس** بزيادة الأعباء الضريبية بصورة غير قانونية وغير مبررة،وأنه تصرف بقوة فائقة أثناء مصادرة الأموال الخاصة. شُكِّلَتْ محكمة خاصة للنظر في القضية وصحة الإتهامات؛ وقد ترأسها **روفين** ذاته. أما **بروكولوس**، فقد توقع بشكل سليم ما تهدف إليه كل هذه الضجة، ولذلك فرَّ في الوقت الملائم واختفى في مكان ما بحيث تعذَّر العثور عليه. وكما توقع **روفين**، فإن والده وحده كان يعرف أين يجب البحث عنه. وفي نهاية المطاف أقنع تاتيانوس، بأنه من الأفضل لكليهما إذا ما امتثل **بروكولوس** بأسرع ما يمكن أمام المحكمة، وأقسم **روفين** بأنه لن يتعرض لأي أذى، وأكد الإمبراطور ذاته أنه بإمكانه الاعتماد على عطفه. ولكن حالما ظهر والي القسطنطينية السابق في المدينة، اعْتُقِلَ. استمرت محاكمة الاثنين طويلاً، لبضعة أشهر. وانتهت بصدور الحكم بالإعدام على كليهما. نُفِّذَ الحكم بالابن **بروكولوس** أولاً، وذلك بحضور الأب في إحدى ضواحي القسطنطينية يوم السادس من كانون الأول عام ٣٩٣ . قيل فيما بعد، أنَّ الإمبراطور بعث برُسُلٍ في اللحظة الأخيرة كي يوقف التنفيذ، ليفي بوعده، الذي قطعه من قبل؛ لكنَّ روفين المطلع على كل شيء، تعمد إعاقة مغادرة الرسول للقصر في اللحظة الملائمة.

سبق أن أشرنا إلى النص المنقوش، الذي لا يزال بارزاً على قاعدة المسلة، التي نصبت في ميدان سباق القسطنطينية حتى اليوم؛ كان الإمبراطور ثيودوسيوس قد جاء بهذه المسلة ونصبها هناك عام ٣٩٠ ، عندما كان **بروكولوس** والياً على المدينة. هناك في الحقيقة نصَّان، إغريقي ولاتيني، وهما متشابهان إلى أقصى حد. وفي الحالتين تعرض اسم **بروكولوس** للمحو بعد نقشه مباشرة، وَنُقِشَ فيما بعد من جديد. تمَّ محوه ـ لا ريب في ذلك ـ مباشرة بعد إصدار الحكم وإعدام الوالي السابق، وَنُقِشَ من جديد بعد بضعة أعوام، عندما جاء الدور على روفين ليحكم عليه بالموت وبقطع رأسه بالسيف بحضور الإمبراطور **أركاديوس**؛ أيضاً في إحدى ضواحي القسطنطينية.

ما هو المصير، الذي لقيه **تاتيانوس**؟ أوقف الإمبراطور تنفيذ الحكم، ولكن صودرت ممتلكاته وأُرغم على الإقامة في ليتسيا. وبعد سقوط **روفين**، أُعيد له اعتباره ولقبه، ولكن ليس ممتلكاته؛ توفي وهو شيخ طاعن في السن، ضرير على الأرجح، يعيش كمتسول.

الثامن من تشرين الثاني:

«الأباطرة ثيودوسيوس، وأركاديوس، وهونوريوس

إلى روفين الوالي:

لا يسمح لأي إنسان، بغض النظر عن المكانة والانتماء؛ كما لا يُسمح لأي موظف سواءً أكان ما يزال يقوم بأداء مهامه أو تركها، ولا لأي متنفذ بسبب ولادته، ولا لأي وضيع بسبب انتمائه، ومنزلته، أو ثروته ـ لأي كان في أي مكان وفي أية مدينة ـ لا يسمح لأحد من كل هؤلاء بقتل حيوان بريء كأضحية لأصنام ميتة؛ كما لا يسمح بتمجيد اللارات(*) بأضحية استعطاف سرية، بالنار، والأرواح الحارسة بالخمر، وآلهة المنزل بالعطور؛ لا يسمح بإشعال النار لهم أو وضع البخور أو تعليق الأكاليل.

وإذا ما تجاسر أحدهم على تقديم حيوان كأضحية، وتفحُّص أحشائه والبخار المتصاعد منها، تُوَجَّهُ إليه التهمة ذاتها الموجهة لمن أهان العرش. ويمكن لأي كان توجيه التهمة، وسينال المذنب العقاب الملائم؛ حتى وإن لم يبحث عن أي شيء ضار بصحة الأباطرة أو بما له علاقة بصحتهم. إذ يُعَدُّ جريمة كبرى مجرد الرغبة في معرفة قوانين الطبيعة؛ والبحث عمّا هو محظور؛ والكشف عمّا هو خفي، ومحاولة معرفة نهاية حياة ما، أو الوعد بأمل إنهاء حياة ما»(٨٣).

هذه هي العبارات الأولى من المرسوم الصادر في اليوم الثامن من تشرين الثاني. عندما تولى منصب القنصلين أركاديوس للمرة الثانية وروفين، أي في عام ٣٩٢ . قد يكون هذا المرسوم هو الأهم والأكثر شمولاً بين كافة المراسيم المناهضة للوثنية في كامل التشريعات الرومانية المحفوظة. فهو يجمع، ويوحد، ويوسع، ويزيد حدة على كافة المراسيم التي سبقته في هذا المجال. وقد أصدر الأباطرة المتعاقبون خلال القرن الرابع على العرش عدداً كبيراً من هذه المراسيم! فهو يحظِّر القيام بأي من الطقوس الوثنية في أية من صيغها وأشكالها دون استثناء. يحظِّر ممارستها على أيٍ كان، وفي أي مكان، وبأي أسلوب؛ ليس في المعابد فحسب، وإنما في المنازل الخاصة أيضاً. يمنع تقديم الأضاحي، ولا يقتصر الأمر على الحيوانات وحدها، بل يشمل أكثر التقدمات الرمزية تواضعاً؛ أي الزهرة، والبخور، والمصباح الزيتي، والشمعة. أما مَنْ يُقْدِمُ بعد نحر الحيوان على مذبح الآلهة، على تفحص

(*) اللارات : مفردها اللاّر Lar وهو الاله أو الروح الحارسة لدى الرومان . (المترجم)

أحشائه لأغراض العرافة، كما كانت تفرض التقاليد القديمة، فيعرض نفسه للعقوبات المفروضة على مَنْ أهانوا هيبة إمبراطور الشعب الروماني. وهذا يعني، فيما لو تمَّ التقيد بحرفية القانون، مصادرة الممتلكات، والنفي، والسجن، أو حتى عقوبة الموت.

كان مرسوم الثامن من تشرين الثاني موجهاً ضد أبسط العبادات، أي أكثرها انتشاراً ورسوخاً، وخاصة المرتبطة منها بحياة الريف. مَنْ يضفر شجرة بأشرطة، ومن ينصب مذبحاً حقلياً متواضعاً ويكسوه الخث(*)، يهين بذلك ـ هذا ما يؤكده المرسوم ـ الدين. ولذلك فإن مالك المنزل أو الحقل حيث أقيمت هذه المراسم، يعاقب بمصادرة تلك الممتلكات لصالح خزانة الدولة، إذا كان على علم بالجريمة وشارك بها؛ ولكن إذا أقيم الطقس الوثني بدون علم المالك، توجب عليه دفع غرامة بمقدار خمسة وعشرين رطلاً من الذهب، شأنه شأن كل واحد من المشاركين. على رعاة المدن وأعضاء مجالسها إعلام المحاكم فوراً عن حالات التجاوز على المرسوم وعدم التقيد به، وعلى المحاكم اتخاذ الإجراءات الفورية. وإذا حاولت السلطات إخفاء الحقائق، تتحمل المسؤولية بنفسها؛ أما القضاة، إذا قاموا بتأجيل الإجراءات وإصدار الحكم، سيرغمون على دفع غرامة بمقدار ثلاثين رطلاً من الذهب، شأنهم شأن الموظفين التابعين لهم.

وهكذا أصبح يوم الثامن من تشرين الثاني من عام ٣٩٢ م، مع إعلان المرسوم، بمثابة يوم **الموت الرسمي للوثنية** داخل حدود الإمبراطورية. هذه كانت نوايا وإرادة الإمبراطور ومستشاريه. ولكن بالرغم من جهود وتوقعات المشرعين، فإن ضربة بهذا القدر من القوة أيضاً، كانت عاجزة عن إسقاط المعتقدات القديمة كلياً. وعلى الرغم من أنها أُزيحت ـ إن صحَّ القول ـ إلى الممارسة السرية، فقد بقيت حيَّة لقرون أخرى. ويمكن القول دون مبالغة، بأنها في الحقيقة لم تمت أبداً؛ أجل، لقد خضعت لتحولات بنيوية، واكتسبت وجهاً أو قناعاً مختلفاً، وتغيرت الأسماء ـ وكل هذا بهدف الدخول خلسة إلى معسكر الخصم. ولكنَّ هذه قضية مختلفة لسنا بصدد بحثها. وعلى أي حال، فمنذ يوم الثامن من تشرين الثاني، وجب البحث عن أساليب مبتكرة وملتوية للتمكن من ممارسة عبادة الآلهة القديمة.

لو حاول أي كان، البحث عن نص قانوني يمكن اعتماده كأساس للقول بأن المهرجانات الأولمبية أُلغيت بمرسوم رسمي، فإن المرسوم، الذي نحن بصدده يمكن أن يكون بمثابة وثيقة

(*) الخث : أو TURF بالانكليزية وهي الطبقة العليا من التربة المشتملة على العشب وجذوره. أو جذور النباتات الباقية تحت سطح الأرض لفترات طويلة دون أن تبلغ مرحلة التفحم. (المترجم).

من إصدارات ١٩٩٦

الله والانسان على امتداد ٤٠٠٠ عام	تأليف : كارين آرمسترونغ
الوثنية والمسيحية	تأليف : ألكسندر كرافتشوك
مدخل إلى القانون الاميريكي	تأليف : آلان فرانثورث
الموقف من الخمرة	تأليف : د. سليمان حريتاني

سيصدر عن الدار

الجواري والقيان	تأليف : د. سليمان حريتاني
نقد العقلانية العربية	تأليف :الياس مرقص
ولادة إله	تأليف : جان بواتيرو
مُحمد وجهة نظر غربية لفهم الإسلام	تأليف : كارين آرمسترونغ